الدول البربرية الكبرى

240 ق.م - 40 م

تمسك البربر في عهودهم الأولى بنظام اللامركزية

كان لبربر في وطنهم الخصب الجميل المغرب الكبير على نظام القرية والقبيلة في نظامهم الاجتماعي. فكل قري تحكم نفسها لا تريد ان تتدخل غيرها في شؤونها. وكل قبيلة يسوسها زعمها[55] الذي تختاره وتقدمه.وتجعله رئيسها. لا ترضى ان تسيطر قبيلة أخرى عليها.ولا ان يتخل رئيس آخر في شئونها. وذلك لان البربر مفطورون على حب الحياة الاستقلالية. مجبولون على الغرام بالحرية. يهوون اللامركزية في احكم. وتراهم يعتمون في شئونهم على أنفسهم. لا يتكلون على حكومة ولا على قبيلة. وإذا اتجه احدهم إلى قبيلته فعلى انه عمادها وعضدها الذي يقويها وينعشها. وقد ثبت الاستقرار والسلام. والطمأنينة التي دام عليها البربر قرونا في العهد الحجري. هذا الطبع في نفوسهم انه لم تكن هناك في ذلك العصر دولة قوية تهدهم بالاحتلال.ولا عدو جبار يخافون سطوته. فيرغمهم ذلك على الاجتماع والتكتل. والانضمام كلهم تحت رئاسة ملك واحد. ليدفعوا الأعداء. ويحفظوا وطنهم من المغيرين.

وكانت الحياة البسيطة التي يحياها البربر في عهودهم الأولى تستلزم ذلك. فحاجاتهم قليلة ومآربهم معدودة.ومثلهم العليا فردية. ويستطيع كل فرد ان ينال حاجاته. وكل قبيلة وجماعة صغيرة ان تحقق كل أغراضها. أما المدينة. وحياة الحضارة المعقدة. والمثل العليا الجماعية التي تستلزم أنظمة كثيرة.وأمة متكتلة تخضع لحكومة واحدة فذلك ما لم يكن عليه البربر في عهودهم الأولى قبل البونيقيين.

ومن أسباب تمسك البربر بنظم لقري خصب وطنهم وغناؤه وجماله وسعته. وقناعتهم به. فلم يشرهوا إلى أوطان أخرى يتوسعون فيها. ويكملون بخيراتها موارد وطنهم. فيدعوهم ذلك إلى التكتل والخضوع لرئيس واحد يقودهم في تحقيق المثل الأعلى الجماعي الذي يملأ قلوبهم.

---

55 - من أولئك الزعماء الملك يوباس الذي اشترت منها عليسة مكان قرطاجنة فهو زعيم ورئيس للقبيلة الحالة في المكان لا ملكا على افريقية كلها.

نشأة الممالك البربرية

وقد دام البربر قرونا على نظام القرية والقبيل، ولا يعصف بهم خوف فيتكتلون، فان كان فهو خوف القبائل بعضها من بعض، وهو ما وحد كل قبيلة ورص صفوفه لتضمن لغالبة والقوة وعيشة الاستقلال؛ حتى اتصلوا بالبونيقيين فتعلم البربر منهم لمدني الرقية، واقتبسوا منهم العلوم والفنون، فتكون لهم مثل أعلى جماعي في الملك والسلطان، فتغيرت حيتهم فصرت تستدعي أنظمة وقوانين جيدة كالتي كان عليها البونيقيون، فصارت القبائل البربرية ينضم بعضها إلى بعض، وينتخب الجميع رئيسا واحدا يسوسهم. فتكونت الإمارات البربرية في النواحي، ثم ازداد البربر في الرقي والحضارة، وصار لهم مثل أعلى جماعي يسيطر عليهم وهو ان يصبحوا دولة عظمى كالدولة البونيقية، فدعا ذلك الإمارات إلى الامتزاج والتكتل، وصار أعلى الأمراء شأنا، وأكثرهم كفاءة وقوية، وأغزرهم عددا هو لملك المطاع، وأصبح الكل رعيته، يقوهم في طريق الحضارة، وينافس بجهودهم وعملهم الدائب في البناء والتشييد الدول البونيقية التي كان البربر اكبر من نافسها في آخر أيامها.

وكانت نوميديا سيما القسم الشرقي منها اسبق إلى الرقي، وأسرع في التقدم من بقية أنحاء المغرب الأخرى. وذلك لمحاورتها للبونيقيين، ولكثرة امتزاجها بهم في السلم والحرب، في المدن والأسواق، وفي الحروب التي كانت نوميديا اكبر عون للبونيقيين.

وكانت نوميديا أكثر رقيا من موريطانيا الشرقية، وموريطانيا الغربية، وجيتولية، وارسخ قدما في الملك والسلطان. وأكثر دفاعا عن المغرب، ومحافظة على استقلاله وحريته.

ان أكثر الملوك الكبار الذين نهضوا بالمغربي، عملوا لتوحيده، وشرفوه بعبقريتهم وإخلاصهم وشجاعتهم كانوا من نوميديا. ولا نجد في الموريطانيتين الشرقية ولغربية إلا ملكا واحدا كان عظيما، وشارك في نهضة المغرب واستقلاله هو صيفاقس ملك موريطانيا الشرقية. وسنعرض في الفصول المقبل لكل من عرفنا من ملوك البربر الكبار والدول البربرية العظمى، وتقف فيها وقفة شافية، ثم نلم بالممالك الصغرى استيفاء للحلقات ووصلا لأحداث التاريخ بعضها ببعض.

من هؤلاء الملوك الأبطال والزعماء المخلصون العباقرة الذين انشأوا للمغرب الكبير دوله العظمى، فعاش مدللا رافها تقلب في حجرها في الدمقس والعطور، ويحتال في الحضارة والغنى والعلم والسعادة؟ ! من هؤلاء المحسنون الذين خرجوا بالمغرب من البداوة

والتفكك والجهالة، فوحوا أجزاءه في كل الجهات، وأنشأوا لنا ممالك عظيمة أورثت للمغرب الكبير حضرة وعلما، وتركت فيه وراثة زكية هي التي أنعشها الإسلام وضاعفها، فقام المغرب لتأسيس دوله الإسلامية العظيمة، للاستقلال عن الأمويين والعباسيين قبل اغلب النواحي في العالم الإسلامي.

ان أول هؤلاء الملوك العظماء والزعماء المخلصين هو صيفاقس. فمن هو؟ وما شخصيته، وما حدود مملكته،وما آثاره في قومه، وما بقية أخباره؟

مملكة صيفاقس الكبرى 230-202 ق.م

حدود مملكة صيفاقس

كنت مملك صيفاقس في أول لأمر هي موريطانيا الشرقية. وحدها من الشرق غرب مدينة بجاية، ومن الغرب وأي ملوية، ومن الجنوبي حد جيتولية الشمالي. ثم اتسعت مملكته في سن 205 ق.م. فاستولى على نوميديا كلها فصار حد مملكته يبتدئ شرقا من طبرق، وينتهي غربا في وادي ملوية. غير ان ملك صيفاقس لنوميديا لم يدم إلا سنتين ثم قتل فانفصلت نوميديا عن موريطانيا الشرقي، فصارت مملكته مستقلة تحت ملكها مصينيسا

وكانت عاصمة دولته (صيغة) وهي مدينة كبيرة غرب نهر (تافنة) في موطن خصب ومكن منيع.وهي في شرق وأي ملوي قريبة من الشاطئ. وتبعد عن شرق وأي ملوية بخمسة وأربعين ميلا.

نسب صيفاقس وشخصيته العظيمة

أما نسب صيفاقس فان بأيدينا من التاريخ لقيم ومن أثار صيفاقس لم يتعرض له ولم يخبرنا بقبيلته. وإذا استعنا بما نعرف من طبع البربر في عهود بداوتهم، وأيام نشأة ممالكهم الكبرى، وبمن كان يحل في المكان الذي كانت فيه عاصم صيفاقس استطعنا ان نعرف قبيلته.

ان لبربر أيام نشأة ممالكهم لا تين القبيلة منهم لغير زعيمها لذي تختاره منها والجهة لغير أمير من الأمراء الذين ينتخبون من قبائلها. ولا يمكن ان يكون صيفاقس من قبيلة أخرى في المغرب الأدنى جاء بجيوشه وقواه فاخضع المغرب الأوسط وساد فيه. لو وقع ذلك لحدثنا التاريخ بحروب صيفاقس لإخضاع موريطانيا الشرقية. ولا يمكن ان تخضع له بدون حروب طويلة الأمد، عنيفة هوجاء تحفظ أخبارها وتصل لينا. ا صيفاقس من المغرب الأوسط، ومن موريطانيا الشرقية التي ساد بها، ومن أقوى قبيل فيها.

وكان الملك في تلك العهود يقوم على العصبية. فاكبر الملوك قبيلة هو الذي يملك

ناحية، ويستتبع بقية القبائل المحيطة بها فتنقاد له. ولم يستطع صيفاقس ان يسود على أمراء النواحي في موريطانيا الشرقية ويستتبع، ويوجد موريطانيا الشرقية ويجعلها مملكة واحدة إلا لقوة قبيلته، ومجدها، وكثرة عددها. وكانت اكبر القبائل في موريطانيا الشرقية سيما في وسطها وغربها، وهي الأمكنة التي نشأت فيها مملكة صيفاقس. كانت اكبر القبائل في تلك النواحي هي زناتة.

عملة الملك صيفاقس

وكانت عاصمة صيفاقس هي مدينة صيغة في شمال تلمسان. والعاصمة لا تكون إلا في بلاد القبيلة التي يقوم عليها الملك ويستند إليها الملك سيما في مدافعة الأعداء. وكانت تلك المناطق من غرب مدينة (مليانة) إلى غرب مدينة صيغة لزناتة. وكانت الرئاسة فيها قبل الإسلام لزناتة. وكان من ملوكهم (وصلات بن وزمار) الذي أدرك أول الفتح الإسلامي. ثم استمرت رئاستهم لتلك الناحية إلى ان نشأت الدولة الرستمية في منتصف القرن الثاني الهجري بالمغرب الأوسط فدخلوا فيها، وبايعوا أئمتها، ثم خضعت تلمسان وغربها للدولة الإدريسية. ان زناتة هي القبيلة الكبرى في موريطانيا الشرقية و لا يمكن ان يكون الملك من غيرها. ان شدة شوكة صيفاقس، وطول مدته في الملك جليل على انه ستند إلى أقوى قبيلة، وليست في موريطانيا الشرقية سيما في الوسط والغرب منها إلا زناتة أرى ان صيفاقس من زناتة. واختياره مدينة صيغة عاصمة له في وسط بلاد زناتة من الأدلة على انه منهم، ومن ذؤابتهم، وفروعهم الكبرى.

أما والد صيفاقس وأسرته فان المؤرخين لم يذكروا لنا شيئا عنها. ان والد صيفاقس لو كان ملكا لذكره المؤرخون. وارى انه من سراة زناتة وأفذاذها. ان الابن مظهر لوالد وأجلى

مرآة لهما. فما كان في صيفاقس من بطولة وذكاء، ومن همة وعزيمة، وغيرها من صفات الرجولة التي جعلت البربر يقدمونه إلى الرئاسة، ويرتضونه للزعامة ويقبلونه ملكا لدولتهم الناشئة؛ ان هذه الصفات قد ورثها من أبويه، فهما مصدرها لهذا نحكم بأنه ابن عائلة ماجدة، ومن أبوين كريمين، وان أباه وأجداده كانوا من سادات زناتة، ومن رؤسائها الكبار.

ان البربر لا يمجدون المرء لعظاميته، ولكن لحقيقته. لأخلاقه العظيمة، ومواهبه العقلية الناضجة. هذه الصفات التي تورث و لا تكتسب. انها تنمو في الآباء، وتكمل في الأبناء. وإذا مجدوا إنسانا لأصله الشريف، ولإبائه العظماء فلأنه مظهر لذلك الشرف، وأسباب تلك العظيمة، قد ورثها ونمت نموها الكبير فيه.

كان صيفاقس من والدين كريمين. فأورثاه كل مواهبه الأخلاقية والعقلية، ورباه أحسن تربية، وعلماه وهذباه، فنشأ رجلا مثقف العقل، متين الخلق، عالي الهمة. وكان من الملوك العصاميين الذين يرقبون العروش بأنفسهم ى بسواعدهم الآباء وتملق الحاشية، ورشوة القادة والجيش.

وكان صيفاقس جميل الخلقة، بهي الطلعة، وكان يلتحي فتزيد اللحية غي مهابته وجلاله وحسن منظره. وكان متين الأسر، صحيح الجسم، قد أتاه الله قوة في الشخص والشخصية معا.

وكان صيفاقس قد نشأ والجولة البونيقية قد أسبغت على المغرب حضارتها، وبثت غي أرجائه علومها وفنونها، فتأثر بالحضارة البونيقية، واخذ حظه من علومها فكان مثقف العقل، تبدو ثقافته في سياسته الحكيمة للدولة، تلك السياسة التي أورثته إعجاب البربر الأعزاء الطموحين، فبقي ملكا على الدولة أكثر من سبعة وعشرين عاما، وتبدو في دهائه الذي استطاع به ان يجعل البونيقيين أعداءه الذين جردوه من دولته، أصدقاءه الذين يعينونه على استرجاع الدولة، واسترداد العرش. من يدري؟ لعل أباه قد أرسله أيام شبابه وإبان تكونه إلى قرطاجنة، فتقلب في معاهدها العلمية، وتعلم منهم السياسة، وانغمس في المدينة البونيقية في اكبر معادنها فاخذ منها أحسن ما تحتاجه الدولة القوية، والأمة الناهضة. ان زعماء البربر وملوكه كانوا يبعثون بأبنائهم ليتعلموا في قرطاجنة ويتكونوا في معاهدها وبيئتها الراقية.

وكان أبواه قد اختارا له اسما يدل على آمالهما الكبرى فيه. لقد سمياه صيفاقس وصيفاقس اسم بربري «معناه المحروس، والمحمي، والمدجج بالسلاح»[56] ان آمال أبويه فيه ان يكون من الأبطال الأقوياء الذين يخوضون المكاره، وميادين الموت الزؤام في سبيل المثل العليا، فسمياه صيفاقس. المحفوظ المحمي الذي يحفظه الله، وتحفظه شجاعته وقوته، لا يستطيع أعداؤه التغلب عليه، ولا يدرون ليقظته من أين يأتونه.[57] وقد يكون صيفاقس هو الذي اختار هذا الاسم لنفسه فاشتهر به، وقد يكون قومه هم الذين أطلقوه عليه. وسواء كان أبوه، أو هو، أو قومه، فان الاسم يدل على البطولة والهمة، والآمال الكبرى المعقود في هذا الرجل العظيم.

وكان صيفاقس طموحا كل الطموح. فأورثه طموحه البالغ منافسة جيرانه ملوك نوميديا، والعدوان على مصينيسا، فأودى به عدوانه، وسلط الله عليه الرومان الذين استعان بهم في التوسع فافترسوه، وذلك هو جزاء الله العادل لكل باغ على أخيه، ولكل من يعين الظالمين ويستعين بهم في بلوغ مآربه.

كان صيفاقس في سنة 230 ق.م. ملكا على موريطانيا الشرقية، وقد يكون اعتلى العرش قبل ذلك بسنين. وقد تكون ولايته في هذا العالم. وقد يكون هو الذي انشأ دولته، وقد يكون غيره فتمت على يده. ان المؤرخين لم يذكروا لنا شيئا عن نشأة هذه الدولة، وعن الزمن الذي نشأت فيه. إذا كان صيفاقس قد استطاع في سنة 230 ان يكون ملكا على موريطانيا الشرقية الموحدة، فان توحيد إماراتها، ومزجها في دولة واحدة يقتضي زمنا طويلا لا يقل عن عشر سنين.

كان صيفاقس ملكا على موريطانيا الشرقية. وفي موريطانيا الشرقية جبال القبائل، وجبال صنهاجة، وأهلها قوم ذوو منعة وعزة وقوة لا يخضعون لغيرهم. إنهم لم يخضعوا للرومان على قوتهم، ولم يخضعوا للدول المغربية الإسلامية التي نشأت في القرن الثاني الهجري. وأثرت زواوة الباسلة، وصنهاجة القوية الاستقلال في مواطنها الحصينة. تحت رئاسة أمرائهما الذين تنتخبهم كل منهما لرئاستها. وارى ان صيفاقس كانت له السيطرة على السهول، وعلى القبائل الصغيرة في الجبال. فاكتفى من زواوة وصنهاجة بمهادنته، وعدم التعرض لدولته.

---

56 - مدينة المغرب العربي ج 1 ص 176.

57 - والعرب يسمون البطل الشجاع البهمة بضم الباء وسكون الهاء وهو الشجاع الذي لا يهتدي من أين يؤتى.

نهوض صيفاقس بدولته ورقيها وسعادتها وقوتها بفضل مساعيه

وكان صيفاقس ملكا طموحا مخلصا لدولته فبناها في كل النواحي، فنشر العلم في رعيته، ورقي الفلاحة والتجارة، والصناعة، وكل أسباب الغنى والقوة التي تجعل الدولة تقف على قدمها، وترفع رأسها، وتحظى بالاستقلال الكامل الذي يحرص عليه البربر، ويرونه اعز شيء في الحياة، ودون الدواوين، واخذ بنظم البونيقيين في الإدارة.

وقد ضرب صيفاقس النقود باسمه، وبني هو ورعته القصور العالية، والميادين الواسعة الجميلة في المدن، والحمامات الفخمة، وكل ما تمتاز به قرطاجنة من فنون الحضارة والنعيم. وقد ازدهرت موريطانيا الشرقية بفضل دولة صيفاقس وشاع فيها الغنى، والرخاء والسعادة، وانتشرت فيها الحضارة البونيقية التي اخذ بها صيفاقس وأهل دولته، فهضموها واثروا فيها، وجعلوا عليها طابعهم، وكيفوها على نحو يليق بمزاجهم.

عناية صيفاقس بجيشه وبالقوة الحربية في دولته

وكان صيفاقس بعيد الهمة، نافذ البصيرة، غيورا على دولته. فرأى طموح ملوك نوميديا، ورأى طماع الرومان في المغرب. وان هو نفسه مغرما بالتوسع، ليصبح ملك لمغرب كله، ويرث الدولة البونيقية، ويجعلها أكلته قلب ان يفترسها الرومان، ويحلوا في المغرب، فيكونوا شرا ووبالا على أهله جميعا. فاعتنى بجيشه فقواه ودربه، فصار قوة يستطيع ان يدافع ويهام بها من يريد. وقد كان عدد جيشه في معركة جامة التي أعان فيها البونيقيين على الرومان ستين ألف جندي. وانه ليستطيع ان يجند من البربر الذين دربهم واعدهم للحروب أكثر من هذا في الحروب التي يعتمد فيها على نفسه.

وكانت دولة صيفاقس هادئة، مطمئنو، سعيدة به، معجبة بإخلاصه وكفاءته. فلذلك طالت مدته في الملك، ولم يذكر لنا التاريخ قيام ثورات داخلية عليه.

علاقة صيفاقس بالدولة البونيقية

وكان صيفاقس مهادنا للبونيقيين في افريقية، وقد لازم الحياد في الحروب التي تخوضها الدولة البونيقية مع الرومان في اسبانيا وايطاليا في الحروب البونيقية الثانية. ثم ساءت علاقته بالبونيقيين في افريقية، فتنمر لهم وكشر عن أنيابه. لم يذكر المؤرخين

سبب العداوة التي نشأت بين صيفاقس والبونيقيين.من يدري؟ لعل ميل البونيقيين إلى غولة ملك نوميديا، ومنافس صيفاقس الكبير في المغرب.والصداقة القوية التي تربط بين البونيقيين والنوميديين، حتى أعان الملك نافارس والد غولة البونيقيين في محنتهم بثورة ماطوس، بعشرين ألف فارس، وجند حنبعل آلافا من الفرسان النوميديين كانوا أعضاده ومخالبه وأنيابه، في حروبه مع الرومان،ونالت نوميديا وملكها غولة الحظوة البالغة عند البونيقيين، وخطب صدر بعل اكبر قواد الدولة ابنته صفونيسب، غادة قرطاجنة إلى مصينيسا ابن غولة ليوثق علاقة الدولتين، ويؤكد الصداقة بين النوميديين والبونيقيين، فيكونوا يدا واحدة. فخاف صيفاقس ان يأتي يوم يعين فيه البونيقيون الملك غولة على التوسع، والقضاء على دولته، فأوغروا صدره بإيثار منافسه، وأثاروا مخاوفه بما ظنه من تحريضهم وأعانتهم عليه، فصار مستعدا للانفجار عليهم. فنفجر بهذه العوامل النفيسة، أو بعامل آخر مباشر من الحوادث التي لا تشغل النار بدون هذه العوامل النفسية.

محالفة الرومان لصيفاقس وإثارته على غولة والبونيقيين

وكان الرومان في حروب ضروس مع البونيقيين في الأندلس وفي ايطاليا. ان فرسان حنبعل الذين يحاصر بهم روما، وينازل بهم الرومانيين من النوميديين، وفرسان صدر بعل القائد القرطاجني الذي يحاربهم في الأندلس من النوميديين. ان البربر هم قوة قرطاجنة ومخالبها وأنيابها. فلا بد لهم من حلفاء من البربر. ان لم يصولوا بشجاعتهم في حروبهم، فإنهم يشغلون غولة بن نارفاس ملك نوميديا بحرب داخلية تصرفه عن إعانة البونيقيين، وتأييدهم. ان غولة هو حليف قرطاجنة المخلص، واكبر قوة تمسكها في الحروب، وتورثها الجرأة والثبات في المعارك، والأقدام على محاربتهم. ان غولة عدو الرومان. لابد من محاربته، ولكنهم لا يستطيعون ذلك. إنهم في شغل بحروبهم في أوروبا مع البونيقيين. ان حنبعل يأخذ بتلابيبهم. لابد لهم من حليف من البربر يضربون به غولة، ويشغلون به قرطاجنة بحرب يثيرونها عليها في المغرب. هذا ما رآه القائد الروماني في الأندلس بوبليوس سبيون،[58] وأخوه اقناووس بدهائهما، فاتجهت أنظارهما إلى صيفاقس. انه قريب من

58 - هو والد سبيون الإفريقي بطل جامة والثاني عمه. وكانا قائدين لروما في الأندلس، وهما اللذان أحرزا الانتصارات على البونيقيين وأخذا منهم الأندلس، ثم جاء سبيون الإفريقي فأجهز على البونيقيين في الأندلس.

الأندلس، ويسهل الاتصال به، وإذا احتاجوا إلى إعانته فانه يستطيع إمدادهم، وإذا احتاج هو إليهم فإنهم يستطيعون الوصول إليه في وقت قصير. انه جارهم وقريب منهم. ثم هو بعد ذلك ملك قوي، وبطل صنديد. يضاهي غولة في عظمة الملك، وفي كثرة الجند. وهو منافس لغولة، بوده ان يزيله من نوميديا فيضمها إليه، ليتفتح طريقه إلى قرطاجنة فيبتلعها. انه رجل طموح يحب التوسع والاستيلاء. فما أسهل استمالته إذا منوه بتحقيق هذه الآمال، ان يقضي على غولة، ويستولي هو على افريقية. ان صدره يغلي منافسة لغولة انه يراه قذى في عينه، وأشواكا تؤلمه في نعله. ان صيفاقس هو الذي يمكنهما استمالته والاستعانة به على أضعاف البونيقيين. فصار يرقبان فرصتهما لاستمالته حتى ساءت للاعقته بالبونيقيين، ورأوه يكشر لهم ويثور عليهم، فأرسلوا إليه ثلاثة من قوادهم الدهاة الذين يحسنون استمالة القلوب. فما زالوا بصيفاقس يشعلون نيرانه على غولة، ويخوفانه من هجومه عليه في يوم من الأيام بتحريض البونيقيين، ويحرضانه على الدولة البونيقية العجوز، ويطمعانه في الاستيلاء على افريقية. انه إذا لم يفعل فان النوميديين هم الذين يرثونها.

وكان صيفاقس مستعدا من قبل لمحاربة غولة، ومحاربة البونيقيين. فأصغى إلى الرومان، ورضي بان يكون حليفهم فيحارب غولة ما دام البونيقيون في شغل بحروبهم مع الرومان، ومادام اكبر قسم من جيش غولة خارج المغرب يحارب مع البونيقيين. ان الفرصة مواتية. فشرع يستعد للحرب.

استعانة صيفاقس بالرومان في تدريب جيشه على حرب المشاة

وكان البربر بارعين في حروب الفرسان. انه لا يشق لهم غبار في الحرب وهم على الخيل، وفي حرب العصابات. أما حرب المشاة فإنها جديدة عليهم لا يعرفونها. والرومان فيها ابرع، وهم يتقنون أساليبها ويعرفون مكائدها أكثر من البربر. فلابد من براعة على حرب المشاة ليستطيعوا محاربة غولة والبونيقيين الذين تمرنت جيوشهم على حرب المشاة بمحاربة الرومان. فاستبقى صيفاقس احد القواد الرومان الثلاثة وهو (اسطاطوريوس) ليدرب جيشه على حرب المشاة. ونشط صيفاقس في الاستعداد للحرب الضروس. ثم هاجم بعض المراكز الحربية البونيقية في الساحل فهزم جنودها، وعاث فيها. ان المؤرخين قد ذكروا انه هو البادئ بالحرب، ولم يذكروا لنا مكان هذه الحرب. ولا يمكن ان تكون في

التراب البونيقي في افريقية لان غولة يقف في طريقه. وارى انها على بعض المراكز البونيقية في شاطئ موريطانيا الشرقية. ان هذه المراكز البونيقية قديمة في المغرب، وهي ضرورية لهم في حروبهم باسبانيا ولا أرى إنهم زهدوا فيها فاحتلها صيفاقس منذ زمن بعيد، فضمها إلى دولته

هجوم الملك غولة وحلفائه البونيقيين على صيفاقس والقضاء على دولته 213 ق.م

وكان غولة ملكا داهية. وكان يعرف ما يضمر له صيفاقس، وما ينطوي عليه من كره لحلفائه البونيقيين. فاخذ حذره منه، وصار يرقبه. وكان صدر بعل قائد البونيقيين في الأندلس كذلك،[59] وكانت قرطاجنة ترقب صيفاقس، وتتوجس منه شرا. فعملت بمخالفته لروما، وباستعداده لحربها، ورأت عدوانها على مراكزها، ورأى غولة تهيأ صيفاقس للعدوان عليه، وساءه ان يفتح الباب للرومان المستعمرين أعداء المغرب الذين يمنون أنفسهم باستعماره، ويستقدمهم إلى المغرب، ويمكن الأفعى من اتخاذ أول حجر لها في المغرب. انها خيانة وطنية كبرى ! وانه لعدوان كبير عليه وعلى حليفته! وها هو يبدؤهم بالعدوان فيشن الحرب على مراكز حليفته ! فعزمت قرطاجنة وعزم غولة على مهاجمة صيفاقس والقضاء عليه. فجهزت قرطاجنة، وجهز غولة جيشا كبيرا كان أكثر جنده من جيش غولة، فسار تحت قيادة مصينيسا بن غولة. وكان مصينيسا في عنفوان الشباب وعمره خمسة وعشرين سنة، وأسرع صدر بعل القائد البونيقي بجيش من الأندلس فانضم إلى مصينيسا، وسار تحت لوائه. فأحس صيفاقس بزلزلة الأرض تحت سنابك الجيش الزاحف نحوه. ورأى الأفق الشرقي يكسوه القتام بالكتائب المتقاطرة من قرطة عاصمة غولة. فعلم انها الحرب الضروس التي كان يتمنى ان يكون هو البادئ لها والأقوى فيها. فاستعد للصدام، واخذ الأهبة للمعركة الفاصلة.

وكان ذلك في سنة 213 ق.م. فوقعت المعركة الرهيبة في موريطانيا الشرقية بين غولة وحلفائه البونيقيين، وبين عدوهما صيفاقس. وكان صيفاقس بطلا صنديدا، وكان جيشه قويا. فوقعت المعركة الفاصلة بينه وبين مصينيسا قائد جيش غولة والبونيقيين. وكانت معركة مهولة صبر فيها الفريقان، وصمم كل منهما على محق الآخر! فسالت الساحة بالدماء، وتكدست الجثث في الميدان، وبلغت المعركة نهايتها في الهول والشدة! وقتل في المعركة ثلاثون ألفا من جند صيفاقس، ومن جيش غولة والبونيقيين العدد

59 - صدر بعل هذا هو ابن عملقرط برقة اخو حنبعل وليس صدر بعل والد صفونيسب الذي سيأتي خبره.

الوفير. وكان جيش غولة أكثر تدربا، وكان البونيقيين يظاهرونه. وكان مصينيسا قائده بارعا في القيادة، وكان يتقيد حماسا وكرها للرومان ولصيفاقس الذي يعرف نواياه في دولة أبيه، فأشعل جيشه حماسة، وضاعف قواه. فكر على صيفاقس فهزمه فولى الأدبار، فاحتل مصينيسا (صيغة) عاصمة صيفاقس، واستولى على دولته فضمنها غولة إليه.

انهزام صيفاقس إلى موريطانيا الغربية وتجديده الكرة

وكان صيفاقس بطلا صنديدا- لا يعطي بيده، ولا ييأس، فانهزم إلى موريطانيا الغربية، والتجأ إليها، فأعاد تنظيم جيشه، واستمال بعض الموريطانيين الغربيين فكون منهم جيشا وقادة بنفسه، فسار إلى مصينيسا وكان ذلك في سنة 212 ق.م بعد شهور من المعركة الفاصلة الأولى. فوجد مصينيسا مستعدا له فوقعت بينهما معركة فاصلة أخرى كان النصر فيها لجيش غولة. فانهزم صيفاقس مرة ثانية إلى موريطانيا الغربية والتجأ إليها، ولابد ان ان يكون قد اعتصم ببعض جبالها المنيعة. فعول على حرب العصابات. وكان يعرف ان حروب الرومان قد هاضت جناح البونيقيين، واستحوذت على مواردهم وقواهم العسكرية، وان غولة قد أرسل جيشه ومعظم قواته الحربية إلى الأندلس لتشد أزر البونيقيين الذين يشدد الرومان عليهم الخناق، وأنهما لا يستطيعان ملاحقته ومحاصرته في جباله ومواصلة الحرب ضده مدة طويلة. ثم ان الرومان حلفاءه في تقدم في الأندلس، سيقصمون ظهر البونيقيين بضرباتهم، ثم يسرعون لنجدته وإرجاعه إلى مملكته، ثم ان شعبه يحبه، وأنصاره هم الجمهور في دولته. سيثورون إذا وجدوا فرصتهم. فأرسل إلى شعبه يقوي عزيمته، ويحي الآمال والحماس في صدره، ويعلمه بعزمه على مواصلة الكفاح. ان الثبات والكفاح العنيد المخلص هو سبب النجاح. فنظم صيفاقس فلول جيشه، فعول على حرب العصابات التي يتقنها البربر كل الإتقان. فماذا وقع بعد ذلك. هل رجع صيفاقس إلى عرشه، واسترجع دولته، أم بقي شريدا في الجبال؟

رجوع صيفاقس إلى ملكه، وتجديده لدولته 212 ق.م

كان صيفاقس بطلا صنديدا، ورجلا داهية، وقائدا محنكا، لا تؤثر فيه السقطة.انه يتشبث بالأرض فيتناهض، ويقف على قدميه، وهو أكثر رسوخا غي موقفه، لا يتزلزل ولا يسقط!

وكان يشن على غولة والبونيقيين حرب العصابات ويغير عليهم من مكمنه، فيقلق راحتهم، ويقتل من جنودهم. لقد صمم على استرجاع مملكته والعودة إلى عرشه. انه

لا يخمد و لا يستسلم. ان البربر لا يطفئون سريعا، ولا يستسلمون للأمر الواقع إذا كان يمس شرفهم، وبغض من قدرهم.

وكان الملك غولة حليف البونيقيين بعد انتصاره على صيغ=فاقس قد أرسل جيشه إلى تحت قيادة ابنه مصينيسا إلى الأندلس لنجدة البونيقيين الذين يشدد الرومان عليهم الخناق. وكان البونيقيون في حروب عنيفة مع الرومان في ايطاليا وفي الأندلس. لا ستطيعون ان يقوموا بحرب طويلة الأجل مع صيفاقس في المغرب. ان هذا فوق طاقتهم، وما يضعفهم في حروبهم مع الرومان. فرأوا مهادنة صيفاقس وامتلاك وده. ولكن صيفاقس قد اظهر الاستعداد لمصالحتهم، والإعراض عن الرومان ونبذ الحلف الذي عقده معهم.

وكان إلى هذه الأسباب التي تمنع الملك غولة والبونيقيين من مواصلة الحرب ضد صيفاقس حب الموريطانيين الشرقيين لملكهم صيفاقس. إنهم يؤثرونه، وله أنصار وشيعة كبرى في كل مدينة. إنهم يتحينون الفرصة للثورة ليسترجعوا دولتهم وملكهم. ان زناتة القوية الباسلة وهي البتر، لا ترضى ان يتسلط عليها غولة وقومه وهم من كتامة، ومن البرانس. ان جبينها الذي ألف التاج لا يمكن ان يستقر غي الرغام طويلا. لابد ان يثور وتطرح أعداءها أرضا، وتسترجع عزها وملكها الشريد في الجبال. ان غولة لا يستطيع المحافظة على موريطانيا الشرقية، وجيشه بعيد عنه في الأندلس. ان اقل ثورة داخلية في موريطانيا سيذكيها صيفاقس، ويؤيدها الرومان، فتصير حربا تزلزل أركان ملكه. من يدري؟ لعل الثوار ينتصرون عليه فيقع م لا تحمد عقباه. ان صيفاقس لن يستسلم، ولن ييأس. وقد ينجده الرومان بجيش قوي فيزحف على المغرب كله فيملكه. يجب استرضاؤه وتهدئته. ان هذا لا يمكن إلا بإرجاع مملكته إليه؛ ويجب إرضاء الموريطانيين الشرقيين الساخطين وامتلاك ودهم. وهذا لا يكون إلا بإرجاع دولتهم، وعودة ملكهم إلى عرشه. لقد نبذ صيفاقس حلف الرومان، وأجدى فيه الدرس القاسي الذي القوه عليه. ان رماحهم قد طعنت حلف الرومان فقتلته. سيلازم صيفاقس الحياد ويصادق قرطاجنة فيكونون يدا واحدة على الرومان. هذا ما رآه الملك غولة بدهائه. وهذا ما رأته قرطاجنة، ففتحوا لصيفاقس باب الصلح الذي يقرعه، ومجال الإخاء الذي يعالج أقفاله.

وكان الملك غولة عظيما وكريم النفس مع صيفاقس. انه لم يستسلم للعاطفة في هذا الأمر. ان صيفاقس عدوه ومنافسه الأكبر، وقد سعى لحقه، ولكن الرومان أكثر عداوة واشد خطرا، فيجب التفرغ لحربهم وسد أبواب المغرب في وجوههم. ان صيفاقس أخوه، وهو من سراة البربر، يعمل لإحياء المغرب وازدهاره، لا لاستعباده وقتله كما سيفعل

الرومان لو تسلطوا عليه. ان شعبه يحبه لآثاره الحسنة فيه. ولما رأوا من الخير، والعز، والحياة الكريمة على يده. ان صيفاقس أخوه. فليرجع إلى ملكه والى شعبه، والى مواصلة جهاده، وأعماله الكبرى في إنعاش موريطانيا وإسعادها، فرفع غولة والبونيقيين أيديهم عن موريطانيا الشرقية، فرجع صيفاقس بعد شهور من اندحاره والتجائه إلى موريطانيا الغربية إلى عرشه، فسر به شعبه، وفقت البلاد لأوبته، وسكنت زناتة وأخواتها غي موريطانيا سكون الرضى لا سكون التحفز كما كانت من قبل. ورجع التاج إلى جبين صيفاقس،واسترجع ملكه بفضل ثباته، ونضاله، وإخلاصه لشعبه، وحب شعبه له. فواصل أعماله في البناء، وجهوده غي إسعاد موريطانيا الشرقية وترقيتها في كل النواحي. وقد لازم الحياد في الصراع الذي يجري بين البونيقيين والرومان، إلى ان توفي غولة بن نارفاس ملك نوميديا في سنة 206 فتغيرت الأحوال في نوميديا، وأصبح صيفاقس أقوى ملك في المغرب، وأعظم قوة حربية تستطيع إنجاد قرطاجنة في محنتها بالرومان. فماذا وقع فصار صيفاقس هو صديق قرطاجنة وحليفها الكبير في المغرب بعد ان حاربها وسعى في هلاكها؟ ولماذا اتجهت قرطاجنة إلى صيفاقس وهو عدو النوميديين الذين نصروها، وثبتوا معها في حروبها مع الرومان؟

محالفة صيفاقس للبونيقيين وأسبابها 206 ق.م

كان غولة بن نارفاس ملك نوميديا ملكها قويا، وبطلا عظيما، ورجلا بالغ الدهاء، وقوي الشخصية، محبوبا لدى رعيته؛ فاتجهت إليه قرطاجنة في الحروب البونيقية فجعلته حليفها، وعرف هو أيضا خطر الرومان على المغرب فسارع إلى نجدة البونيقيين فوقف في صفهم، وقارع معهم الرومان الذين يسعون للقضاء على الدولة البونيقية لتتفتح لهم الأبواب، وتتمهد لهم السبل لامتلاك المغرب واستعباده، والقضاء على دولته الناشئة. وظل غولة اكبر حليف للبونيقيين، ودام البونيقيون وهم يتوددون إلى النوميديين والى الملك غولة، ويوثقون الصلة بهم بكل الوسائل. فخطب صدر بعل قائد قرطاجنة الكبير ابنته صفونيسب لمصينسا ابن غولة ليؤكد الصداقة بين الدولتين بالمصاهرة. ولكن لما توفي غولة في سنة 206 ق.م. تغيرت نظرة البونيقيين إلى الدولة النوميدية، وفترت علاقتهم به. وذلك لضعف الملك الذي خلف غولة. انه أخوه (دلقاص) وهو شيخ هم، ضعيف الشخصية، لا يتصف ببطولة أخيه ودهائه. انه لا يستطيع ان يغني غناءه في نصرة البونيقيين. إنهم في عنفوان الحرب البونيقية الثانية. لقد انتصر عليهم الرومان في معارك أوروبا، فهزموهم في الأندلس، وطردوهم من اغلب بقاعها،

وامتلكوا جزرهم في البحر الأبيض المتوسط، وأنهم يطمحون بأنظارهم المسعورة إلى افريقية يريدون امتلاكها. ان البونيقيين في خطر داهم، وظرف عصيب ! ان الأسد الروماني الهائج يفغر عليهم ليبتلعهم، ويجعلهم فرثا في أحشائه! فلابد لهم من حليف قوي يستعينون به في مدافعة العدو القوي، وصديق بطل كغولة يقف بجانبهم غفي المحنة، ويجلو ببطولته عنهم الكرب. فنظروا فوجودا ان صيفاقس هو أقوى ملك في المغرب، وانه أحسن لهم من (دلقاص) ببطولته ودهائه، ورسوخ قدمه في الملك، وبجيشه القوي الباسل الذي أعده للمكاره. فرغبوا في صداقته، وعزموا على محالفته. ولكنه مجروح الفؤاد. مزور عنهم لإيثارهم لغولة والنوميديين،وهم منافسوه وأعداؤه. إنهم لا يستطعون امتلاك وده مع اتصال صداقتهم لأسرة غولة والنوميديين. ان الجمع بين صداقة دلقاص خليفة غولة وبين صداقة صيفاقس صعب أو مستحيل. لابد من اختيار احدهما. هل يغني عنهم دلقاص الهرم شيئا. ان النوميديين أبطال صناديد، وان مصينيسا بن غولة فارس مغوار، وقائد عظيم. انه مع جيشه يبلي البلاء الحسن في جانبهم بالأندلس. لولاه ولولا جيشه القوي الباسل لكان الرومان قد أجهزوا عليهم في الأندلس منذ زمن بعيد. ولكن الدولة برأسها، وملك الدولة هو الرأس والعمود الفقري الذي تقوم عليه. ان دلقاص ملك النوميديين ضعيف، وهو شيخ متهالك في آخر عمره. وابنه قابوصة الذي سيخلفه في الملك اضعف منه. ان القانون في وراثة الملك بنوميديا ان يخلف الملك الذاهب أسن رجب في أسرته. وليس مصينيسا البطل القوي المخلص هو الاسن في الأسرة، فيتولى الملك بعد عمه دلقاص. انه في الدرجة الثالثة، فابن عمه قابوصة أسن منه، فهو الذي سيخلف أباه دلقاص. ان الخطر محدق، والأيام عابسة! ومستقبل الدولة النوميدية بملوكها الضعفاء إلى صيفاقس من فتل له في الذروة والغارب. وأزال سخائم صدره، ودعاه إلى محالفتهم. وليمتلكوا وده وثيقة اظهروا الزهد في الملك دلقاص، وعدم الاكتراث بدولته، وقطعوا علاقاتهم به، وأبطلوا علاقة المصاهرة التي كانت ستربطهم بالدولة النوميدية فحولوها إلى صيفاقس ودولته. صفونيسب! غادة قرطاجنة! وغزالة المغرب! ومنية الفرسان المثقفين، والأمراء الكبار! وابنه صدر بعل قائد قرطاجنة الكبير! وكانت لمصينيسا فجعلوها لصيفاقس، وخطبها له صدر بعل مبالغة في استرضائه، واجتذابه، وبعث الطمأنينة في قلبه، ودليلا على قطع كل علاقاتهم بالنوميدين وبعائلة غولة.

وكان صيفاقس يدرك خطر الرومان على المغرب. وكان موقنا بان دلقاص الضعيف لا يستطيع مؤازرة الدولة البونيقية فتقوى على مدافعة الرومان عن المغرب. ان الرومان

عدوه وعدو المغرب جميعا. لقد اطرحهم واعرض عنهم، ونبذ حلفهم، ووطأه بنعاله. ان صدورهم تغلي حنقا عليه. ثم ان الدول البربرية هي الغرض الذي سيستهدفه الرومان بعد قضائهم على الدولة البونيقية لكي يزيلوها فيتأتى لهم امتلاك المغرب. ان الخطر يداهم المغرب، ويداهم دولته. لابد من محالفة البونيقيين ومناصرتهم. ان أيديهم تمتد إليه. ان الدولة البونيقية في هرمها، قد تنجح بمؤازرته في دحر الرومان، وقطع أطماعهم عن المغرب. فيكون هو الوارث لها. فيوحد المغرب كله في دولة واحدة. وصفونيسب! انها القمر الذي سيتألق في سماء كهولته فيجدد شبابه، ويضاعف قواه، ويكسو بنوره وسحره أيامه، فتقبل عليه باسمة جميلة كصفونيسب، نضيرة فتانة كمحياها الفاتن، وروحها الساحرة! لا بد من مصافحة اليد التي تمتد إليه من الدولة البونيقية. لئن لم يتحد معها فان طوفان الرومان سيغرقهم جميعا. فأسفر وجه صيفاقس للبونيقيين، وتعانقا، وأصبح حليفهم، فشمر عن ساعديه لمناصرتهم، والهجوم على كل من يناوئهم، ورحب بخطبه صفونيسب، وأرجأ الزفاف إلى اليوم السعيد الذي لا يراه بعيدا.

غضب مصينيسا لتنكر البونيقيين لدولته وأسرته

وكان مصينيسا مشتبكا بالرومان في الأندلس ينصر البونيقيين، ويخوض لجج الحروب الهوجاء من اجلهم، وعيناه إلى المغرب يرقب ما يجري في دولته وفي دولة منافسهم صيفاقس. فرأى جنوح البونيقيين إلى صيفاقس واطرحاهم لدولته، وعدم الاكتراث بشئونها، وهاهم يزهدون فيه هو أيضا فيبطلون خطبته لصفونيسب. هذه الحبيبة التي ملكها قلبه، وأضحت أمنيته الحلوة، ومصدر انسه وسعادته في أهوال الحروب. فثارت ثائرته، وأحس بالقرطاجنيين يحثون التراب على رأسه، ويهينونه ويهينون دولته. ثم ثارت العاصفة في دولته، وقتل الثوار ابن عمه قابوصة، واستولى على العرش وهو وارثه الشرعي، والبونيقيون يصفقون للثوار، ويؤيدون صيفاقس في الكيد له. ان صيفاقس حريص على إزاحته عن الملك حسدا له، وحقدا عليه. انه يريد ان تكون نوميديا ضعيفة بملوكها الضعفاء ليبتلعها متى أراد. ان البونيقيين يزينون له ذلك ويؤيدونه. لقد قلبوا له ظهر المجن! لم الاستبسال في مدافعة خطر الرومان خارج المغرب، والشر والخطر في دولته؟! فأسرع إلى نوميديا فاسترجع عرشه من أيدي الثوار، فلربع عليه، وامسك بكل الأزمة في الدولة. ورمي قرطاجنة بعيون تتقد بالمقت، وتتأجج بالعداوة. لابد من تأديبك أيتها العجوز الرعناء. وأرسل يده إلى قائم السيف يقلقله ليثار لشرفه، ويؤدب الذين غدروا به، واستخفوا به وبقومه.

اجتذاب الرومان لمصينيسا وإرغام البونيقيين له على محالفتهم

وكان الرومان يرقبون الأمور في المغرب. فعرفوا محالفة البونيقيين لصيفاقس واطرحاهم لمصينيسا، وثورة مصينيسا عليهم،فأرسلوا إليه يعرضون عليه ان يكف عن حربهم. انه هو ساعد البونيقيين القوى، ومخلبهم الجبار الذي يبطشون به في الأندلس. وهو الذي يمسكهم في المعركة، لولاه لانهدموا وملكوا الأندلس جميعا. وجنبعل الذي يطرق بقنواته أبواب روما! أليس فرسانه وأقوى جنده من النوميديين. ان كف مصينيسا عن حربهم سيف في عضد حنبعل أيضا، وهو نصر لهم في كبل الميادين. ان مصينيسا رجل ذكي يعرف خطرهم، وهو أكثر كرها لهم من صيفاقس. إنهم لا يطمعون في ان يتحول بجيشه في الأندلس، فيحارب معهم البونيقيين. حسبهم ان يرحل إلى نوميديا ويشعلها حربا عوانا على قرطاجنة، ويجعل صيفاقس يستبقي قواته في المغرب ليحارب بها مصينيسا ويدافعه بها عن دولته ودولة حلفائه. فأرسلوا إلى مصينيسا ففتلوا له في الذروة والغارب، وأشعروه باستعدادهم لإعانته إذا أراد.

أسباب محالفة مصينيسا للرومان

وطلبوا محالفته. فحالفهم مرغما ليستعين بهم في المحافظة على ملكه إذا تألب عليه صيفاقس والبونيقيون، وطغت عليه أمواجهم، وأرغموه على التمسك بالأفعى لينجو من الغرق! ان نية صيفاقس فيه وفي دولته العدو الحقود الذي لا يرضى ببقائه في الوجود. ان جيوشه قد أضناها الجهاد في اسبانيا، وان أموره في نوميديا مختلفة بثورة الثوار. أما صيفاقس فجيشه مستريح، وأموره منتظمة، ودولته مستقرة. لا بد له من حليف قوي يسنده إذا عصف به صيفاقس. فلم يجد إلا الرومان فرضي بهم حليفا.

كان ذلك في سنة 206 ق.م. فانتصب مصينيسا على عرشه، فجرد عبقرية ليرمم دولته، ويندفع بها في طريق العظمة، وتكون أقوى دولة، وأغنى امة في المغرب. فتحرك الحسد والحقد والطمع في صيفاقس، وحرك الخوف وافن الرأي في قلوب القرطاجنيين، فهاجموا مصينيسا للقضاء على دولته. فكيف وقع ذلك، وما أسبابه؟ ولمن تكون الدائرة في هذه الحروب التي أطربت الرومان لأنها مزقت المغرب، ووسعت الهوة بين البونيقيين وصيفاقس وبين مصينيسا؟ ان المغاربة لن يتحدوا بعد اليوم ضدها؟.

هجوم صيفاقس على مصينيسا
واستيلاؤه على نوميديا 205 ق.م

كان ذلك في سنة 205 ق.م. وكان مصينيسا قد استرجع منذ شهور مملكته من أيدي الثوار، وانتصب ملكا على نوميديا، فشرع ينظم جيشه، ويصلح ما أحدثته الفتنة نت التصدع في دولته،[60] ويقوي نفسه ليرفع رأسه على منافسيه وأعدائه في المغرب.

وكان صيفاقس رجلا طموحا. وكان شديد الحقد على مصينيسا والنوميديين. أليس مصينيسا هو الذي هزمه غي الحروب الواقعة بينه وبين أبيه. انه هو الذي جرده من ملكه، وسلبه عرشه، وجرعه الغصص، وسحبه في التراب! ها هو ينتصب ملكا على نوميديا. انه بطل صنديد. ورجل داهية، وسياسي حنك، وعبقري سيجعل دولته بالغنى والحضارة تكسف دولته. سيكون أقوى منه ملكا واعز جانبا. ان شعبه يحبه، سيلتف كله حوله، وهو شاب أقوى منه، وأكثر حماسا، واقدر على مواصلة العمل في السياسة، وقيادة الحروب، ومنازلة الأقران في الجلاد. قد يتحرك عداؤه القديم لدولته، فيهجم عليه فيصرعه، فيستولي على مملكته. انه يغلي حنقا على حلفائه البونيقيين وعليه . لا بد نت التخلص منه والانتقام من دولته. لابد من الاستيلاء على نوميديا الغنية الجميلة ، فيتم ملكه، ويكون جارا لحلفائه البونيقيين. يستطيع إنجادهم إذا هوجموا. والاتصال بهم. أما الآن فان مملكة نوميديا تفصل بينهما، ولا يصل بينهما إلا جيتوليا.[61] وفيها القبائل البربرية القوية التي تكره البونيقيين لاستعبادهم للبربر في افريقية. ان طريقه عليها لا يكون أمنا. وهناك البحر وهو في قبضته الرومان. ان أساطيلهم تجوب أنحاءه. وسيعتني مصينيسا بأسطوله فيكون بحر نوميديا الذي يصله بافريقية في قبضته. ان انتصاب مصينيسا ملكا في نوميديا تهديم للحلف الذي يربطه بالبونيقيين، وخطر يهدد ملكه. انه عدو له لابد من الانتقام منه. يجب ان يعالجه ما دامت أموره مضطربة، ودولته مصدعة بالفتنة التي قلقلت أركانها. وما دام جيشه لم يستجم من أتعاب الجهاد العنيف، والحروب المريرة الطويلة التي خاضها ضد الرومان في الأندلس. انه إذا استجم وانتظمت أموره، لم يستطعه. ان الفرصة مواتية للانتقام من عدوه، وتحقيق

60 - هي فتنة الانقلاب الذي قام به الثائر مزوطيل على ابن عمه الملك قابوصة.

61 - جيتوليا هي الصحراء انظر أقسام المغرب في الباب الأول من هذا الجزء.

أمله في الاستيلاء على نوميديا. فصر بأسنانه، وحقده القديم على النوميديين، وحسده لمصينيسا، وخوفه منه ينص به فؤاده. ففاوض حلفاءه القرطاجنيين فيما يرى، فوجدهم على رأيه. يجب القضاء على مصينيسا ! ان العجوز الحمقاء لم تعمل للصلح بين الملكين البربريين، وامتلاك ودهما معا ليقفوا جميعا سدا من حديد في وجه الرومان. بل أغرت صيفاقس بمصينيسا، واذكت عداوته، ووافقته على هواه، وانساقت مع أطماعه. واراها الغرور انها تستطيع بصيفاقس وحده ان ترد جيوش روما الكاسرة التي تتأهب للانقضاض عليها! فجهز صيفاقس جيوشه، وكتب كتائبه، وباغت مصينيسا بهجوم عنيف!.

كان ذلك في سنة 205 ق.م فلم يشعر مصينيسا إلا وصيفاقس يغشى مملكة بجيوشه الجرارة. فثار للدفاع، وأسرع إليه قومه من أنحاء نوميديا، فوقعت معارك طاحنة في نوميديا بين الملكين. وكان كلاهما يقود جيشه ويباشر القتال في المعركة. فثبت مصينيسا ثبات الأبطال، ودافعه النوميديون عن دولتهم دفاع الأسود، ولكن صيفاقس كان أقوى وأكثر استعداد للحرب ذ، فكر على مصينيسا فهزمه، فاستولى على مملكته، ودخل قرطة عاصمة نوميديا فاحتلها. فتحقق أمله، ووقع ما كان يرجوه. لقد انتقم من أعدائه القدماء، واستولى على نوميديا فاتسعت مملكته. وان تحقق أمله الآخر لقريب. انه أمل بالغ الجمال والحلاوة يملؤه بالسعادة والبهجة! صفونيسب! خطيبته الحسناء، ستزف إليه في قرطة فتتم أفراحه، وتكمل سعادته.

ما هذه الزغاريد المتعالية في قرطة عاصمة صيفاقس الجديدة؟ انها زغاريد العرس الكبير. فزفت صفونيسب إلى صيفاقس في حفلات كبيرة حضر فيها أمراء قرطاجنة وسراتها.[62] ولكن صيفاقس ما كاد يتطعم شهر العسل. وما كادت نشوته بانتصاره وزفافه تتم حتى دعى إلى حرب جديدة. انه مصينيسا الملك البطل! لا يستسلم ولا ييأس.

إغارة مصينيسا على البونيقيين واستنجادهم بصيفاقس

وكان مصينيسا لما انهزم قد التجأ إلى جبال طبرقة المنيعة. فعزم على حرب العصابات. ويلك أيتها العجوز الرعناء! لابد من تهديمك! ان الدولة البونيقية هي عدوه الأكبر في المغرب. انها هي التي أغرت به صيفاقس. انها منبع الشر وسبب الفرقة! فكتب كتائبه فصار يغير على المدن الغربية البونيقية وينزل عليها ضرباته. فارتاعت

62 - أرى ان زفاف صيفاقس بصفونيسب كان في قرطة بعد ان جاور البونيقيين لا قبله.

قرطاجنة بهجومات مصينيسا. انه بطل صنديد لا تطيق الاشتباك به وجيشه بالغ الجرأة ويحاربهم بأسلوب العصابات الذي لا يتقنه البربر. فاستغاث البونيقيون بصيفاقس. فجهز جيوشه الجرارة، وأرسلها تحت قيادة اكبر ضباطه (بوكار) في سنة 204 ق.م. فاشتبك بمصينيسا في معارك حامية، ثم حاصره بكثرة جيوشه، وفل كتائبه، فدافع مصينيسا دفاع الأبطال، وثبت في المعركة ثباتا منقطع النظير. فانهزم جنده «فلم يبق إلا هو مضرجا بدمائه (مثخنا بالجراح) وحوله أربعة من رفاقه، تطارده فرقة من جنود بوكار، فرمى بنفسه في نهر وخا إلى الضفة الأخرى. وكان ذلك حول مدينة (قليبيا)».[63]

استعداد مصينيسا للإغارة على عدوه وهجوم صيفاقس عليه

وكان مصينيسا بطلا عظيما لا يستسلم ولا يهين. فآوى إلى مغارة في جبل منيع فأشاع انه مات لينقطع عنه الطلب. فآسى جراحه حتى برئت، وجمع فلول جيشه. وأرسل إلى شعبه في نوميديا يبشره بأنه حي، ويؤذنه بالجهاد، ويدعوه إلى النضال، فأسرعوا إليه، وأسرع إليه البربر من افريقية فاستطاع ان يجند جيشا كبيرا فيه ستة آلاف من المشاة، وأربعة آلاف من الفرسان. فعزم هذه المرة ان يجعل صيفاقس هدفه. هذه الذي ما فتئت قرطاجنة تتخذه مخالبها فتدميه بها. يجب تقليم أظفارها العجوز الرعناء بالقضاء على صيفاقس. انه يختال في قرطة، ويتقلب في الحرير مع صفونيسب، ويظن ان النوميديين قد خضعوا بأيديهم، وان مصينيسا قد أصابه الوهن وأدركه اليأس! فعسكر مصينيسا في الجبال المنيعة بين هبون (عنابة) وقرطة (قسنطينة) فعزم على حرب العصابات ضد صيفاقس.

كان ذلك في سنة 204 ق.م وكان صيفاقس على حذر من عدوه. فعلم بقوة مصينيسا وتجدد جيشه، وان مصينيسا لا زال قوة يمكن ان تودي بدولته وتهدم ما بناه. فشمر عن ساعده، فجهز جيوشه، وقسمها قسمين، قاد هو قسما، وقاد لبنه فرمينة قسما آخر. فزحفوا نحو مصينيسا، وأحاطوا بالجبال التي اعتصم بها. فوقعت معارك عنيفة بين الملكين دامت مدة كبيرة وكان صيفاقس هو الأقوى، فكر بجيوشه على جيش مصينيسا فهزمه، فشتت شمله فعلم مصينيسا انه لا يستطيع التغلب على صيفاقس إلا بحليف قوى، وفي ظروف أخرى غير هذه ان فرصته آتية لا ريب فيها فآوى إلى جبال نفوسة في جنوب سرت الأصغر (قابس) وجنوب طرابلس، فاعتصم بها، وآوته نفوسة وعصمته من أعدائه فلم يقع عليه الطلب فبقي هناك يرقب فرصت.

63 - موجز تاريخ الجزائر العام للأستاذ عثمان الكعاك ص 56 ط بتونس 1344هـ.

اتخاذ صيفاقس قرطة عاصمة ملكه

وكان صيفاقس قد فرح بتوسع مملكته، فجعل قرطبة عاصمته، فانتقل إليها ليراقب عدوه عن كثب. وكان سعيدا بصفونيسب التي وجد فيها ما ينشد في المرأة من أنوثة وثقافة، ومن جمال وذكاء، فبوده لو استمرت الأيام الهادئة، ليتفرغ لمباهج ملكه، ويستمتع طويلا بملكه العريض، وزوجته الحسناء؛ ولكن قلبه يحدثه بان أيام الهناء قليلة، وان الزمان العابس القمطرير هو ما يستقبله. ان الرومان يستعدون للانقضاض عليه وعلى حليفته قرطاجنة،[64] وان مصينيسا يرابط في جبال نفوسة يبري براثينه، ويجدد أنيابه، ويستعد للهجوم الكبير. ثم جاءه النذير بان ما يخشاه قد وقع. ان الرومان قد نزلوا في افريقية في جيوش جرارة فانضم إليهم مصينيسا فذي عصابته. وان جيش مصينيسا يغزر جمعه ويتضاعف عدده بمن ينضم إليه من النوميديين والبربر الإفريقيين. ثم جاءه الصريح من قرطاجنة، يستنجد به. فعلم ان أيام الدعة والهناء قد ولت. فودع زوجته وعاصمته قرطة. فسار في ستين ألفا من جنوده لنجدة البونيقيين، وملاقاة سبيون الإفريقي ومصينيسا.

كان ذلك في سنة 203 ق.م. وكان قائد البونيقيين هو صدر بعل والد صفونيسب. وكان قد خرج في جيش كبير فوصل صيفاقس فاجتمعا على العدو. وكان مصينيسا في جيشه وفرسانه الأقوياء مع سبيون. فنشبت حروب عنيفة بين الطرفين. فرأى سبيون قوة صيفاقس وشدة شوكته فأراد ان يفرق بينه وبين البونيقيين، ويمنع اتصالهما.

مكيدة سبيون لصفاقيس والبونيقيين وانتصاره عليهما

وكان صيفاقس قد نزل في مركز خاص ولم يختلط بصدر بعل قائد البونيقيين. فنشبت الحرب بين القرطاجنيين والرومان، فاظهر سبيون الانهزام مكيدة، وخاطب محاربيه في الصلح. وبينما هم يتفاوضون إذا بسبيون دخل بين الجيشين المتحالفين، وحال دون اتصالهما، ومن الليل هجم هو على صدر بعل، ومصينيسا في رهطه على صيفاقس، واحرقا معسكريهما»[65] وانهالا عدوهما بالسيوف. ومات بالحريق وبالسيف من جيش صيفاقس والبونيقيين أربعون ألفا، واسر خمسة آلاف. وكانت ضربة قاضية على صدر بعل وصيفاقس. وكان ذلك في ربيع سنة 203 ق.م.

«وفي شهر يونيه من سنة 203 ق.م. اخذ صيفاقس وصدر بعل يعدان العدة للهجوم

64 - نريد بقرطاجنة الدولة البونيقية كلها من باب ذكر الجزء وإرادة الكل في المجاز المرسل.

65 - تاريخ الجزائر العام ج 1 ص 129 ط بيروت 1963.

على عدوهما، ولكن خاب مسعاهما. وانتصر (مصينيسا) وسبيون عليهما بجهة جندوبة في سهول (سوق الأربعاء) ثم عسكر سبيون (في مكان تونس) واخذ يهدد مدينة قرطاجنة».[66]

انتصار مصينيسا على صيفاقس وأسره 202 ق.م.

وكان مصينيسا قد كثر جمعه، وأسرع إليه قومه من أنحاء نوميديا، فعزم على القضاء على صيفاقس واسترجاع ملكه. فكر عليه في سنة 202 ق.م. فوقعت بين الجيشين ملحمة كبرى. وكان صيفاقس يباشر القتال بنفسه، فكبا به جواده فاخذ أسيرا. وسار به مصينيسا وهو أسير فدخل عاصمته قرطة، وقضى على أحلام عدوه، فاسترجع مملكته، وانفصلت نوميديا عن موريطانيا الشرقية.

اعتقال صيفاقس ووفاته

وأرسل سبيون الإفريقي الملك صيفاقس إلى رومة فطافوا به في الشوارع، ثم القوا به في السجن. فوجد صيفاقس نفسه بعد العرش الرفيع، والتاج الذهبي، وبعد قصور قرطة، وصيغة، وبعد التقلب في الحرير وبين أحضانه صفونيسب؛ بعد هذا العز البالغ، والترف الكامل، يجد نفسه في ظلام السجن، ترهقه القيود الثقيلة، وتقتله اهانة الرومان وإذلالهم ! وكان وهو في سجنه يتخيل الدخول به في روما مكبلا، وفرسان روما يحيطون به، والتجول به في الشوارع، وجماهير رومة تشمت به، وتصيح في وجهه، وتسمعه العجائز والصبيان والرعاع ما يسول الحقد والطيش لهم من منكر القول وبذئ الكلام. فيحس بالذلة تقتله، وبهذه المناظر تصميه. فلم تطل مدته غي السجن فمات غما وحسرة في سنة 201 ق.م.

أسباب انهزام صيفاقس

وكان صيفاقس هو أول من استعان بالرومان وحالفهم، وفتح لهم باب المغرب. فابتلاه الله بالأفعى التي ادخلها إلى وطنه، فكان مغرز أنيابها المسمومة.. وهكذا يبتلى الله بالمستعمرين كل من أعانهم في احتلال وطنه، والعدوان على أبناء جلدته.

وكان صيفاقس طموحا فاعتدى على أخيه مصينيسا فجرده من ملكه، واستولى على مملكته، وظلم ظلما كبيرا بهذا العدوان. فنصر الله مصينيسا عليه، وكبه في

66 - مدينة المغرب العربي ج 1 ص 229 تونس 1959.

المعركة لما كبابه جواده، فاقتنصه أعداؤه. وتلك عاقة الظلم، ومآل الظالمين!

وكان سبب انهزام صيفاقس أيضا هو هرم حليفته وضعفها واغتراره بكثرة جيشه. وبانتصاراته الماضية على مصينيسا. انه لم ينضم إلى صدر بعل ليكونوا جبهة واحدة، بل نزل في معسكر وحده. والسبب أيضا هو قوة مصينيسا ومضاؤه وحسن قيادته، ومناصرة النوميديين له فغزر جمعه.

مدة صيفاقس في الملك وأثره في دولته وفي المغرب

وكانت مدة صيفاقس في الملك حوالي ثلاثين سنة. من حوالي 230 إلى سنة 202 ق.م. وكان ملكا عظيما، ورجلا من رجالات المغرب الممتازين. نهض بموريطانيا الشرقية وترك في المغرب أحسن الآثار. وكان شعبه يحبه، وقبيلته زناتة تتمسك بملكه. وكان قد اعد ابنه فرمينة للملك بعده. فالتقت موريطانيا الشرقية حول فرمينة، واختارته ملكا يحفظ دولتهم، ويقوم برئاستهم وقيادتهم مقام أبيه. فكيف كان فرمينة في الملك؟ وكيف كانت موريطانيا الشرقية؟

دولة فرمينة بن صيفاقس 202-158 ق.م

شخصية فرمينة القوية

كان فرمينة ابن صيفاقس. وكان صيفاقس قد اعتنى بتربيته، فغرس فيه خصاله الحميدة، وأنشأه على الجلد والرجولة، وعلمه الفروسية، ودربه على قيادة الجيوش، وعلمه وثقفه، فكان من سراه عصره، ومن الشباب اللامع في عهد أبيه. وكان أبوه يمرنه على شئون السياسة، ويعده ليكون خليفته في الملك. وكان يستكفي به في المهمات، ويسد ثغور الدولة الخطيرة، ويراه ساعده وسنده إذا حزب الأمر، واكفهرت الأيام. لما تهيأ مصينيسا في سنة 204 لحربه، واعتصم بالجبال الوعرة، وعزم صيفاقس على ان يخوض معه الحروب الطاحنة، وبم يجد إلا ابنه فرمينة فاسند إليه قيادة قسم من جيشه، فأغنى فرمينة غناء كبيرا، وكان كما يريد أبوه ودولته فغي الشجاعة والثبات، وفي الجلد والدهاء وبراعة القيادة. فنال صيفاقس بفضل مؤازرة فرمينة مناه، فانتصر على عدوه.

إعجاب البربر بفرمينة وإيثارهم له خليفة لأبيه

وكان فرمينة قوي الشخصية كأبيه، وقد ورث خصائصه التي نال بها التقدم والرفعة في قومه، فرضية البربر رئيسا، وقدموه عليهم ملكا. وقد ظهرت كفاءته غي عهد أبيه فالتفتت أنظار موريطانيا الشرقية إليه، فأحبه البربر واجلوه، وأعجبوا بإخلاصه وكفاءته، وتمنوا ان يكون رئيسهم وملك دولتهم بعد أبيه.

وكان فرمينة لما اعتقل أبوه رجلا ناضجا، قد حنكته التجارب، ودربته الأحداث، وأحكمه تقدم السن. ولما اعتقل والده، سارع إليه قومه في موريطانيا الشرقية، وسارع إليه شعبه فيها، فرفعوه إلى عرش الملك، فخلف أباه في رئاسة الدولة، فالتف شعبه حوله، فلم يستطع احد ان يزعزعه، وآزره قومه الأقوياء فلم يستطع منافس ان يثور عليه.

وكان فرمينة كفئا للملك. فأدار دولته أحسن إدارة، وساسها أجمل سياسة، واعتنى بنشر التعليم، وبالزراعة، والصناعة، وكل أسباب الرخاء. وضرب النقود باسمه وواصل أعمال أبيه في بناء الدولة في كل الميادين. وكان شعبه راضيا عنه، معجبا به. لم يحدثنا التاريخ بقلاقل وقعت في عهده رغم طول عهده في الملك. وقد واصلت

موريطانيا الشرقية لما ولى الملك في سنة 202 ق.م. أشواطها في طريق التقدم والازدهار، وفي الغنى والحضارة. ان البربر قد نهضوا نهضتهم الكبرى بفضل تأثرهم بالبونيقيين، فصمموا على ان يحيوا حياة كريمة، ويبلغوا بمغربهم الذروة الرفيعة في العز والغنى والحضارة. فانشأوا دولهم.وما صيفاقس ومصينيسا في ثقافتها وعبقريتهما إلا ثمرة من ثمار نهضة البربر العامة. وما دولهم إلا ثمرة لتلك النهضة القوية، وانبثقت منهم، وقامت على أكتافهم، فهم روحها وسندها، وهي لهم، تعمل لخيرهم، وملوكها سادة مخلصون، يرتفعون إلى عروشهم بأكفهم. وهم من اختيارهم. لا يرضخون للقوة، ولا يستطيع احد ان يملكهم بالعصا، وبذلهم بالجبروت. هذه هي الأمة البربرية الناهضة القوية العظمى في هذه العهود، تندفع إلى الأمام بوعيها ونضوجها، وهي كالشجرة في ربيعها تواصل نموها وثمارها وان جذ فرع منها. ليست محمولة على أكتاف ملكها، وتقف إذا مات، وتجمد إذا ذهب. انها امة تسيرها ورادتها، قد انتشرت فيها الثقافة، فاذكت وورثتها القوية، فامتلأت بالعزة والثقة بالنفس، وأججت فيها دولها اعتدادها بنفسها، فارتفعت رءوس البربر شامخة. لا يسودهم إلا من أرادوا، ولا يرتقي عروش دولهم إلا من ارتضوا، ولا يثبت على كراسي ملكهم إلا الأقوياء المخلصون. أما الضعفاء فتنفيهم عنها، كما تسقط الفروع الحية الخشف البالي، والأوراق اليابسة. لقد ذكرنا هذه الحقيقة لتعلم بطلان ما قاله المؤرخون الأوروبيون من ان الرومان كانوا عند اعتقال صيفاقس كل شيء في المغرب. فهم الذين ولوه على عرش أبيه، وبفضلهم بقيت دولة صيفاقس في موريطانيا الشرقية!

وفاء فرمينة للبونيقيين ومؤزرته لحنبعل

وكان الملك فرمينة وفيا للبونيقيين، ومتمسكا بحلفهم، يؤازرهم في الضراء، ويقف إلى جانبهم في حروبهم مع الرومان. وكان من أنصار حنبعل لما كان يستعد لمعركة جامة «وواعده ان يمده بالرجال والمؤونة».[67]

67 - مدينة المغرب العربي ج 1 ص 230 ط تونس 1959م

دعاوي المؤرخين الأوربيين الباطلة واحتقارهم للدول البربرية القوية

وكانت موريطانيا الشرقية، وزناتة قوم صيفاقس، هي التي تمسكت بفرمينة، ورضيته ملكا عليه. لقد اعتقل صيفاقس، وخسرت دولته معركة حربية، ولكن الدولة في شبابها، وعنفوانها لم تنكسر، ولم تهن. ان صيفاقس ابنها، هي التي أنجبته. انه من ثمارها، وليست هي من ثماره. ان فيها من يحلفه. لقد هزم الرومان بالحيلة لا بالقوة، وبفضل النوميديين ومصينيسا، جيشا من جيوشهم، ولم يحتلوا موريطانيا فيقضوا على دولتهم، ويأخذوا بناصيتهم، ويولوا عليهم من أرادوا، ويصبحوا لهم مستعمرة يقدمون إلى رئاستها وملكها من يشاءون.

ان بعض المؤرخين المحدثين الذين يقلدون الأوربيين في دعائهم الباطلة، ولا يعلمون عقولهم في تاريخهم ليستنبطوا منه الأحكام الصحيحة، قد رددوا دعوى المؤرخين الأوربيين الذين يوهمون الناس ان الرومان قد قبضوا على ناصية المغرب في الحروب البونيقية الثانية،وأنهم أهل الحل والعقد فيه بعد اسر صيفاقس. يتصرفون في أموره، ويقسمونه على من يريدون، ويولون على عروشه من يشاءون. وقد تجاهل هؤلاء المؤرخون الدول البربرية الفتية القوية التي وقفت في وجه الرومان، تحفظ المغرب من تسلطهم قرنا ونصفا، رغم استيلائهم على افريقية، واحتلالهم لجزء من المغرب، وحرصهم وتكالبهم على امتلاكه كله.

قال هؤلاء:»فرمينة، قسمت رومة مملكة والده بينه وبين مصينيسا، وأعطته هو مصيصيليا، مملكة والده الأصلية». [68]

ان هذه الدعوى توهم ان المغرب قد استسلم للرومان، فصار في قبضتهم، فولوا فرمينة على عرش أبيه، وأعطوا مصينيسا مملكة نوميديا. ونحن نشكر الرومان الأسخياء على هذه الهبة، ونثني على صدقهم السخية، ونرثي لإخواننا المؤرخين الذين يثقون بكل ما يقول الأوروبيون في تاريخ أجدادهم، واغلبه يريدون به ان يحولوا إلينا بالضعف،

68 - تاريخ الجزائر العام ج 1 ص 130 بيروت 1963.

ويقروا في عقولنا ان أجدادنا كانوا ضعفاء، وان القوة والعظمة إنما هي للرومان، وان البربر امة ضعيفة لا شأن لها. قد ركعت تحت أقدامهم، واستسلمت لهم لما اخذ ملكهم أسيرا!!

ان الرومان في الحرب البونيقية الثانية في افريقية لم يكونوا هم الأقوياء، ولم يكن لهم تسلط على أي جزء من المغرب لقد جاء سبيون الإفريقي إلى المغرب، نزل في افريقية، وهو يحك جنبيه ألما من ضربات حنبعل الذي يحاصر رومة ليحتلها، وما نزوله في افريقية ، ونقل ميدان الحرب إليها إلا ليفك الحصار عن عاصمته. وجبر حنبعل على الخروج من بلاده. وقد عجزوا ان يخرجوه عنها بالقوة، فأخرجوه بهذه الحيلة. لم يكن سبيون اكبر قوة حربية في المغرب. انه لولا إعانة مصينيسا له بجيشه القوي من النوميديين الأبطال، وتصديه لصيفاقس، وصرفه عن سبيون وجيشه. لرينا صيفاقس يركب سبيون الإفريقي ويمرغه في التراب. ان البونيقيين والبربر جيش صيفاقس لم ينتصر عليهم الرومان إلا بالبربر. لقد عمد سبيون إلى المكيدة[69] ليفرق بين جيش صيفاقس وجيش البونيقيين، وهاجمهما، وهما آمنان وعلى غير استعداد. لأنه رأى سطوة الجيشين في القتال، وليقن انه إذا استمرت المعركة طويلا فان جيشه الروماني سيوطأ كالهشيم تحت سنابك جيش صيفاقس والجيش البونيقي.

وكان مصينيسا يبغض الرومان ويمقتهم، ويراهم عدو وطنه الأكبر. ولكن الحاجة تدعوا إلى أكل الميتة العفنة، والغريق يتمسك بالأفعى المسمومة. وقد استعان بهم في محاربة عدوه صيفاقس والبونيقيين. كانا يجتمعان عليه فلا يطيقهما. فرأى ان الرومان سيشغلون البونيقيين، فيبقى صيفاقس وحده فيهاجمه بأنصاره الذين يتواردون عليه من نوميديا وافريقية. فحارب مع الرومان، فاسترجع مملكته بحد سيفه وبدماء شهدائه. وكان له الفضل في الهزيمة التي حاقت بالبونيقيين، فاستدعوا حنبعل من ايطاليا، وفكوا حصارهم عن روما. لولاه لهزم سبيون، فيشد ذلك من أزر حنبعل في ايطاليا. من يدري؟ القرطاجنيين يبعثون إليه نجدة قوية من جند صيفاقس فيركب بها ظهور الرومان، ويفتح بها أبواب روما كما فتحها جنسريق ملك الوندال في المغرب لما تدرع بالجند البربري ففتح بها روما العجوز. انها الآن فتية، ولكن حنبعل أقوى وأعظم من جنسريق.

لقد رجع مصينيسا إلى دولته، واسترد عرشه بسيوفه، وفرح به النوميديون وآزروه ونصروه، ولو ذهب إليهم باسم الرومان لثاروا في وجهه، وأعانوا صيفاقس عليه.

69 - انظر مكيدة سبيون في صفحة 205 من هذا الجزء.

لقد كان مصينيسا عازما على محاربة الرومان بعد ان يتخلص من البونيقيين. وكان النوميديون واغلب البربر في المغرب على عزمته. فلم يكن الرومان بالأصدقاء حتى يخضع لهم البربر، فيتساهلوا معهم تساهل الكريم، فيتكون لهم نفوذ في المغرب من أول حاول لهم فيه في الحرب البونيقية الثانية.

ان سبيون ما كان ليستطيع ان يمنع فرمينة من عرش أبيه، وخلافته لوالده، وما كان ليقدر على منع مصينيسا من العودة إلى عرشه، لان أمور المغرب كلها في يد أبناء البربرة الأقوياء. وعودة مصينيسا إلى عرشه، وولاية فرمينة الملك في قبضة الدولتين البربريتين القويتين نوميديا، وموريطانيا الشرقية لا للرومان!

لو كان الرومان هم الذين أحسنوا إلى فرمينة فولوا الملك على دولة أبيه، ما وقف في صف حنبعل عدو الرومان، وما مده بالميرة والرجال. وكان يلازم الحياد أو يعين الرومان، سيما والرومان الجائعون كانوا فغي اشد الحاجة إلى حبوب المغرب، والى الميرة في الحروب الطويلة التي يخوضونها، وبعد حصار حنبعل لروما وتخريبه لمزارعها فأقفرت ايطاليا من الأقوات.

لقد كان عدو سبيون هو حنبعل والدولة البونيقية، ولا زالا كابوسا يجثم على صدره. فهو يريد القضاء عليهما، ولم يكن بالقوى الذي تخلص من كل أعدائه، وانتصر الانتصار النهائي على الدولة البونيقية، وحل محلها في المغرب، حتى يدعي إنسان ان الرومان أصبحت لها كلمة غي شئون المغرب. لقد كانوا يومئذ ضعفاء. فلولا خرق البونيقيين الذين خسروا ود البربر، وعادوا مصينيسا وأثاروه عليهم، فوقف هؤلاء في صف الرومان، وناصر مصينيسا سبيون ما استطاعوا ان يهزموا حنبعل في واقعة جامة.

لقد كانت الدول البربرية قوية في ذلك القرن. وكانت في ريعان شبابها وقوتها، وكان الرومان يخطبون ودها، ويتزلفون إلى ملوكها، ويطلبون منهم الميرة، والفيلة، والعدد الحربية. ولما قضوا على الدولة البونيقية وحلوا محلها في افريقية، في سنة 146 ق.م. لم يستطيعوا ان يتقدموا شبرا واحدا في نطاق الدول البربرية وترابها لقوتها وخوفهم من فتكها. فظلوا قرنا كاملا من الزمان وهم يعملون لإضعاف نوميديا بالمكيدة والدس، وبكل ما أوتوا من عبقرية وبراعة في توهين الأمم بشق صفوفها، وإذكاء الفتنة بين أبنائها؛ ثم لم يستولوا على نوميديا إلا بعد حروب يوبا الأول التي انتصروا فيها بخيانة بعض ملوك البربر. وظلوا قرنا ونصفا وهم يكيدون لموريطانيا الشرقية، ولم يستطيعوا الاستيلاء عليها إلا بيوبا الثاني وابنه بطليموس وهما من البربر.

كانت الدول البربرية قوية في آخر القرن الثالث قبل الميلاد وفي القرن الثاني. وكان الرومان وهم يريدون السيطرة على المغرب في حيرة وخوف اللصوص الذين يطمحون إلى سلب القافلة الدارعة بالحرس الشجعان الذين يفتكون بكل اللصوص! ولولا تفرق البربر وتحاسدهم ما استطاع الرومان احتلال المغرب والسيطرة عليه بعد هذا الأمد بقرنين ونصف من الزمان. قاتل الله الحسد! فهو الداء العياء، الذي جعل البربر وهم اسود أقوياء، تصرعهم الذئاب الرومانية، وترتع في أحشائهم ! !

اتحاد موريطانيا الشرقية بنوميديا وأسبابه

كان فرمينة ملكا مخلصا، ورجلا ذكيا. وكان يكره الرومان، ويراهم عدوه الأكبر، وسم الغرب الزعاف. وكان يعلم انه بودهم ان يظل عدوا لمصينيسا، وان يتحاربا، وان تظل موريطانيا الشرقية دولته على شقاق وأحقاد مع نوميديا دولة مصينيسا. فغير نظرته إلى مصينيسا فلم يعد يراه عدوا كما كان يفعل أبوه، وتناسى أحقاده القديمة عليه. فعاش مسالما مؤاخيا لمصينيسا، لم يحدثنا التاريخ بحرب وقعت بينهما، رغم طول عهدهما في الملك.

وكان مصينيسا رجلا عظيما مخلصا للمغرب، فعلم ان اتحاد المغرب وتآزره هو السبب الوحيد للخلاص من السرطان الروماني الذي يتهدده، ومن سباع البحر التي تحدد أنيابها وتتحفز للوثرب عليه. فجهد لامتلاك ود فرمينة وود أهل دولته، وجعل نصب عينيه توحيد الدولتين نوميديا وموريطانيا الشرقية في دولة واحدة لتقوى على صد الرومان، وتسد في وجوه المستعمرين الأبواب التي سيزرعون بها الفتنة، ويضربون ملوك المغرب بعضهم ببعض. وقد استطاع مصينيسا بدهائه وحسن نيته، وبعبقريته في الإجارة والسياسة ان يمتلك ود فرمينة وأهل دولته، وإعجابهم واحترامهم، وان يزيدهم شعورا وإدراكا لخطر الرومان. فأيقنت موريطانيا الشرقية ان انفصالهما عن نوميديا هو ما يرده الرومان ليسهل عليهم ابتلاع المغرب، وان المستقبل دهور قراع ونضال مرير مع الرومان، فلا بد من الاستعداد له، وان أول الاستعداد هو الاتحاد مع نوميديا. أنهما وطن واحد، وأمة واحدة، فحرام ان ينقسما إلى دولتين. ونظرت موريطانيا الشرقية فرات إخلاص مصينيسا، وذكاءه وتفانيه في بناء المغرب، وازدهار نوميديا وسعادتها وقوتها به؛ ورأت بطولته ودهاءه، وبراعته في مداورة الرومان ومراوغتهم. فرغبت فيه. وأيقنت انه لا يستطيع ان يقود المغرب غي هذه الدهور المشحونة بالعواصف والزلازل غيره. وكان مصينيسا يجتذبهم إليه، ويحبب إليهم الوحدة. فتوفي فرمينة في حوالي 158 ق.م. فزالت كل الأسباب المانعة من الاتحاد. فاتحة الموريطانيون إلى مصينيسا فرأى أيديهم

تنبسط له، ووجوههم تنش في وجه. فبسط ذراعية لموريطانيا الشرقية وبسطت له ذراعيها، فتعانقت نوميديا وموريطانيا فصارتا دولة واحدة. وكان ذلك بعد وفاة فرمينة. ان التاريخ لم يحدثنا بهجوم مصينيسا على موريطانيا وضمها إليه بالقوة. لو استعمل القوة لقابله الموريطانيون بالعنف فتقع بينهما حروب كبرى لا يسكت عنها التاريخ، ولا يقعد الرومان عن لاستغلالها، ولكنني أرى ان العدو الواحد الذي أدرك الموريطانيون خطره، وإعجابهم بعبقرية مصينيسا وإخلاصه للمغرب كله، ودهاء مصينيسا وبراعته في امتلاك القلوب. لقد استطاع ببراعته ان يجعل الرومان المستعمرين يحبونه، وهم الذين يكرهون كل رجل قوي في المغرب الذي يمنون أنفسهم بازدراده؛ ان هذه الأسباب هي التي جعلت مصينيسا ملكا على موريطانيا لا القوة التي اعتمد عليها في ضمنها إليه.

وكانت مسالمة فرمينة لأخيه مصينيسا، والاحترام المتبادل بينهما، هو أصل المودة التي تكونت بين الدولتين فاتحدتا.

وفاة فرمينة ومدته في الملك

وكانت وفاة فرمينة حوالي سنة 158 ق.م وارى انه توفي في شيخوخته، انه في سن مصينيسا لا اقل منه. ومدته في الملك حوالي ست وخمسين سنة. من سنة -202 إلى حوالي 158 ق.م. ثم اندرجت موريطانيا الشرقية تحت جناح مصينيسا الملك البطل العظيم. فازدادت الأيام ابتساما للمغرب، وأصبحت قرطة هي عاصمة اغلب أجزاء المغرب، وانحصر الملك في هذه النواحي الشاسعة من المغرب في كتامة قوم مصينيسا. فمن هم الملوك العظماء الذين انشأوا مملكة نوميديا ومهدوا لمصينيسا العظيم. وكيف كانت شخصية مصينيسا، وما أعماله في المغرب، وما هي آثاره الكبرى فيه؟

نشأة الممالك النوميدية

نهضة نوميديا وأسبابها

كانت نوميديا مجاورة لافريقية حيث نشأت دولة البونيقيين، وانتشرت حضارتهم، وازدهرت مدينتهم. وكان البونيقيون قد توسعوا في نوميديا الشرقية إلى عنابة. فبسطوا حمايتهم عليها، ورأوها جزءا من وطنهم، فهاجرت طوائف كثيرة منهم فاستقروا فيها للفلاحة، والتجارة،والصناعة، والتعليم، والإدارة. فكثر اختلاط البونيقيين بالبربر فتأثر بهم البربر كل التأثر. ولم يمض زمن بعيد حتى كان البربر في نوميديا الشرقية يبارزن البونيقيين فيكل الميادين. وسرت هذه النهضة من نوميديا الشرقية فعمت كل أنحاء نوميديا. وتسربت إلى أجزاء المغرب الأخرى في الموريطانيتين الشرقية والغربية.

وكان البربر والنوميديون من كل أنحاء نوميديا يسافرون إلى قرطاجنة، والى المدن البونيقية الكبرى فيقيمون فيها مدة طويلة للتعليم في مدارسها ومعاهد العلم فيها،أو التجارة، أو للعمل في مصانعها ومزارعها وأسطولها، أو للجندية. ثم يرجعون إلى أوطانهم في نوميديا وهم يحملون حضارة قرطاجنة ولغتها وعلومها، وأساليبها الراقية في العمل فينشرونها في بلادهم، ويبثونها في أنحاء نوميديا. فترقت نوميديا وتثقفت، ونهضت نهضتها الكبرى في أوائل القرن الثالث قبل الميلاد. وكانت اسبق إلى النهضة من كل أنحاء المغرب الأخرى. وما كاد القرن الثالث ينتصف حتى كانت نوميديا قد نشأت وترعرعت فيها مملكة نوميدية كبرى تضم وسط نوميديا وغربها، ثم استولت على شرقها بعد ذلك. وهذه المملكة هي التي نشأت في نوميديا الوسطى في مدينة قرطة، ثم بسطت جناحيها شرقا وغربا، فضمت نوميديا كلها إليها.

عاصمة نوميديا الكبرى

وكانت عاصمة الدولة النوميدية في أيام عزها وعظمتها وقوتها منذ زمن الملك نارفاس إلى عهد (يوغورطة) هي مدينة قرطة (قسنطينة) وتسمى أيضا سيرنا. وأنا اختار قرطة لأنه أشبه بلهجة البربر. وقرطة اسم معناه المدينة. والظاهر ان المدينة قد

نشأت مع الممالك البربرية في القرن الثالث قبل الميلاد.

وكانت قرطة تتوسط نوميديا شرقها وغربها، شمالها وجنوبها، وهي إلى الشمال أدنى، والى الساحل الخصب الجميل اقرب. وكانت في رأس جبل منيف صخري منيع هو ما يؤثر البربر لمدنهم وقراهم، يحيد بها من جهاتها الثلاث الشرقية والغربية والشمالية خندق صخري شديد العمق هو مجرى وادي مساغا. وكان الخندق عميقا يبلغ أكثر من مائة وهو الحصن الطبيعي لها، لا يمكن اختراقه، واقتحام قرطة من جهته. ومن اجله اختار البربر هذا المكان موقعا لعاصمتهم، واختاروا قرطة قصبة لملكهم. وكانت تحيط بقرطة الجبال الكاسية بالغابات، والسهول الصالحة للزراعة، وهي كثيرة الأمطار، وفيرة الخيرات، جيدة الهواء، أنيسة بهيجة، يشعر داخلها بأريحية تداخله، وبأنس كبير يعمر صدره، وبنشاط بالغ يحبب إليه العمل والكد. وقد أثرها البربر عاصمة لدولتهم لتلك المزايا الكثيرة، ولجودة هوائها وجمالها البالغ. انها تليق للحضارة، وتساعد على التمدن والرقي. ولا تزال قرطة (قسنطينة) هي عاصمة نواحيها، والمدينة البارزة الأثيرة في الجزائر.

تلك هي عاصمة نوميديا في أيام عزها فما هي الممالك التي نشأت فيها؟

مملكة نارفاس الكتامي

كان أول ملك عرفناه في نوميديا هو نارفاس الكتامي. وكان بطلا كبيرا، وملكا قويا، له النفوذ الواسع في نوميديا، والكلمة المسموعة عند البربر. وقد استنجد به قائد قرطاجنة الكبير عملقرط في سنة 240 ق.م لإخماد ثورة الزعيم الوطني البربري ماطوس وقومه البربر الإفريقيين على الدولة البونيقية. فسار إليه في عشرين ألفا من فرسانه، فكان قوة كبرى لعملقرط، بفضلها استطاع ان يقضي على ثورة ماطوس وجنده الشجعان المخلصين.

وكان نارفاس مخلصا لدولته. كان من زعماء النهضة في نوميديا، ومن الملوك المصلحين الذين نفخوا في البربر روح العزة، وغرسوا فيهم المثل العليا فنهضوا لتحقيقها. ولا ندري متى توفي نارفاس، كما نجهل التفاصيل عن دولته في كل جوانبها. فكل ما تدل عليه أخباره القليلة الواردة في التاريخ القديم هو انه ملك قوي، ومن المخلصين لدولته، ومن حلفاء الدولة البونيقية الأوفياء. ولما توفي خلفه في الملك ابنه غولة.

وكان غولة كوالده نارفاس، مخلصا لقومه، محبا لرعيته، حريصا على نهضة البربر وتقدمهم. وقد آتت نهضة والده ومساعيه في الدولة ثمارها في عهده. فكانت دولته أكثر ازدهارا، وكان هو أكثر قوة، وابرز شخصية في المغرب الكبير.

مملكة غولة ابن نارفاس

وكان غولة بن نارفاس ملكا عظيما، مخلصا لقومه، غيورا على رعيته، يحب لها التقدم والرفعة والغنا والازدهار؛ فعمل لنشر العلم في مملكته، وبث الحضارة البونيقية فيها. وسعى لتوحيد نوميديا، فتوحدت على يده فكانت مملكة تشتمل على نوميديا كلها من طبرقة إلى غرب بجاية، ومن البحر إلى جبال آوراس.

إعجاب غولة بالحضارة البونيقية وصداقته المتينة للدولة البونيقية

وكان غولة معجبا بالحضارة البونيقية. وكان يرسل أبناءه إلى قرطاجنة ليتعلموا فيها، ويطلعوا على الحضارة البونيقية في اكبر معادنها، ليعودوا بالصالح النافع منها إلى وطنهم. وكانت علاقته بالدولة البونيقية علاقة صداقة. وكان بينهما حلف ومودة.

وكان البونيقيون معجبين الملك غولة، وبإخلاصه لشعبه،وغيرته على المغرب الكبير كله. وقد اتخذوا كل الأسباب لتوثيق علاقتهم به، فخطب صدر بعل اكبر قواد قرطاجنة ابنته صفونيسب لمصينيسا بن غولة، تقوية للعلاقة بغولة وأهل مملكته. وكانوا يستنجدون به في حروبهم مع الرومان فينجدهم بجيشه، وبالفيلة المدربة التي في الحروب غناء الدبابة الثقيلة اليوم كما كان يمدهم بالميرة، والعدد الحربية، وبالنصيحة والمشورة. وقد حارب مع قرطاجنة[70] الملك صيفاقس الذي تنمر للبونيقيين، وحالف الرومان أعداءهم، عزم ان يضرب قرطاجنة من خلف. فانتصر عليه غولة، واستطاع ان يهزم جيوشه القوية التي دربها أحسن تدريب، واعدها ليفتح بها افريقية. ولولا غولة وقوة جيشه؟، ومضاء قائد ابنه مصينيسا ما استطاع البونيقيون التغلب على صيفاقس. وكان يفترسهم، ويعجل بانقراض دولتهم.

استيلاء الملك غولة على موريطانيا الشرقية

ولما هزم الملك غولة صيفاقس في سنة 213 ق.م استولى على مملكته، فضمها إليه، فصار ملكا على نوميديا وموريطانيا الشرقية. وقد دام ملكا على الناحيتين حوالي سنة. ثم رأى انه من الحكمة، ومن الخير لموريطانيا والمغرب، ان يرجع صيفاقس إلى مملكته، فرده

70 - إذا قلنا قرطاجنة فإننا نريد الدولة كلها، وإذا قصدنا العاصمة فقط فإننا نذكر المدينة.

إليها، لم تثنه الأحقاد، ولا الأنانية، وإنما كان في قبضة عقله الرشيد، وغيرته القوية، وكرم نفسه الذي يزين له الإحسان إلى جاره وأخيه صيفاقس.

كان غولة هو حليف البونيقيين المخلص في المغرب، فأرسل جيشه في سنة 213 ق.م إلى الأندلس، فانجد البونيقيين الذين يشدد الرومان عليهم الخناق. وكان ابنه مصينيسا هو قائد الجيش. فقارع الرومان ودافعهم، ومنعهم من الاستيلاء على جنوب الأندلس. وما استطاع الرومان ان يطردوا البونيقيين من الأندلس ويستولوا عليه إلا لما فارقهم مصينيسا وجيشه النوميدي القوي الباسل.

إذا كان نارفاس هو منشئ الدولة النوميدية، فان غولة هو الذي أرسى أسسها ورسخ عروقها، ووجهها التوجيه الحكيم، وغرس فيها المثل العليا، وهي الحياة الحرة الكريمة في عز وهناء، وفي علم وقوة وغناء، والمحافظة على الاستقلال المغرب، وحرية البربر وعزتهم من الرومان الجشعين الذين يفغرون على المغرب ليفترسوه.

وكان غولة معجبا بابنه مصينيسا. فاعتنى بتربيته، وتمنى تحقيق هو مثله العليا في المغرب، فيوحده، ويكون أجنحة لدولته، وروحا للمغرب، وعزا وقوة للبربر، فكان ما أراد.

وكانت وفاة غولة في حوالي سنة 208 ق.م. فلم يرث ابنه مصينيسا ملكه، بل سبقه إلى العرش اثنان من أسرته. لماذا سبقاه؟ ألكفاءتهما ولياقتهما للملك أكثر من مصينيسا ما هو السبب؟ وماذا وقع للملكين اللذين سبقاه؟.

سبب عدم خلافة مصينيسا لأبيه في الملك

وأحوال نوميديا بعد وفاة غولة

كان الملك وراثيا في نوميديا. وكان القانون السائد في وراثة العرش ان يتولى الملك أسن رجل في الأسرة المالكة. ولم يكن مصينيسا بعد وفاة والده هو الآسن، بل كان عنه دلقاص بن نارفاس اخو غولة هو الآسن، وابن عمه قابوصة، ثن يكون هو في الدرجة الثالثة من حيث السن.

ثورة مزوطيل في استيلاؤه على الملك في نوميديا

ولما توفي غولة خلفه أخوه دلقاص في الملك. وكان دلقاص شيخا كبير السن واهن القوى، لم يلبث ان توفي بعد قليل من وفاة أخيه. فتولى الملك بعده ابنه قابوصة.

وكان مصينيسا في هذه المدة التي توفي فيها أبوه، وتولى عمه، وابن عمه الملك، في

الأندلس يحارب الرومان. وكان اغلب جيش نوميديا النظامي معه بعيدا عن المملكة. فوجد المنافسون فرصتهم للتمرد والاستيلاء على الملك في نوميديا. ولو كان مصينيسا مع ابن عمه قابوصة ما استطاع منافس ان يثور عليه. كان يشد أزره، ويقمع الثائرين.

وكان مزوطيل من أسرة غولة المالكة. وكان طموحا يحب الملك والرئاسة، وكان جريئا مقداما. وكان له حزب يناصره في نوميديا، وبطانة قوية تؤيده، ومن وراء صيفاقس الذي يحقد على مصينيسا، ويسعى ان لا يتولى الملك، فصار يكيد له ، ويؤيد منافسيه عليه.

فثار مزوطيل على الملك قابوصة فقتله، وأقام أخا الملك المقتول (لاقوماز) على العرش. وكان اقل سنا من مصينيسا. وكان ضعيفا قاصرا، فأقام مزوطيل نفسه وصيا عليه. فصار هو الملك المتصرف. وفي نفسه ان يزيح لاقوماز عن العرش إذا تمكن من الأمور، وانتصر على معارضيه، سيما على مصينيسا.

عدوان مزوطيل على مصينيسا وكيد صيفاقس

وكانت ثورة مزوطيل عدوانا على مصينيسا. ان عرش نوميديا له بعد ابن عمه قابوصة. ها هو مزوطيل يولي لاقاموز الملك وهو اصغر منه سنا ويستبد عليه بأمور المملكة.

وكان صيفاقس يؤيد هذه الثورة، ويعمل جاهدا لإقصاء مصينيسا الرجل القوي العبقري عن عرش نوميديا. انه يريد ان يتولى الملك فيها أناس ضعفاء ليفترسها إذا أراد. لقد عزم على الاستيلاء عليها ومجاورة حلفائه البونيقيين، وكان البونيقيون يؤيدون هذه الثورة، وغرضهم هو غرض صيفاقس، وضمائرهم لمصينيسا هي ضمائره. فاظهروا رضاهم وتأييدهم لمزوطيل فأسرع مزوطيل بعد ثورته إلى صيفاقس ليستعين به في الإبقاء على ملكه، ومحاربة مصينيسا معه إذا ثار عليه.

قضاء مصينيسا على ثورة مزوطيل

وكان مزوطيل يسير في موريطانيا الشرقية منتشيا بلذة الملك، وبقرب لقائه بصيفاقس فيكونان يدا واحدة على مصينيسا. ان مصينيسا في الأندلس غريق في الحروب مع الرومان. انه إذا لم يقتله الرومان فان سيوفه وسيوف صيفاقس هي التي ستقتله. فيصفوا له الجو، فيكون هو الملك في المستقبل. وكانت المزارع الجميلة التي تحف طريقه، والجبال الكاسية بالغابات تضاعف نشوته بالنصر الذي حازه في نوميديا على قابوصة، وما تورثه أحلام المستقبل من بهجة ومسرات. وكان يمني نفسه بلقاء صيفاقس،

يخرج إليه في موكبه الجليل فيستقبله ويرحب به، أو يبعث إليه وفدا من سراة الدولة يستقبلونه، ويدخلون به العاصمة (صيغة) في أبهة وجلال. وكان مع مزوطيل كوكبة من الجند تحفظه في طريقه. فرأى غبارا فظنه وفد الاستقبال. فنظر فوجد مصينيسا في كوكبة من الجند ينقض عليه. فاعمل مصينيسا سيوفه في رقاب جند الثائر الباغي فجندوا أكثرهم ، فرأى مزوطيل الموت الأحمر يحيق به، والفناء يسرع إليه، فطار بفرسه وفر هاربا إلى صيفاقس، وانهزام بقية جنده وولوا الأدبار. فأسرع مصينيسا السير فدخل نوميديا، فأسرع إليه أنصاره، انضم إليه الجمهور من أهل دولته فبايعوه بالملك، فاحتل قصر الإمارة في قرطة فهرب الملك لاقوماز وبطانته إلى صيفاقس. وكان مزوطيل قد سبقهم إليه. فمدهم صيفاقس بجند وحثهم على محاربة مصينيسا، وأجج عداوتهم له. فهجموا به على نوميديا رجاء ان يثور أنصارهم في الداخل فيستطيع التغلب بالجيش الموريطاني على مصينيسا. ولكن جمهور النوميديين كان مع مصينيسا. وكان هو لحزمه قد اعد جيشه لمثل هذا الهجوم فكسر جيش لاقوماز. وأرسل إلى لاقوماز من استصلحه، وأرجعه إليه، فأضفى عليه من الألقاب ما يرضى غروره، وكلفه من أعباء الملك بما يستطيع، فسد الباب على صيفاقس الذي عزم ان يثير الفتنة عليه بهذا الملك الضعيف. وأصبح مصينيسا هو ملك نوميديا، فتفتحت أبواب الخير بملكه للمغرب، وأقبلت العهود السعيدة على البربر لما اخذ بأزمة أمورهم هذا الملك المخلص العبقري. فما قبيلة هذا الملك العظيم؟ وما وراثته ونشأته؟ وكيف كانت شخصيته؟ وما أخباره وأعماله العظيمة التي بنى بها دولته، وأحسن بها كل الإحسان إلى المغرب الكبير؟

دولة مصينيسا بن غولة بن نارفاس 202-148 ق.م

قبيلة مصينيسا

كانت قبيلة مصينيسا هي كتامة. القبيلة البرنسية العتيدة المشهورة في التاريخ الإسلامي بإنشاء الدولة العبيدية، وبإعانة المعز لدين الله في فتح مصر وإنشاء مدينة القاهرة. وكانت مواطن كتامة في صدر نوميديا، وفي أحسن الأماكن بها. كان من مدينة بجاية غربا آلة مدينة سكيكدة شرقا كله موطن لهذه القبيلة الكبرى البربرية. ان نشأة الدولة النوميدية في مدينة قرطة وحواليها الدليل على ان هذه القبيلة هي التي أنشأتها، وان الملوك المنشئين لها نارفاس وغولة منها. ان الملك في القديم يكون بالعصبية. فأقوى القبائل في الناحية هي التي يكون الملك فيها. وليس في نوميديا

أقوى من كتامة، ولا أحسن موطنا وامنع بقاعا منها. ان قرطة مدينة كتامة هي التي ولد فيها ملكهم وهي أحسن مدينة في المغرب، لذلك جعلوها عاصمة ملكهم، وظلت هي العاصمة إلى ان استولى الرومان على نوميديا.

ميلاده ووراثته ونشأته

ولد مصينيسا في سنة 238 ق.م في عهد جده الملك نارفاس، من والدين كريمين هما غولة ، وأمه المازيغية الفاضلة. أننا لا نعرفها، ولكن مصينيسا يدل عليها. فالولد بضعة من أبويه، وعنوان لهما كليهما، سيما الأم. ان غولة ابن الملك نارفاس، والرجل الحصيف العالي الهمة، لا يختار زوجته إلا من البيوتات الكريمة، و لا يرضى قرينه حياة إلا امرأة تماثله في الشخصية؛ وتنسجم به لشدة الشبه، وتقارب المزاج.

وقد ورث مصينيسا كل صفات والده غولة وجده نارفاس وزاد أبواه فنميا وراثته الزكية بحسن التربية، وبالتعليم، وكل وسائل الثقافة. وكانت دولة نارفاس أيام نشأة مصينيسا في زمان ترعرعها. وكان الملكان البربريان يعلمان ان قوة الخلق، وشرف الطباع هما قوة الدولة، وسبب تقدمها، فغرسا في أبنائهما وأحفادهما، وفي الرعية هذه القوة ليكون أولئك الأبناء أجنحة الدولة تطير بها إلى النجوم. وكان الزمان في نوميديا أيام نشأة مصينيسا أيام بناء وتكوين للدولة وعمل عاصف، وجهود متصلة؟، ومقارعة للأعداء، وليست أيام استقرار، ودعه، وترف، وتوحي بالفتور، وتجعل أبناءها على ضعف القوارير التي يعاقرونها، ووهن الحرير الذي يغرقون فيه ! فنشأ مصينيسا بوارثته وبيئته العلمية، صلب القناة، نشيطا، مجدا، يحب العمل، ويغرم بالنصب والمغامرة في سبيل المعالي. وقد أورثه أبوه وجده مثلهما الأعلى، وهو نهضة المغرب وقوته بالعلم، والغنى، والخلق الكريم؛ وتوحيده، وحفظه من المستعمرين الذين يطمعون في الاستيلاء عليه. فنشأ وهذا المثل الأعلى يستولي على قلبه ويمتزج بدمائه، ويوجهه في أعماله، ويؤثر التأثير البالغ في تكوين شخصيته.

شخصيته العظيمة

وكان مصينيسا قد ورث من أبويه صحة الجسم، ومتانة البنيان: فكان على التمام في خلقته، وعلى القوة في جسمه. كان طويل القامة، عريض المنكبين، واسع الصدر، غليظ الرقبة، مفتول العضلات. قد أتاه الله قوة تامة، في الجسم، غالبت ضعف الشيخوخة، فستطاع ان يقود جيشه بنفسه، ويخوض اكبر معركة مع أعدائه البونيقيين، وينتصر

عليهم الانتصار الباهر وعمره ثمان وثمانون سنة. وولد له وهو ابن ست وثمانين عاما.0 وكان له من صلبه أربعة وأربعون ولدا. وذلك لما يمتاز به من قوة في الجسم، ومتانة في البنيان.

وكان ما خاضه من الحروب منذ نعومة أظافره، وإنشاء أبويه له نشأة رياضية، وتقشفه في عيشه، من أسباب ما يمتاز به من قوة البنيان.

قوة جسمه وجمال خلقته

وكان مصينيسا إلى قوة جسمه، جميل التركيب، قد أتاه الله طلعة بهيجة، وقسمات رائعة ، مع جلال وقوة. فكان جماله الخلقي من عناصر الشخصية القوية المحبوبة التي يتمتع بها. وأنت إذا نظرت إلى رسمه لا تمال نفسك من الإعجاب بما وهب الله لهذا الرجل من جمال في القسمات، وبهاء في الطلعة، مع قوة وجلال ومهابة ترغمك على احترامه وإجلاله !

وكان مصينيسا يلتحي. وكانت لحيته مستديرة[71] فزادته مهابة وجمالا وجلالا في النفوس !

ذكاؤه وسعة علمه

وكان مصينيسا ذكي الفؤاد، راجح العقل، نير البصيرة، بالغ الدهاء، له نظر بعيد يستكشف العواقب، وإدراك عميق يعرف به الأسرار الدقيقة. وكان ثقافة عالية بالمدرسة، والتجربة، والمحن الكثيرة التي تسلطت عليه. وكان أبوه بعد ان أتم تربيته وتعليمه الابتدائي في قرطة قد أرسله وهو شاب إلى قرطاجنة، فأقام فيها مدة طويلة ينهل من معاهدها العلمية، ويطلع على حضارتها وسياستها ونظمها، وأساليبها الراقية في التجارة والصناعة والفلاحة، وفي كل الشئون. فعلم كل ذلك، وجهد في نشر أحسنها في دولته.

وكان مصينيسا محبا كل الحب للعلم ! فأورث حبه لأبنائه ورعيته. فلما فتح الرومان قرطاجنة، وكان معهم غولوسة بن مصينيسا بجيش كبير من نوميديا، فتكالب الرومان على جواهر قرطاجنة، وطرفها، وكنوزها، ونهبوا الغنائم الكثيرة اختار غولوسة ومن معه من البربر من الغنائم مكاتب قرطاجنة فأعطيت لهم ، فحملوها إلى نوميديا فانتفع بها المغرب كل الانتفاع.

71 - انظر رسمه في صفحة 170 من هذا الجزء.

وكان مصينيسا يتقن اللغة البونيقية ويحبها كحبه للغته البربرية، وقد جعلها مع اللغة البربرية لسان الحكومة في دولته، ولغة الدواوين. وكان ينشرها في رعيته، لأنها لغة العلم ومفتاح المعرفة في ذلك الزمان.

وكان معجبا كل الإعجاب بالحضارة البونيقية والإغريقية. فوجه أبناءه وقومه إليهما ليأخذوا منهما أحسن شيء يليق بالدولة القوية التي يبنيها.

عظمة خلقه وكرم سجاياه

وكان مصينيسا إلى ذكائه الوقاد، ورجاحة عقله، ودهائه، وعلمه الواسع، عظيم الخلق، وكريم السجايا، شريف النفس شرفا حببه إلى كل إنسان حتى أعدائه، وأورثه الإعجاب والاحترام حتى من ألذ خصومه. وقد أعجب به الرومان واجلوه وهو يحاربهم مع البونيقيين في الأندلس، ويكيل لهم الضربات، ويؤذي بجيوشهم، فجعلوا نصب أعينهم مصادقته وامتلاك وده، ليكون حليفهم. وكان شعبه يحبه كل الحب ويحس منه بأشبال الوالد الرحيم على أبنائه. لم يكن متجبرا كالملوك، ولا قاسيا كالأمراء الشامخين ولكنه كان زعيم رعيته، يراهم منه؟، ويرونه منهم، يمتزج بهم، ويمتزجون به. كان رحيما بشعبه، شفوقا على الضعفاء، ذا حنان ورقة للأطفال، يفاكه أصدقاءه، ويداعبهم، ويحسون به ماء سلسا للطفه، وتواضعه، ودماثة خلقه. وإذا جد الجد وكان من أعدائه الألداء، فانه مر العداوة، شديد الصولة، قوي الفتكة، يحرق بالشرر المتطاير من عينه، ويرهب حتى الأسود بطليعة المتجهمة العكرة اعتكار السماء بالسحاب الأسود إذا استعدت لرمي صواعقها !

كان مصينيسا شجاعا، جرئ القلب، قوي الإرادة، ثابت الجنان، لا يرهبه الأعداء مهما تكاثروا، ولا تؤثر في عزمته الهزائم مهما توالت، ولا يضعف من طموحه النكد وأدبار الأيام، وقلة الوسائل. ان المحن، والنكبات والأرزاء، وشدة العقبات لا تزيده إلا تصميما، وإصرارا ومضاء، وثباتا في سبيل غايته، إقداما نحو هدفه إلى ان يبلغه.

وقد بدت شجاعته وجرأته ودهاؤه منذ نعومة أظفاره. فاختاره والد غولة قائدا لجيشه وعمره خمس وعشرون سنة. فهجم على صيفاقس الملك القوي فانتصر عليه انتصارا باهرا، وجرده من مملكته، وضمنها إلى دولة أبيه. وقد أعجب به البونيقيون فاصطحبوه معهم إلى الأندلس. فكان اكبر قوة دافعوا بها الرومان وثبتوا بها في جنوب الأندلس فلم ينهزموا.

كان مصينيسا مثالا في الجرأة والثبات وقوة القلب. ان الأهوال التي تطفئ غيره لا

تزيده إلا تضرما وقوة وتصميما. لقد والى عليه صيفاقس والبونيقيون الحروب المريرة، والهزائم المتتابعة وجردوه من مملكته، فبقي وحيدا في الجبال، ليس معه إلا عصابة قليلة من فلول جيشه، فلم ييأس، ولم يخمد، فأشعلها نارا على أعدائه، فنغص عيشهم بهجماته وفتكه، فأرسل إليه صيفاقس اكبر قواده بوملكار في جيش كبير، فناهضه بوملكار وطارده، وهو في عصابة قليلة، فأحيط به، وهزم بوملكار عصابته، وقتل أكثر جنده، ولم يبق إلا في أربعة من رفاقه، وهو يقاتل ويجالد، وجروحه تثخنه، ودماؤه تتفجر من أنحاء جسمه الذي مزقته سيوف الأعداء ورماحهم. فطوقه بوملكار من ثلاث جهات، وفي الجهة الرابعة أمامه نهر عميق يصطخب، فأيقن بوملكار ان مصينيسا واقع في قبضته، أو يهلك في النهر. ولكن النجم لا تطفئه السحب، ولا يذيبه الغمام. فمرق مصينيسا في النهر العميق الواسع سباحة، وسهام الأعداء تنصب عليه من كل جانب وتقع عليه، وهو لا يهن و لا يضعف، فنجى إلى الضفة الأخرى، واختفى عدوا عن عين الأعداء. فآوى إلى مغارة في جبل منيع فآسى جراحه فاندملت. فجدد الكرة على أعدائه البونيقيين وعلى صيفاقس في حرب اشد، وجيش أقوى. فهزمه صيفاقس للمرة الثالثة، وشتت جموعه. فبقي في حفنة قليلة من فلول جيشه، فلم يهن، ولم يستسلم، ولم ييأس. لقد رأى بذكائه المستقبل فعلم انه له. وأبت عليه إرادته القوية، وشجاعته النادرة، ومضاؤه، وجلده، وثبات ان يستسلم لأعدائه، ويأس من استرداد ملكه، والانتقام من أعدائه. فآوى إلى جبال نفوسة فاعتصم بها حتى واتته الفرصة، فكر على أعدائه فهزمهم شر هزيمة، فاسترجع مملكته، وعاد إلى شعبه.

إخلاصه وتضحيته

وكان مصينيسا مخلصا لقومه، غيورا على المغرب كله، ليس أنانيا ولا بخيلا، و لا من الطبقة الارستقراطية الشحيحة التي لا تعمل إلا لنفسها، ولا تفكر إلا في مصالحها، بل هو للدولة كلها، وللمغرب جميعه. حارب مع البونيقيين الرومان سنين في الأندلس لأنهم خطر على المغرب كله، ولما تولى الملك شمر للاطلاع، فبث الحضارة والعلم في البربر، وقضى في الجهاد الإصلاحي عمره، لم تلهه مباهج الملك، ولم تصرفه عن واجبه نحو قومه قصوره، وزينة الحياة التي أقبلت عليه.

دهاؤه وحسن سياسته

وكان مصينيسا بارعا في السياسة، داهية كل الدهاء في تصريف الأمور. استطاع بحسن سياسته ودهائه ان يوحد جل المغرب ويجعله دولة واحدة، رغم ما رسخ في

القبائل البربرية وفي أنحاء المغرب من حب الاستقلال، والهرب من الرضوخ للدولة الواحدة. ونال بحسن سياسته احترام البربر جميعا، ورضاهم كلهم، ولم يثر عليه ثائر من رعيته، ولا زاحمه على الملك منافس من قومه.[72] وقد نجح بالدهاء وحسن السياسة، وحكمته في الإصلاح في تغيير كثير من طباع البربر التي تضرهم، وتمنع قيام الدولة الكبيرة فيهم. فانشأ بالإصلاح والتعليم وحسن السياسة جيلا مثقفا من البربر حقق آماله وآمال المغرب، ووجه البربر إلى الوجهة الحسنة التي تسعدهم.

وكان الرومان يتضورون جوعا إلى مغرب، فبودهم ان يبتلعوه، ولكن مصينيسا بذكائه وحصافته، وبحسن سياسته ودهائه، دافع خطر الرومان عن دولته، حتى رسخت أصولها، واشتدت أركانها، فأصبحت سدا في وجه الرومان يخشون الاقتراب منه. لقد روض التنين الروماني الهائج فجعله طوق الحرير، واكتسب احترام الرومان وصداقتهم، فكفوا عن دولته فحظي بالاستقرار والهناء دهورا طويلة، وحظيت الدولة من بعده، فبني ما بنى، وقام في الدولة بما قام به من إصلاح كبير.

صفاء طريته وحسن نيته

وكان مصينيسا ابيض القلب، حسن النية، لا يحسد ولا يحقد، صافي الطوية، فابيضت له الأيام، ورآه البربر نور الصباح فاتجهت إليه الأنظار التي تفيض بالمحبة والإكبار من كل أنحاء المغرب،وبارك الله له، فحقق آماله في الحياة

كرمه وسخاؤه

وكان مصينيسا مجبولا على الكرم والتضحية، فمع تضحيته بحياته وأوقاته لصالح الدولة وفائدة الشعب كان يتكرم بماله، ويقيم الولائم الفاخرة في قصوره لمختلف طبقات الأمة، فيجتمع بهم، ويتحدث إليهم، ويسمع منهم ، ويوجههم التوجيه الحكيم، ويلابسهم ملابسة الأب الرحيم لأولاده، ويمتزج بهم امتزاج الصديق المحب بأصدقائه، ولا يتكبر، ولا يعتزل الشعب كالملوك المتجبرين.

زهده في المادة وتقشفه في العيش

وكان مصينيسا إلى نشره للحضارة في دولته، وإعجابه بالمدينة البونيقية والإغريقية وسعيه لبثهما في المغرب؛ كان إلى ذلك زاهدا في المادة، ومتقشفا في عيشه، ينزه نفسه عن الاسترسال مع الهوى، والانغماس في الترف والملذات، لأنه يقتل المواهب،

72 - نريد بعد الاستقرار وتخلصه من صيفاقس في صدر أيامه في الملك.

ويفسد الأخلاق، ويعجل بهرم الدولة وزوالها. فكان مثالا لأبنائه ودولته في الزهد في المادة، والتقشف في العيش. لقد انتصر على البونيقيين في سنة 150 ق.م. في حرب كبيرة، فاستولى على معسكرهم، وكان حافلا بالازواد الدسمة، وكان هو أزهى أيامه في الملك، وعلى رأس دولة تضم جل المغرب المتحضر، وفي غنى واسع، وثراء عريض، وبعد النصر الباهر الذي يستغرق فيه أنداده في الملذات، ويشبعون الشهوات، زاره سبيون الاميلي قائد الرومان في خيمته، فوجده «واقفا أمامها يأكل خبزا يابسا».[73]

تلك هي شخصية مصينيسا المصلح الكبير، والزعيم المخلص والملك الفذ الذي نهض بالمغرب، وجعل منه دولة كبرى وقفت قرنا كاملا سدا منيعا في وجه الرومان، تحفظ المغرب الحر، وتحمي البربر من استعمارهم الجهنمي. ان أعماله الكبرى في المغرب، وجهاده ونضاله لدليل عل تلك الأوصاف التي ذكرنا، وعلى هذه الشخصية التي يجب على المغرب ان يذكرها دائما بالإكبار والاحترام.

لقد صفقت نوميديا بارتقاء مصينيسا إلى عرش ملكها، فماذا وقع لهذا الملك العظيم، وما هي أعماله الكبرى بعد ان استقر وهدأت له الأيام؟

حروب مصينيسا ومساعيه الكبرى لتوحيد المغرب

كانت ولاية مصينيسا للملك في سنة 206 ق.م بعد ان قضى على ثورة مزوطيل. فما كاد يستقر في عرشه، ويعتن بدولته، ويبدأ إصلاحه حتى هاجمه صيفاقس والدولة البونيقية فقضوا على دولته، واحتل صيفاقس مملكته.

وكان البونيقيون بعد وفاة الملك غولة قد استخفوا بخلفائه في الملك، فحولوا حلفهم إلى صيفاقس، وقطعوا علاقتهم بنوميديا، وأبطلوا خطبة صفوينيسب لمصينيسا، وزوجوها لصيفاقس، قلبوا ظهر المجن لمصينيسا واضمروا الشر له ولدولته. فساء ذلك مصينيسا، وعلم إنهم يتآمرون عليه، فبعد هذه القطيعة لا بد ان يهجموا على نوميديا ويستولوا عليها. ولما أيد البونيقيون ثورة مزوطيل وعدوانه عليه، أيقن مصينيسا بضمائر البونيقيين السيئة نحوه ونحو دولته، فأرغموه على محالفة الرومان ليتقوى بهم على أعدائه، رغم مقته للرومان، ومحاربته لهم سنين طويلة، لأنه يراهم شرا للمغرب، وبلاء عليه.

73 مدينة المغرب العربي ج 1 ص 179 ط. أولى بتونس.

محالفة الرومان لمصينيسا

وكان الرومان في الأندلس هم الذين سعوا بكل جهد لاجتذاب مصينيسا إليهم لما وقعت القطيعة بينه وبين البونيقيين، وذلك لإعجابهم ببطولته، وعبقريته، وإخلاصه لحلفائه، فعرضوا عليه حلفهم فقبله مكرها. وكان ذلك ففي سنة 206 ق.م.

كيد صيفاقس وعدوانه عليه وتجريده من مملكته

وكان صيفاقس والبونيقيون قد عزموا على فتح نوميديا. فما كاد مصينيسا يتولى الملك حتى أشفقوا على أملهم ان ينهار، وأيقنوا إنهم إذا تركوا مصينيسا طويلا في الملك فإنهم لا يستطيعون التغلب عليه، فعاجلوه قبل ان ترسخ أقدامه، ويصلح الأمور في جدولته، ويرأب الصدوع التي حدثت فيها بفتنة مزوطيل. فهاجمه صيفاقس والبونيقيون في خريف سنة 206 ق.م فدارت بينهم حروب طاحنة. وكان مصينيسا غير مستعد لها، فتغلبوا عليه، فاحتلوا نوميديا فضمها صيفاقس إلى دولته، ولكن مصينيسا بطل شديد المراس لا يستسلم و لا ييأس، فاعتصم بالجبال فصار يشن على البونيقيين وعلى صيفاقس حرب العصابات. فأرسل إليه صيفاقس جيوشه القوية فدارت بينهم معارك طاحنة في سنة 205 انهزم فيها مصينيسا، وخرج منها مثخنا بالجراح، ثم جدد الكرة في سنة 204 ق.م. على صيفاقس في جيش كبير جمعه في شرق نوميديا، فسار إليه صيفاقس بنفسه ومعه ابنه فرمينة فهزموه في حروب طاحنة وقعت بينهما، وطاردوه في الجبال حتى أخرجوه من نوميديا وافريقية، فآوى إلى جبال نفوسة، فآواه أهلها؛ وأكرموه، وعصموه من أعدائه. فبقي هناك يستعد ويرقب الفرصة للهجوم على أعدائه، واسترجاع مملكته. وكان معه في جبال نفوسة ما افلت معه من جيشه، ومن تلاحق به من أنصاره من نوميديا. فوضع مصينيسا يده قائم السيف، واعد جيشه للنضال، وعيناه إلى افريقية ونوميديا يرقب الفرصة للهجوم. فحانت له الفرصة الكبرى في سنة 203 ق.م فاغتنمها. لقد نزل جيش الرومان في افريقية تحت قيادة اكبر قوادهم سبيون الإفريقي لمحاربة البونيقيين وحليفهم صيفاقس. فأسرع مصينيسا إلى حلفائه الرومان ليستعين بهم على استرجاع مملكته.

هجوم مصينيسا على صيفاقس واسترجاع مملكته 203 ق.م

وكان سبيون الإفريقي يخاف فتكة صيفاقس وفرسانه النوميديين. انه كفء للبونيقيين الذين أضعفهم هرم الدولة، وأعيتهم الحروب الطويلة، ولكن صيفاقس، ودولته الفتية، وجيشه القوي الباسل إذا ناصروا قرطاجنة فان كفتها تكون هي

الرابحة في المعركة ! لابد من مناصرة مصينيسا له. انه حليفهم فتنفس الصعداء لما رأى مصينيسا ينضم إليه. ورأى النوميديين والبربر الإفريقيين يسارعون إلى ملكهم وقائدهم المحبوب مصينيسا فيغزر بهم جيشه. فوقعت الحروب! فشغل سبيون البونيقيين. فهجم مصينيسا على صيفاقس. لابد من سحقك أيها الحسود الظالم! فانتطح الجبلان ووقعت الحروب المهولة. وكان الله مع المظلوم. مع مصينيسا لحسن نيته. فهزم عدوه صيفاقس وأسره. فأسرع إلى قرطة فدخلها. فتربع على عرشه القديم. فسرت نوميديا بعودته إلى الملك. وأقيمت الأفراح والزينات في قرطة. وفي مدن نوميديا وارتفعت الزغاريد. احتفالا بإحياء دولتهم وعودة ملكهم وزفافه. لقد تحققت له أمنياته. استرجاع مملكته وخطيبته.

زواج مصينيسا بخطيبته صفونيسب

وكان مصينيسا يحب خطيبته صفونيسب كل الحب. وكان يحارب الرومان في الأندلس. فتتوالى عليه مكاره الحروب الطاحنة وتتهاطل عليه السهام والضربات فتثخنه. وتشتد عليهم الأيام[74] بتقوى الرومان عليهم. وهو لا يحس البلاء ولا يكترث بالأهوال. لأنه يعيش في آماله الباسمة: يوم يحتفل فيه هو وقومه بدحر الرومان في الأندلس. وبزفاف صفونيسب إليه ! ان أخبار بطولته. ومعاركه مع الرومان تبلغها فتنتشي بها فتزيده التزاما إلى صدرها! ان قبلاتها المعطرة بأنفاسها ليشعر بها نتثال على محياه كلما هب النسيم الجنوبي من المغرب! انها حبيبته. والرباط المتين الذي يوثق الحب بين البونيقيين والنوميديين. وكان مصينيسا وفيا فدام على حبه لصفونيسب. ولم تستطع القطيعة التي وقعت بينه وبين صدر بعل والد صفونيسب والبونيقيين. تنكر البونيقيين وإبطال خطبته وزواج صيفاقس عدوه من صفونيسب لم يستطع كل دلك ان يزيده إلا تعلقا بهذه الغزالة التي أعطاها قلبه !

وكانت صفونيسب تحب مصينيسا. وتعجب ببطولته. وشخصيته القوية. بشبابه وجماله. وبما ترى من المستقبل الزاهر له. فلما أرغمتها السياسة وأبوها على تزوج صيفاقس الكهل. شعرت بامتعاض بالغ. وبقي لاسم مصينيسا رنين موسيقي عذب في أدنها. وذكرى جميلة في أعماقها.

وكان صيفاقس قد اتخذ قرطة عاصمته ومقره فنقل إليها صفونيسب. ولما احتل

74 - الضمير في عليهم يرجع إلى مصينيسا وحلفائه البونيقيين الذين كان يحارب معهم في الأندلس.

مصينيسا قرطة واسر صيفاقس. فانتهت أيامه في المغرب. كانت صفونيسب في قصر الإمارة في قرطة.

صفونيسب حبيبة العمر وخطيبة الشباب! ! فعزم مصينيسا على الزواج منها. وأرسل إليها فرحبت. ان الحب القديم لا زال حيا في أعماقها. وان دولتها في خطر ومصينيسا هو منقذها إذا استطاعت ان تجعله حليفها. ستفعل. ان زواجها منه واجب وطني أيضا. فارتفعت الزغاريد في قصر الإمارة وسطعت البخور. ووضع مصينيسا عنه لأمة الحرب ولبس حلة العروس. وتم اللقاء بين الزوجين الحبيبين! وأمضى مصينيسا ليلة العمر الفريدة مع حبيبته. فغسلت صدره. وجلت قواه من سواد السنين السود التي مرت عليه وكانت ليلة واحدة! وفي الصباح جاءه سبيون فظنه مصينيسا مهنئا بالفتح وبالزفاف. فخلا به. فسأله في رفق ولكن في عمق ان يتخلى عن صفونيسب. ويدفعها إليه لي؟أخذها أسيرة مع صيفاقس إلى رومة. انها ملكة يشرف رومة أسرها!

مخاوف الرومان وانتحار صفونيسب

وكان سبيون يعلم ان مصينيسا مستعد لبغض الرومان. انه بمقتهم في داخل نفسه فخاف ان تؤجج صفونيسب هذا المقت فيصير عداوة. وتزين له محالفه قومها. ويومئذ يتعذر عليه الانتصار على حنبعل والبونيقيين إذا تخلى عنه مصينيسا وحالف أعداءه. ان هذا الزواج خطر على روما.

وكان مصينيسا أبيا فأبى ان يتخلى عن صفونيسب. فوقع خصام شديد بين سبيون ومصينيسا. يستحيل ان يدفع إليه مصينيسا زوجته ولو أدى الأمر إلى القتال ان مصينيسا أبي وفي. سيموت دون من يحب! وسمعت صفونيسب بإلحاح الرومان في أخذها ليدخلوا بها أسيرة ذليلة روما. ثم يقتلها الرومان. أو يعدونها امة حقيرة فجسم لها خيالها المشبوب وضعف الأنثى هذا المصير. وتذكرت ما حل بابيها صدر بعل قائد قرطاجنة الكبير. وما حل بقومها البونيقيين من هزيمة. وما ينتظر دولتها على يد الرومان من عواقب سيئة. ان أيام العز والهناء قد ولت. وفقدت الحياة لذتها. الموت ولا العار! ان سبيون عازم على أخذها ذليلة إلى رومة! لن يكون ذلك. ان خلاصها بيدها!

وكان مصينيسا يشتد مع سبيون ويأبى عليه اسر صفونيسب. وعزم على مخاشنته ورده خاسئا إذا تجاوز حدوده! فدخل عليه من اخبره ان صفونيسب قد ماتت! لقد تجرعت السم فقتلت نفسها!

قال الأستاذ احمد صفر:»وتزوج مصينيسا بالأميرة صفونيسب امرأة صيفاقس

وكانت خطيبته، وكان يهواها؛ ولكن هدا الزواج لم يدم أكثر من ليلة واحدة، لان سبيون كان يخشى تأثير هذه الأميرة البونيقية على بعلها الجديد. فأمر مصينيسا ان يسلمه إياها كبقية الأسرى؛ ولكن الأميرة اختارت الانتحار على الذل والعار».[75]

ابتداء مصينيسا أعماله الإصلاحية وتوحيد المغرب

كان مصينيسا في السابع والثلاثين من عمره لما رجع إلى ملكه. وكان في عنفوان الشباب، وفي مرحلة النضوج، فشمر لبناء المغرب، وللنهوض بالبربر ليحتلوا الذرى التي تليق بشرف عرقهم، وبما وهبهم الله من الاستعداد للكمال! وكان صيفاقس هو العدو القوي المشاكس الذي كان يمنع مصينيسا من الاستقرار والهدوء الذي ينشده لبناء دولته، والبدء في إصلاحه، والعمل لتوحيد المغرب ليقف صفا واحدا في وجه الرومان ، فتخلص منه. وكان ابنه فرمينة وخليفة صيفاقس في الملك قد اتعظ بما وقع لأبيه، وأدرك خطر الرومان؟، فأحسن مجاورة مصينيسا. وقد استطاع مصينيسا بدهائه وإخلاصه وإعجاب البربر به ان يجعل أهل موريطانيا الشرقية أصدقاءه، فرضوا به ملكا فانظموا إلى دولته. فاتسع مجال العمل لمصينيسا وتحققت الخطوة الأولى في توحيد المغرب الذي يتمناه مصينيسا، ويعمل جاهدا له.

وكانت الدولة البونيقية عدوه، ولكنها لا تستطيع محاربته. ان الهرم، والإعياء من الحروب، ونفسها المسالمة تغلها عن حربه. ثم ان الرومان قد قيدوها له. لقد اشترطوا عليها غي معاهدة الصلح تن لا تحارب أحدا إلا بإذنهم. ومصينيسا حليفهم، فبودهم ان ينقض عليها فيضعفها فيسهل عليهم القضاء عليها والحلول محلها في افريقية. فما كانوا ليأذنوا لها في حربه.

مهاجمة مصينيسا للدولة البونيقية واقتطاع جهاتها في المغرب والجنوب

وكان مصينيسا غيورا على المغرب. وكان يعرف أطماع الرومان ونواياهم السيئة للمغرب. وكانت الدولة البونيقية قد أودى بها الهرم، وكانت تتداعى للسقوط، فحرص مصينيسا على ان يحتلها هو ويمتلك افريقية قبل ان سبقه الرومان. ان غرضه من

75 - مدينة المغرب العربي ج 1 ص 229 ط أولى بتونس
لم يكن ما قلناه في زواج مصينيسا خيالا، بل هو ما توحي به نصوص التاريخ. وما يستنبطه المؤرخ إذا حلل النصوص واعمل النظر فيها. ان ذلك الزواج لم يقع إلا في الجو والأحوال الوجدانية التي ذكرنا.

مهاجمتها هو هذا، وليس ما ظنه بعض المؤرخين من ان الرومان هم الذين يغرونه لإضعافها لهم. ان مصينيسا يمقت الرومان ويراهم بلاء على المغرب، وعدوه اللدود الذي لا يرجو له خيرا.

ويلك أيتها العجوز التي أساءت إلى البربر، وبثت الفتنة بينهم ! أيتها الثمر الحلوة التي تجذب الذباب إلى المغرب ! لابد من إزالتك ليتوحد المغرب وينجو من خطر الرومان ! فشمر مصينيسا لالتهام أفريقية قطعا وضمها إلى دولته والقضاء على الدولة البونيقية بالتدريج.

إعجاب البربر الإفريقيين والبونيقيين الأحرار بمصينيسا ومطالبتهم بانضمام افريقية إلى نوميديا

« ان افريقية للإفريقيين، ولا ينبغي ان يكون إلا للإفريقيين»[76] هذا هو شعار مصينيسا الذي ينادي به في المغرب، ويبثه في افريقية ليهب البربر ليحرروا واطانهم من المستعمرين البونيقيين، ويسبقوا الرومان قبل ان يتسلطوا عليهم فيقعوا فيما أدهى. وهب البربر الإفريقيون وكثير من البونيقيين المخلصين ينادون بانضمام افريقية إلى نوميديا لتنجو من الاحتلال الروماني، ويجدد مصينيسا شبابها. ان البونيقيين لا يستطيعون الدفاع. فمصينيسا وحده هو الذي يستطيع ان يقف في وجه الرومان. وكان هذا الحزب الكبير الذي تكون في قرطاجنة وفي أنحاء افريقية قد زاد لمصينيسا حرصا على احتلالها. فما كاد يستقر في ملكه، ويشعب صدوع دولته، ويهيئ جيشه وأسطوله، ويجعل دولته بإصلاحه تقف على قدميها، وترفع رأسها، وتفتح ذراعيها لضم المغرب كله، حتى ابتدأ في التهام افريقية، فهاجم النواحي الغنية العامرة التي تجاور نوميديا من ترابها فاستولى عليها. «فاستحوذ على ساحل سرت الصغير بخليج قابس، وهو الجهة التي كانت تعرف بجهة الأسواق التجارية، وكانت مشهورة بمداخليها وغناها. وكان ذلك في سنة 162 ق.م»[77] فصار جنوب افريقية كله من مدينة صيفاقس تابعا لنوميديا دولة مصينيسا، وكذلك ساحل طرابلس الخصب الغني بأسواقه التجارية الكبرى إلى خليج سرت الكبير.

وفي سنة 154 ق.م استولى على الجهات الفلاحية الخصبة (في الشمال الغربي والوسط الغربي لافريقية) كجهة دقة، وجهة السهول الكبرى، وهي سوق الأربعاء وسوق

76 - مدينة المغرب العربي ج 1 ص 182 ط أولى بتونس.
77 - مدينة المغرب العربي ج 1 ص 178.

الخميس (جندوبة) حيث يمر وادي مجردة»[78] فامتدت حدود دولة مصينيسا الشرقية، وتوغلت في شمال افريقية ووسطها. فكان الحد الشرقي للدولة النوميدية شرق مدينة باجة؛ وشرق تبرسق، ومدينة دقة إلى جبال أولاد عون، فيضم إلى دولة مصينيسا هذه السهول الخصبة التي يفيض عليها وادي مجرة الكبير، والتي اعتنى بها البونيقيون كل الاعتناء، فكانت بساتين غناء، ومزارع منظمة راقية تتخللها سواق للري، وكل ما تحتاجه الفلاحة المنظمة الراقية.

وكان مصينيسا عازما على احتلال افريقية كلها، فأشفق الرومان من اتساع دولته وخافوا ان يستولوا على افريقية كلها سورا حديديا في وجوههم، فلا يستطيعون احتلال المغرب كما يريدون. فسارعوا لاحتلال افريقية في سنة 146 ق.م وحالوا دون توحيد مصينيسا للمغرب، وابتدأوا في الكيد لهذه الدولة البربرية الكبرى التي أرغبت الرومان وغلت أيديهم عن احتلال المغرب كله قرنا كاملا من الزمان، ووقفت في وجوههم سورا حديديا يحفظ المغرب، لا يستطيع الرومان الأقوياء الجشعون اختراقه ! .

وفي سنة 158 ق.م استطاع مصينيسا بدهائه ان يضم موريطانيا الشرقية إلى نوميديا فاتسع حد دولته غربا فكان وادي ملوية.

حدود دولة نوميديا

وكانت حدود دولة مصينيسا في النصف الأخير من القرن الثاني قبل الميلاد تبتدئ شرقا من شرق باجة ودقة فتضم كل سهولها إلى نوميديا، ثم تنحدر جنوبا فتضم جنوب افريقية كله من جنوب مدينة صيفاقس، وساحل طرابلس إلى خليج سرت الأكبر، فالحد الأقصى الشرقي لدولة مصينيسا هو خليج سرت الأكبر، وحدها الغربي هو وادي ملوية.

هذه هي دولة مصينيسا ، وقد تحقق مثير من أمله في توحيد المغرب، فلو طال عمره وأبقت الأيام شبابه، لحارب الرومان قي افريقية وقذفهم في البحر، فيضم افريقية إليه، ثم موريطانيا الغربي ببالغ دهائه، فيصبح المغرب الكبير كله دولة واحدة. فيتحقق في التاريخ القديم ما لم يستطع تحققه في تاريخ المغرب كله إلا الدولة الأموية العتيدة في فترة قصيرة من الزمان، ودولة الموحدين الكبرى التي وحدت المغرب الكبير وحققت أملا من آماله الغالية الكبرى.

وكان مصينيسا حازما كل الحزم، يباشر أمور الدولة بنفسه. وكان يقصد أنحاء دولته

78 - نفس المصدر ص 178 ط أولى بتونس.

فيتفقد أمورها، ويطلع على سير الأمور فيها بنفسه. وكانت له مراكز إدارية كبرى في المدن الكبرى في كل ناحية من نواحي الدولة، فيقصد تلك المراكز فيتصل برعيته، ويجتمع برؤساء القبائل فيتفاوض معهم في مشاكلهم، ويوجههم في أمورهم أحسن توجيه، ويؤكد بينهم الإخاء والمودة.

المراكز الإدارية الكبرى في دولة مصينيسا

وكانت له ثلاث عواصم يتنقل بينها، ويقيم في كل واحدة منها ردحا من الزمان على حسب مشاكلها. فعاصمته الكبرى في وسط الدولة هي قرطة، وهي العاصمة العامة ومقر الحكومة؛ وعاصمة الجناح الشرقي في دولته، وهو غلاب افريقية وجنوبها الذب احتله، هي سيكا (مدينة الكاف) وكانت سيكا مدينة جميلة متحضرة. وكان لمصينيسا فيها قصر فخم وحدائق غناء. وكان يقيم في سيكا ويتفق أمور تلك النواحي بنفسه، ويحل مشاكلها بدرايته وحنكته. وكان يولم لرؤساء القبائل البربرية في تلك النواحي الولائم الفاخرة، فتنصب الموائد، وتوضع فوقها ألوان الأطعمة في أوان من فضة وسلال من ذهب، وتقع أثناء تلك المئادب حفلات موسيقية رائعة»[79]

ويفعل مثل هذا في قرطة وصيغة عاصمة الجناح الغربي لدولته.

لقد كان مصينيسا متقشفا في عيشه، ولكن دولته كانت متحضرة، وهو كان يريد ان يرى الجمال في كل أنحاء مملكته؛ ونور الثقافة والتمدن وجمال الأخلاق في وجود كل رعيته.

تلك هي حروب مصينيسا مع أعدائه، ومساعيه الكبرى لتوحيد المغرب، وعواصمه في جهات الدولة، فما هو إصلاحه فيها، وأعماله العظيمة لنهضة المغرب وازدهاره؟

إصلاح مصينيسا ونهضته الكبرى بالدولة

كان مصينيسا مخلصا لدولته، وغيورا على قومه، ومحبا للمغرب كله0. قد عزم ان ينهض بدولته وبالبربر كلهم النهضة الكبرى التي تجعلهم امة قوية سعيدة، وتقف في وجه الرومان، وتزاحمهم، وتنتصر عليهم في البحر الأبيض المتوسط. فابتدأ العمل، وقدم للنهضة أسبابها القوية، ومقدماتها الصحيحة، وهي التربية الحسنة، والتعليم الرشيد.

79 - مدينة المغرب العربي ج 1 ص 179 ط أولى بتونس.

اعتناؤه بالتربية والتعليم في الدولة

كان مصينيسا يؤمن ان قوة الأمم وسبب سعادتها ومجدها إنما هي الأخلاق الحسنة، وصفاء النفوس، وثقافة العقول، وان الرومان إنما سادوا الأمم العالمة المتحضرة بمتانة الأخلاق، وتمجيد القوة ! فعليه ان يبث هذين السببين في أمته. انها أكرم عرقا من الرومان، وأكثر استعداد للمجد منهم فإذا كانت مثلهم في هاتين الخلتين انتصر عليهم، واقفل أبواب المغرب في وجوههم.

ان التربية والتعليم هما الحياة السعيدة ! هما الغني والقوة ! هما سبب الرفعة والمجد ! هذا ما نقشه مصينيسا بدعايته، ودعاية أنصاره من الشباب المثقف المصلح في قلوب أهل دولته. وهذا ما نقشه في صدورهم بخطبه، فغرس فيهم حب العلم، والاعتناء بالتربية، وتمجيد الأخلاق الحسنة، والسلوك القويم. وفتح لهم المدارس للتعليم في المدن والقرى، وتسارع الأغنياء والمثقفون إلى إعانة الحكومة في فتح المدارس، وبث الدعاية للتربية والتعليم. وكانت طبقة كبيرة من البربر سيما في قرطة وشرق نوميديا قد تثقفت وأخذت حظها من العلم في المدارس البونيقية في افريقية أو في نوميديا الشرقية التي جعلوها تحت حمايتهم، أو في قرطة التي كانت فيها مدارس كثيرة، فعينها مصينيسا للتعليم في دولته، ثم استقدم المعلمين المخلصين من البلاد البونيقية، وأرسل البعثات العلمية الكبيرة إلى قرطاجنة، فنضجت فيها في مختلف العلوم، فانبثت في أنحاء مملكته، تنشر الثقافة، وتمحوا الأمية، وتبث روحا جديدة في البربر: تعلم صغارهم في المدارس، وكبارهم في الجامع، والحمامات [80] والنوادي. فأحب الناس العلم فتنافسوا في تعليم صغارهم. وصار العلم والخلق الحسن هو سبب الاحترام والرفعة في المجتمع، وهو أساس التقدم والسلطان في الدولة، فتراحم الناس على موارده، وتأججت في نفوسهم الرغبة فيه.

وكانت اللغة البونيقية قد انتشرت في البربر سيما في نوميديا قبل مصينيسا فزادها مصينيسا انتشار في البوادي والقرى لأنها لغة العلم والحضارة الراقية، فسهل على مصينيسا تثقيف البربر لانتشار اللغة البونيقية فيهم. فانشأ في زمن قصير جيلا من المثقفين كون منهم الجهاز الصالح المخلص القوي لدولته.

إصلاح مصينيسا لدين البربر الوثني

80 - كانت الحمامات أمكنة للاجتماع في ذلك الزمان سيما عند البونيقيين والرومان وإذا كان البربر قد ورثوا الحضارة البونيقية فلابد ان تكون فيهم هذه العادة

وكان البربر امة متدينة، تتمسك بدينها وتقدسه. فتناول مصينيسا بإصلاحه دين البربر أيضا. لقد كان دينهم بسيطا ساذجا، لا يترك الآثار الحسنة في نفوسهم، ولا يعودهم تمجيد الأشياء العظيمة، كالقوة، والجمال، والزراعة، وغيرها من الأشياء التي يجب ان تعتني بها الدولة المتحضرة وتقبل عليها. فدعا مصينيسا البربر إلى عبادة كثير من أوثان الإغريق، والبونيقيين، والرومان كافروديت إلهة الجمال، والأوثان الأخرى التي ترمز إلى القوة، والى الخير، أو إلى الزراعة، وغيرها من المعاني التي كان يقدسها الإغريق والبونيقيون المتحضرون، والرومان الأقوياء.

وكان مصينيسا يقصد بهذا ان ينشئ قومه على تمجيد المعاني التي ترمز إليها تلك الأوثان مصينيسا ان ينتفع بالدين الوثني الخرافي الباطل في تربية البربر، وتوجيههم إلى الوجهة الحسنة التي يريد. ولو أدرك مصينيسا الدين الإسلامي العظيم لكان اكبر من يتحمس له، ويدعو قومه إليه، لأنه يعلم بذكائه انه دين القوة والجمال والخير وكل معنى حسن في الوجود !

اختيار مصينيسا لجهاز الدولة

وكان مصينيسا مخلصا للدولة، يعمل لصالح الأمة لا لنفسه. وكان يؤمن بان وظائف الدولة واجبات ثقيلة لا حظوظا وجوائز يتحف بها الأصدقاء، ويتملق بها أناس، ويستكثر بها الأتباع والمؤيدين الذين يسندون بظهورهم الراكعة عرشه المتداعي، ويحدثون بأيديهم المصفقة دويا لشخصية الهزيلة يلفت الأنظار، ويرضي غرور نفسه. فاختار موظفي الدولة من الرجال الصالحين المخلصين العاملين الذين لهم دراية بالعمل، وكفاءة للوظيفة. واعرض عن الذباب المتهافت على المناصب، وعن الضعفاء الذين يريدون ان يكونوا عالة على الدولة، يرتعون في خيراتها ويمتصون دماءهم وهم رافهون لاهون. فازدهرت دولته بهذا الجهاز القوي المخلص، ووجد مصينيسا من أعضائه هؤلاء القوة التي أسرعت بالدولة في كل نواحي العمران، والغنى، والقوة، والتقدم.

اعتناؤه بالجنس والتربية العسكرية في الدولة

وكان مصينيسا عازما على الاستيلاء على افريقية، وعلى مقارعة الرومان وحفظ المغرب من احتلالهم، فاستعد كل الاستعداد بإنشاء جيش قوى وأسطول كبير. وقد بث التربي العسكرية في دولته. وكان البربر يمجدون الفروسية والبطولة، والبراعة في فنون القتال، فاذكي مصينيسا هذا الطبع فيهم، وانشأ شباب دولته عسكرية. كل منهم يحسن ركوب الخيل، واستعمال السلاح. واختار من هذا الشباب جيشا دربه أحسن

تدريب. وكان فيهم الفرسان والمشاة. وقد أقام لهم من البربر الذين حاربوا الرومان مع البونيقيين من يعلم حرب المشاة التي يتقنها الرومان أكثر من غيرهم؛ وأقام المصانع الكثيرة لصنع الأسلحة، واستكثر من الخيل النوميدية المشهورة في ميادين القتال. وحث شعبه، وفرض على جيشه تعلم السباحة، والبراعة في المصارعة، وألزمهم بكل ما يقوي البنية، ويذكي الشجاعة، ويجعل صاحبه أسدا يفترس أعداءه.

تمجيد مصينيسا وأهل دولته للقوة والفروسية

وكان مصينيسا يمجد الفروسية والقوة، ويغرس في شعبه تمجيدهما. وقد رسم في نقوده مع صورته رسم الفرس منطلقا أو مستعدا، علامة على تمجيد الفروسية؛ ورسم مع الفرس سهما أو قناة مركوزة علامة على تمجيد القوة. وكانت هذه النقود تغرس في الناس الاعتناء بالقوة الحربية، والاستعداد العسكري. وتعلمهم وتجعلهم يؤمنون بان غنى المال في عصرهم الذي تسلط فيه الرومان، وعز الدولة لا يكونان إلا بالفروسية والقوة التي يدحرون بها الرومان المستعمرين !

وكان شعار مصينيسا الذي يزدان به في صور نقوده ليس التاج الذهبي، ولا ريش النعام، ولا أنواع الزينة كما يفعل الملوك الضعفاء، بل شعاره الذي يعتز به هو السهم الذي يدل على القوة! يرسمه في صورته ويركزه في اظهر مكان في الصورة. كانت الدولة المغربية الكبرى التي أنشأها مصينيسا تمج القوة، فجدت في أسبابها، فصارت أقوى دولة في المجال العسكري بالبحر الأبيض المتوسط. وقد صارعها الرومان طويلا فصرعتهم. ولولا تحاسد البربر، واستعانة الرومان بهم على القضاء على هذه الدولة لأطعمتهم بطون الحيتان، ولدست أنوفهم في الرغام، وطبطبت في ظهورهم بالقنا وهي تكنسهم إلى البحر، وتغلف المغرب في وجوههم إلى الأبد! كانت تحقق ما أراده حنبعل فخذلته أمته الضعيفة، فتحتل روما، فتقضي على شر الاستعمار في منبعه. ان البربر هم الذين صرعوا الدولة المغربية الكبرى التي أنشأها مصينيسا، في عهد يوغورطة ويوبا الأول فجثا عليها الرومان فأزهقوا روحها، وليس أبناء روما بتفوقهم على الجيش المغربي الباسل في الشجاعة والفروسية والمهارة في القتال!

إنشاء مصينيسا أسطول دولته الكبير الحربي والتجاري

واعتنى مصينيسا بالأسطول. ان العدو سيأتيهم من جهة البحر، فلابد من حفظ الشواطئ، ولا بد من الأسطول الذي يصلهم بالعالم في المجال التجاري. فانشأ أسطولا حربيا قويا رابط في الثغور البحرية، وأسطولا تجاريا كبيرا. وكان البربر قد برعوا في

الملاحة، وفي الحروب البحرية لطول ما أعانوا واستأجرتهم قرطاجنة في حروبها مع الإغريق والرومان في البحر، ولكثرة استعانة القرطاجنيين بهم في أسفارهم البحرية الطويلة، وفي القيام بأساطيلهم الكثيرة. فوجد مصينيسا شباب دولته الملاحين الكثيرين الماهرين، ومن يحسن حروب البحر، فانشأ بهم أسطولا حربيا وتجاريا كبيرا، وجيشا بحريا كانت ترتعد به فرائس الأعداء.

اعتناء مصينيسا بالفلاحة وتمدين البربر الرحل

وكان مصينيسا يوقن بان الغناء هو سبب القوة، ومال الدولة هو الأجنحة وهو السلاح؛ وهو الوسيلة الكبرى لتحقيق كل الآمال، وبلوغ كل الغايات، وان سبيل الغنى هو العمل والنشاط، سيما في الحقول. ان ارض المغرب الخصبة الواسعة تنطوي على الذهب وعلى الكنوز. لابد من استخراجها. ان الفأس، والمحراث والدلو للسقي هي اكبر أسباب المال الوفير، والغنى الواسع في ارض المغرب الكريمة ولكن الفلاحة الناجحة توجب على الفلاح ان يقيم في أرضه، ويعطيها نفسه ويقصر عليها كل جهوده. واغلب البربر في مملكة مصينيسا لا يستقرون في مكان واحد. وقد سماهم الإغريق والبونيقيين نوميديين لكثرة ارتحالهم، ومعنى نوميدي هو الرحالة البدوي الذي لا يستوطن مكانا واحدا. ان اغلبهم يعتني بتربية المواشي، ينتقل بها في المراعي الخصبة، ويسافر بها إلى المواطن المعشبة، ولا يستقر في مكان واحد.لا بد من تمدين هؤلاء البداة الرحل. انه ليس هناك شيء يمدنهم كالفلاحة التي تلزمهم على المقام في مكان واحد، وعلى بناء المدن والقرى. فبث مصينيسا دعاية طويلة عريضة حارة سخر لها كل المثقفين. فلفت البربر إلى غنى الفلاحة وعزها، وهنائها، والى آثارها العظيمة في الأخلاق والأجسام. ان الرومان يرون الفلاحة صناعة الأشراف، وما عداها عمل العبيد! ان الوطني الحق هو الذي يملك ارض وطنه ويستخرج كنوزها ان ارض المغرب هي الذهب وهي الغنى، وهي عز الدولة وقوتها. فاشعر مصينيسا قومه بجدوى الفلاحة، فاقبلوا عليها. فقسم على القبائل والأفراد الأراضي الصالحة، ودعاهم إلى إصلاح الأراضي البور وامتلاكها، فمن أصلح أرضا كانت له. وكان له عشرات من الأبناء، وكانت أسرته كبيرة فدعاهم كلهم إلى العمل في الحقول وإصلاح الأراضي. فأصلح مصينيسا بجهوده الخاصة وبجهود أبنائه أراضي واسعة أصبحت ملكا له. وكان من كبار الملاك للأراضي في دولته. « ولما مات ترك لكل واحد من أبنائه أرضا تبلغ مساحتها ألف (هكتار) تقريبا. وكان عدد أولاده أربعة وأربعين ولدا.[81]

81 - مدينة المغرب العربي ج 1 ص 181 أولى بتونس.

وكان مصينيسا بارعا في الفلاحة، يتقن أساليبها، فزرع أراضيه. وكان مثالا لشعبه في الاعتناء بالفلاحة، فاقتدوا به، واستقروا في قراهم الكثيرة التي انشأوا في كل أنحاء نوميديا، وفي موريطانيا الشرقية أيضا. وما ان انتصف القرن الثاني قبل المسيح. بعد مكوث مصينيسا خمسين سنة في الملك حتى كانت نوميدية وموريطانيا الشرقية كافريقية في الفلاحة، وفي وفرة المزارع والبساتين، وفي اكتظاظ الأسواق والمخازن بالثمار والحبوب ومختلف الغلال. وذاق البربر عز الفلاحة وغناها. فكانت خدمة الأرض اكبر باب للرزق يطرقونه. وأورثتهم الفلاحة الاستقرار فتحضروا. فاستطاع مصينيسا ان ينشئ لهم معاهدة التعليم، ويربيهم بقوانين الحكومة، ويجبيهم لخزانة الدولة، كما استطاع ان يغرس فيهم الاتحاد والإخوة، والتعاون، فكانوا امة متساندة مترابطة فشق على الرومان التغلب عليه.

قال بوليبس المؤرخ الروماني الذي شاهد دولة مصينيسا. «كانت نوميديا قبل مصينيسا لا تجدي نفعا، ولا تأتي بفائدة، وكانت تعتبر غير قادرة بطبيعتها على إعطاء شيء من المنتجات الفلاحية. فكان مصينيسا أول واحد، بل كان الرجل الوحيد الذي اظهر ان نوميدية قادرة على إعطاء جميع تلك المنتجات مثلما تعطيه أية جهة أخرى، لأنه أحيا مسافات شاسعة، وتعهدها بالحرث والزراعة».[82]

وقال استرابن:» ان مصينيسا مدن النوميديين وحبب إليهم خدمة الأرض والفلاحة.».[83]

ان ما تمتاز به نوميديا اليوم من الأراضي الشاسعة الصالحة للزراعة يرجع الفضل الأول إلى هذا الملك العظيم المخلص أي حبب إلى أبناء الوطن ان تنخفض رؤوسهم في زراعة الأرض وحرثها لترفع بالعز والغنى والسعادة، وجعل نوميديا بساتين ومزارع خضراء، فأحضرت له ولدولته الأيام، وانفتح أغزر مورد للمال طفحت به خزائنها.

اعتناء مصينيسا بالصناعة

واعتنى مصينيسا بالصناعات، وبالتعدين، وبكل ما تستلزمه الدولة المتمدنة التي خلفت قرطاجنة في حضارتها العظيمة، وورثت علم البونيقيين وصناعاتهم، ومنيتهم، فطبعتها بطابعها، وزادتها رقيا وجمالا واتقانا.

82 - مدينة المغرب العربي ج 1 ص 180 ط أولى بتونس .
83 - نفس المصدر ص 179

اعتناؤه بالخط البربري وتوسيعه وتجميل حروفه

وكان مصينيسا يستعمل في دواوينه مع اللغة البونيقية. فوجد ان الخط البربري لا يزال على قصور البداوة، ضيقا لا يشتمل على كل الحروف المستعملة في اللغة البربرية، فاعتنى به، فوسعه، وزاد فيه حروفا كثيرة، وزين حروفه وجملها، فصار خطا يفي بحاجة المرء في التعبير، ويجد فيه الكاتب كل الحروف التي تتركب منا الكلمات البربرية.

ان اعتناء مصينيسا بالخط البربري دليل على انه مستعمل في الدواوين. فلو كان مهملا لا تستعمله الحكومة والشعب ما اعتنى به. وارى ان مصينيسا هو الذي وسع الخط البربري ووضع أكثر حروفه حتى وصلت ثلاثة وعشرين حرفا بعد ان كان محصورا في عشرة أحرف.

كان مصينيسا هو زعيم الأمازيغ الأكبر ! نهض بهم النهضة الكبرى في كل النواحي. وأقام الدولة البربرية الكبرى التي وحدت اغلب المغرب الكبير، فاستطاع ان يقف في وجه الرومان، وقد ألقت دولته القوية الرعب في قلوب الرومان فتكمشوا في افريقية قرنا كاملا من الزمان كلما هموا ان يمدوا يد اللص الماهر والمخاتل البارع إلى الدولة البربرية الكبرى حملقت فيهم بعيون الأسود. فتنقض أيديهم. ومما يدلك على قوة الدولة البربرية ان الرومان لم يستطيعوا استرداد ما اقتطعه مصينيسا من افريقية، وكان جزءا من الدولة البونيقية، فضل في قبضة الدولة البربرية إلى ان استولى الرومان على نوميديا بعد قرن كامل من احتلالهم لشمال افريقية ووسطها.

تعصب المؤرخين الأوروبيين للرومان واحتقارهم للبربر الأقوياء

ان المؤرخين الأوروبيين إذا كتبوا عن الحقبة من تاريخ المغرب ليحتقرون البربر، والدول البربرية، فيجعلون الرومان في افريقية هم كل شيء، وبقية المغرب تابعا لهم، يمتثل أوامرهم، وإرادتهم. ان الرومان لو كان لهم ذلك السلطان على المغرب لاستولوا عليه كله. إنهم يرون الدولة البربرية قذى في عيونهم، إنهم يريدون ان يرتعوا في كل أنحاء المغرب، ويزدردوا خيراته، ويملئوا خزائنهم بموارده الغزيرة فيجدوا دولتهم القوية تحرسه من اللصوص، وتمنع عنه الذئاب، وتذود عن ساحة الأفاعي والعقارب. إنهم غيظ قاتل عليها. ولو كان لهم السلطان عليها، وكانت هي ضعيفة تخضع لهم لأزالوها من الوجود !

كانت دولة مصينيسا في عهده وفي عهد أبنائه من بعده إلى يوبا الأول مستقلة كل الاستقلال لا سلطان للرومان عليها. وكان الرومان يخطبون ودها. ويقدمون الهدايا

الذهبية التنفسية إلى ملوكها يطلبون صداقتهم ويستخدمون كل دهائهم لتبقى ساكنة لا تهاجمهم.

ملازمة مصينيسا للحياد في الحرب البونيقية الثالثة لكرهه للرومان

وكانت الدولة البربرية الكبرى في حاجة إلى الاستقرار والهدوء لتعلى صرحها، وتبنى نفسها كما تريد، فأبت ان تهاجم الرومان أو تعين البونيقيين عليهم، وحرصت على سكونهم، وكانت تبتسم لهم على عداوة قاتمة في أعماقها لهم، وتبيع لهم القمح والحبوب وما يطلبون شراءه من سلع الدولة البربرية الكبرى ، وأشياء المغرب الجميل. كانت الصلة بين الدولتين مادية. وكان الرومان اكبر زبون للمغرب متحضر الغني الذي يبحث عن الحرفاء ليبيع لهم ثماره وسلعه. وكانت صلة المغرب دولة مصينيسا بالرومان صلة بزبون، وصلة الجار القوي يجاوره ذو نية سيئة فحرص ان يبقيه على السكون لكي لا يثير الغبار في وجوه الصافي، ولا يخلق الكدر في أيامه الهادئة.

وكان مصينيسا قد أعان الرومان في الحرب البونيقية الثانية ليسترجع مملكته، ويقضي على أعدائه، ويستعين بهم في أضعاف الدولة البونيقية التي عزم على القضاء عليها، وضم افريقية إلى دولته، ليتوحد المغرب. لما هاجم الرومان قرطاجنة ليقضوا على البونيقيين لازم الحياد، ولم يمد إلى الرومان يد المساعدة، رغم شدة حاجتهم إلى مساعدته. لقد تنمرت عليهم قرطاجنة، واستغلقت في وجوههم وضعفوا عن فضها بالقوة، وظلوا عاما كاملا وهم يصارعونها وهي واقفة في وجوههم تكيل لهم الضربات، وتبعث في قلوبهم الرعب الشديد !

ان مصينيسا يبغض الرومان. فهم أعداء المغرب الألداء، وهم البلاء الذي يخافه على قومه، فبوده ان ينهزموا في حروبهم مع قرطاجنة فيرتدوا خاسئين، ليتولى هو فتح قرطاجنة وضمها إلى دولته. ان حزبه قوي فيها، وسيجد كثيرا من الشعب يرحبون به، ويعينونه من الداخل على فتحا، وضم افريقية إلى دولته. لقد بقي مصينيسا على الحياد في تلك الحروب التي انتهت بتخريب قرطاجنة، لا يعين الرومان بشيء، ولا يتمنى لهم الهزائم والانكسار !

إعداد مصينيسا لأبنائه ليكونوا اعضاده في املك وخلفاءه في الدولة

وكان لمصينيسا أبناء كثيرون. وكان يسد بهم الدولة، ويستخدمهم في القيام بمزارعه الواسعة، وشئونه الأخرى. قد اعتنى كل الاعتناء بتربيتهم وغرس فيهم أخلاق

الرجولة، وعلمهم وبهم وهيأهم ليكونوا قوة للدولة واسوة حسنة للبربر.

وكانت وراثة الملك لأكبر رجل في أسرة مصينيسا. وكان مصيبسا بن مصينيسا هو الأكبر. فكان مصينيسا يدربه على شئون الملك، ويعلمه السياسة ويوقفه على نوايا الرومان السيئة للمغرب. لما شخ مصينيسا كان ابنه مصيبسا هو عماده في إدارة المملكة، وسنده الأكبر في سياسة الدولة. وكان مصينيسا في آخر عمره هانئا مطمئنا، لا يخاف على دولته من الضعف بعده لكفاءة أبنائه، وتآزرهم سيما ابنه مصيبسا الذي تدرب على السياسة وصار يستطيع السير بالدولة في الطريق التي دفعها فيه مصينيسا لا تتعثر خطواتها، ولا يبطؤ سيرها.

وكان من أولاد مصينيسا مع مصيبسا ابنان آخران قد ورثا شخصية أبيهم وكثيرا من خصائصه هما منستابعل وغولوسة. وكان منستابعل ذا شخصية علمية اجتماعية، فاسند إليه شئون القضاء في الدولة. أما غولوسة فكانت شخصيته حربية فجعله قائد جيوشه، فاسند إليه الأمور العسكرية في دولته وقضى مصينيسا الأيام الأخيرة من حياته وهو مستريح خيف الكاهل لان أبناءه يقومون بتدبير الدولة، وهو يوجههم ويرشدهم، ويلاحظ سلوكهم وتدبيرهم. فماذا وقع له بعد عمره الطويل المستنير !

وفاة مصينيسا وحياطته للدولة

كان مصينيسا قد بلغ التسعين من عمره وابتدأت الشيخوخة الطويلة تثقل عليه، والجهد الكبير الذي بذله في عمره الطويل يصيبه بصفرة الخريف، وبنهاية المصباح الذي أنفذ نفسه في الإنارة ! وفي أول شتاء سنة 148 ق.م. مرض ثم وافاه اجله، فارتاعت الدولة لموته، وجزع المغرب الكبير كله بوفاة هذا المصلح الكبير، والملك القوي المخلص. ولبس البربر في كل مكان ثوب الحداد لموته.

أكاذيب المؤرخين الأوروبيين واحتقارهم للبربر

وكانت دولة مصينيسا قد استمرت بعد وفاته في استقرارها وهدوئها، لان مصينيسا بجهوده وإخلاصه وتدبيره الحكيم كان قد رسخ أقدامها في طريق لا يمكن ان تخرج منه، وسد ثغورها بالكفاءات المخلصة فلا يمكن ان تقع فيها بلبلة أو تصدع، وأقام ابنه الأكبر مصيبسا على رأس الدولة وهو حي وأعطاه ختمه، وسلمه مقاليد الملك وأزمة التدبير. وأسنده بأخويه، فاحدهما للقضاء يضمن العدل الذي تصلح به الدولة وتسكن، والثاني للحرب التي تمنع الفساد وترهب المتربصين بالدولة، وتقمعهم عن الضلال والفتنة.

كان هذا التقسيم للوظائف الكبرى من عمل مصينيسا وهو حي. لم يمت إلا ومصيبسا قد تولى كل أمور الملك، وأخواه قد أحسن كل منهما القيام بما اسند إليه. فتوفي مصينيسا وهو آمن مطمئن على دولته، انه لم يمت فجأة في معركة فيقال انه لم يسد ثغوره بمن يخلفه، ولا مات وهو شاب فنقول انه لم يشعر بالموت فيعين خلفاءه من بعده، لقد مات وهو في التسعين من عمره، في شيخوخته الطويلة، واستعد للموت بترتيب أمور الدولة، وتنظيم كل شئونها، وإقامة الخليفة الذي يقودها من بعده. فما كان مصينيسا يترك أمور الدولة من غير تنظيم، وثغورها الكبيرة من غيرها سداد، والشيخوخة الثقيلة تنذره بالوفاة، وسنه التي أشرفت على المائة تربه أبواب الآخرة تتفتح له، وهو الحازم المخلص الغيور على دولته، العالم بنوايا الرومان وكيدهم، وعدائهم، وعدائهم للدولة. انه ما جد بناء دولته إلا لتقف في وجه الرومان. فها هم ينزلون في افريقية، ويقع ما يخشاه مصينيسا، فهل يمكن ان يغفل عن دولته فلا ينظم كل أمورها قبل وفاته، ولا يولي حليفته الصالح الكفء على العرش قبل مماته؟ ان اقل اختلال يقع بوفاته في دولته واقبل اضطراب، سيستغله الرومان وينفخون في جمره ليضعفوا الدولة البربرية الكبرى التي تقف سورا حديديا في وجههم.

وبعد، فان ولاية مصيبسا للملك، وأخيه منستابعل لشئون القضاء، وغولوسة لشئون الحربية، كان من تدبير مصينيسا وعمله نفذه وهو حي. وقد أوصى بنيه بالاتحاد، وحذرهم من الرومان، وأوقفهم على عداوتهم القاتمة لهم، وأطماعهم الكبيرة في المغرب، وحثهم على ان يكونوا دائما على حذر منهم، وعلى الاستعداد بالاتحاد والقوة الحربية لقمعهم ، وعلى يقظة من يساكنه اللص المخاتل في داره، وعلى انتباه من تعشش الأفعى المساورة في بيته.

كان مصينيسا يرى الرومان أعداءه، فما كان ليحسن الظن بهم فيوصيهم خيرا بدولته، ويرجو منهم النصح لأبنائه، ويفتح لهم الباب للتدخل في شئون مملكته. وقد أساء المؤرخون المغاربة كل الإساءة إلى أجدادهم والى تاريخهم بتقليد الأوروبيين الذين جعلوا بدعاويهم الكاذبة الرومان هم أصحاب الملك والسلطان في المغرب، ومصينيسا وبنوه خاضعون لهم، والبربر مستخذون قد أعطوا بأيديهم لأعدائهم الرومان من غير قتال ولا حروب.

كانت دولة مصينيسا قوية مستقلة كل الاستقلال، ليس للرومان عليها أي سلطان. لقد كان الرومان لما توفي مصينيسا في أيام عصيبة. كانوا يصارعون قرطاجنة منذ عام كامل ليقضوا عليها، وقد ثارت ثورتها الباسلة في وجوههم، ونفرت من النطع،

وقاتلتهم مقاتلة المستميت الذي يأبى الذل والهوان. إنهم في حروب طاحنة معها، وأنهم لغرباء دخلاء في افريقية، يخافون ثورة البربر عليهم، واستغلال قرطاجنة في وجوههم، لم يتخلق لهم في ارض افريقية عرق، ولم يتكون لهم في المغرب أي نفوذ، ولم يستقروا استقرار الإقامة والاحتلال في أي ثغر من ثغوره. إنهم أجانب فيه، يشعرون بالغربة، وتفيض نفوسهم بالقلق على مصيرهم في المغرب، ويخشون انضمام الدولة البربرية الكبرى إلى قرطاجنة، فتستطيع الوطء على أعناقهم، وتعفيرهم في التراب ! تلك هي الدولة البربرية الكبرى دولة مصينيسا لما توفي، وتلك هي حال الرومان في افريقية. ولكن المؤرخين الأوربيين الذين كتبوا عن هذه الفترة من تاريخ المغرب قد جعلوا الرومان هم سادة المغرب، وان أموره كلها بأيديهم، وان البربر قد خضعوا لهم فأمسوا يتدخلون في شئونهم، وان دولة مصينيسا قد عنت رقابها لهم، ومصينيسا قد طأطأ لهم، ورآهم السادة الذين يخضع لهم، والقوة التي يخشاها، فيتذلل لها، ويخشع أمامها ! هذه هي الصورة التي رسمها المؤرخون الغربيون للبربر وللرومان، وهي بعيدة عن الصواب، وما قالوه هو خلاف الواقع. لو كان للرومان ذلك السلطان الذي ادعوه في المغرب لما توفي مصينيسا ما مكثوا قرنا كاملا من الزمان منجحرين في افريقية يحكون الدسائس لإضعاف الدول البربرية ليستطيعوا القضاء عليها. وقد قلد اغلب المؤرخين المحدثين المغاربة الأوربيين في دعاويهم الباطلة، وأوردوها في كتبهم، فجاءوا بخلاف الحقيقة، وحققوا غرض المستعمرين الذين يريدون ان يوحوا إلينا بضعف أجدادنا وقوة الرومان، ويجعلوا أجدادنا في نظرنا، وهم اسود ذلك الزمان، شياها تثغوا في قيودها في عرين الأسد الروماني، والعكس هو الواقع كما بينا ! إليك ما قاله الأوروبيون وقله مؤرخونا المحدثون بعد ان أريتك بطلانه، وأوقفتك على ضعفه، ورايتك حال الدولة البربرية الكبرى القوية المستقلة كل الاستقلال، وحال الرومان الخائفين القلقين على مصيرهم في افريقية.

قال : الأستاذ عثمان الكعاك وقد انخدع بدعاوى الأوربيين وكيدهم، فصور مصينيسا على غير حقيقته في صفحة 72 من كتابه (الموجز) ووصف الرومان بالسلطان الذي لم يكن أهم على المغرب، قال: «ثم لما قربت وفاة مصينيسا استقدم إليه الاميلي (قائد الرومان الذي ينازل قرطاجنة) وأوصاه بنائه خيرا، وعهد إليه ان يقسم بينهم الملك بعد وفاته !!»

وقال الأستاذ أليلي وقد ردد قول الأستاذ الكعاك: ولما وصل سبيون إلى قرطة، ووجد مصينيسا قد توفي انتخب ثلاثة من أبنائه، فاجلس على كرسي المملكة مصيبسا،

وعين غولوسة قائدا عاما للجيش، وعين منستابعل وزيرا للقضاء» !! [84]

وقال الأستاذ احمد صفر في كتابه:»مرض مصينيسا مرضا عضالا، وأحس بدنو اجله، فاستقدم صديقه سبيون إلى عاصمة مملكته قرطة كي يوصيه بأبنائه خيرا، فأسرع سبيون إليه، ولكنه وصل بعد موته بيومين، فقسم السلطة على أبنائه الثلاثة».[85]

تزلف الرومان إلى الدولة البربرية الكبرى وطلبهم ودها وحلفها

كان الرومان يخطبون ود الدولة البربرية الكبرى، دولة مصينيسا، ويحرصون كل الحرص على بقاء الحلف القديم الذي عقدوه مع مصينيسا، وعلى إبعادها عن الدولة البونيقية. فلما توفي مصينيسا، وأسرعت الوفود إلى قرطة للتعزية، وكان سبيون الاميلي قائد الرومان في افريقية، ذهب إلى التعزية في وفد من خاصته، فوصل بعد أسابيع من وفاة مصينيسا إلى قرطة، فعزى الملك مصيبسا في أبيه، واستماله إليه، وسأله إعانة حربية كبرى يتقوى بها على قرطاجنة. انه قد ذهب معزيا ومستغيثا بمصيبسا، ومؤكدا للحلف القديم بين الدولتين، ولكن المؤرخين الأوربيين سيما اللاتينيون منهم قد رأوا ذهاب سبيون إلى قرطة فقالوا انه قد ذهب ليقسم ملك مصينيسا على أبنائه ! وادعوا ذلك الادعاء الباطل الذي يصور أجدادهم الرومان سادة المغرب قبل ان يحتلوه، ويصور البربر الأقوياء الأباة امة ضعيفة خاضعة قد استسلمت للرومان قبل ان يغزوا أرضها، ويحاولوا التسلط عليها ! ! وإذا كان سبيون قد وصل حقيقة إلى قرطة بعد وفاة مصينيسا بيومين، فانه قد ذهب إليه مستنجدا مستغيثا، فمات قبل وصوله إليه، لأننا نرى الملك مصيبسا يبعث مع سبيون الاميلي هذا قائد جيشه غولوسة في جيش كبير أيد الرومان وقواهم على فتح قرطاجنة. قال الأستاذ احمد صفر «وعاد سبيون من قرطة إلى افريقية، مصحوبا بالقائد غولوسة، وعدد عظيم من القوات النوميدية».[86]

ان من يصف مصينيسا ببغض الرومان، وبقوة الدولة، ثم يقول انه أوصى سبيون بأبنائه خيرا، وجعل لهم أمر تقسيم الوظائف بين أبنائه، يناقص نفسه، ويصف

84 - تاريخ الجزائر ج 1 ص 136 ط بيروت 1963م.

85 - مدينة المغرب العربي ج 1 ص 248 ط تونس 1959.

لقد ردد الأستاذ احمد صقر هذه الدعاوى الأوروبية التي توحي بتعظيم الرومان واحتقار البربر في أكثر من صفحة في كتابه ، منها ما ورد في صفحة 274 فلو اعمل العقل المنطقي في هذه الدعاوي التي أكدها لفندها وبين بطلانها، ولكن عيب كثير من مؤرخينا أنهم لا يعتقدون في حماس ان تاريخ المغرب هو تاريخهم فيجب ان يدرسوه في عمق ويهضموه مل الهضم، ويكتبوه من جديد، لا ان يرددوا دعاوي الأوروبيين، ويحشروا ترهاتهم فيشينوا كتبهم النفيسة، ويعقوا أجدادهم وتاريخهم !

86 -مدينة المغرب العربي ج 1 ص 182 ط أولى بتونس.

الشيء بالبياض والسواد في وقت واحد، ويقول ما لا تصدقه العقول العالمة وذوو الذكاء والاستنباط.

إعجاب المؤرخين بمصينيسا وثناؤهم عليه

وقد نوه كل المؤرخين القدماء والمعاصرين بمصينيسا، واثنوا عليه، وأعجبوا بشخصيته العظيمة، وأعماله الكبرى.

قال استيفان قسال:»ان مصينيسا اكبر ملك بين الملوك في المغرب، كيوسف ابن تاشفين ألمرابطي، وعبد المؤمن ألموحدي، والشريف المغربي مولاي إسماعيل هؤلاء الملوك العظماء الذين يشبهونه في وجوه عديدة».[87]

وقال بواسيار:» كان مصينيسا هو المؤسس الفعلي لمملكة نوميديا، وكان رجلا عظيما».[88]

وفاء البربر لمصينيسا بعد وفاته

لقد توفي مصينيسا ففقد المغرب الكبير شخصية، ولكن قلوب البربر كلها ظلت قرونا وهي عامرة بذكره والإعجاب به والاعتزاز بدولته العظمى، وشخصيته النادرة وظل مصينيسا في قلوب البربر يشغل فيها الثورة على الرومان، وعلى كل أعداء المغرب الذين استعمروه وأرادوا به شرا.

وكان البربر الإفريقيون يحبون مصينيسا ويعجبون به، ويعترفون بجملة. لقد حررهم من عبودية البونيقيين، وضمنهم إلى دولته البربرية الرءوم. ولما توفي ظلوا يذكرونه وقد أقاموا له معبدا بمدينة دقة في غرب افريقية أحياء لذكراه بمناسبة مرور عشر سنين على وفاته. ان مصينيسا هو زعيم البربر وأبوهم، فلزام على المغرب ان يمجده في كل أنحائه !

عمر مصينيسا ومدته في الملك

كان عمر مصينيسا لما توفي تسعين سنة. لقد ولد في سنة 238، وتوفي في عام 148 ق.م ودفن في قرطة أو قريبا منها. قال الشيخ مبارك أليلي «وبالحروب جنوب قرطة قبر احد ملوك نوميديا، ويظنه مؤرخو الإفرنج لهذا العهد انه قبر مصينيسا».[89]

87 - مدينة المغرب العربي ج 1 ص 182 ط أولى بتونس.

88 - كتاب قرطاجنة في أربعة عصور ص طبع حسين الجزيري بتونس.

89 - تاريخ الجزائر الميلي ج 1 ص 135 ط بيروت 1963.

وكانت مدته في الملك نصف قرن وأربعة أعوام. وكانت كلها عملا مستمرا للنهوض بالمغرب، وبناء دولته القوية التي تحفظه من الأعداء، وثورته السعادة والهناء. انه من زعماء المغرب الممتازين خدموه في إخلاص، ووهبوا له حياتهم، وشرفوه في العالم؛ فلزام على المغرب ان يفي له، ويكتب تاريخه، ويعتني به كل الاعتناء في التاريخ القديم.

وكانت عاصمة مصينيسا هي قرطة (قسنطينة) فهو اكبر من بناها وشرفها وجعل العيون تتجه إليها من أنحاء العالم. ليت شعري هل تفي له، فتسمى شارعا من شوارعها الكبرى باسمه تخليدا له، ولفتا للأجيال إليه، ليقرأوا تاريخه، فيتعلموا منه الإخلاص والتضحية والأقدام، ويعلموا ان ووطنهم (المغرب الكبير) كان يرفع راية الحضارة الراقية، ويبني الدول العظمى لما كانت اغلب بقاع الدنيا تغط في نومها، وتحيا في الجهالة والظلمات!؟

لقد وفت مدينة قسنطينة ليوغورطة فسمت مدرسة كبيرة من مدارسها باسمه فهل تفي لمصينيسا فتسمى باسمه مدرسة من مارسها، وشارعا كبيرا من شوارعها؟ ان هذا ما ستفعله مدينة قسنطينة العتيدة، وهذا ما تفعله (بلديتها) إذا كانت تعرف تاريخها وتعتز به.

وبعد مصينيسا جاء ابنه مصيبسا . وكان أبوه قد مهد له كل شيء ولصلح له كل الأمور، وأزال من طريق الدولة كل العقبات، ودفع بالبربر الناهضين في قوة وبراعة في طريق لا يمكن خروجهم منه، وهو طريق العمل والنشاط والاستعداد للتنين الروماني الذي يتهيأ للالتفاف على المغرب، فأنساهم العمل والاستعداد كل الحزازات، والمنافسات، فاتحدوا وهدأت الدولة، وظلت على استقرارها أيام مصينيسا وهنائها، فاستراح مصيبسا. فكيف كانت أيام هذا الملك الجديد؟ وكيف كانت شخصية خليفة فقيدنا مصينيسا زعيم المغرب العظيم؟.

مصيبسا بن مصينيسا 148-119 ق.م

شخصية مصيبسا وعهده

كان مصيبسا قد ورث خصائص أبيه الخلقية والعقلية، فكان حازما، مخلصا غيورا على الدولة مثله، كما كان حصيف العقل، حسن التدبير، موفقا في سياسته للدولة فهدأت له الأيام، وأعجبت به رعيته، واتصل في عهده الاستقرار الذي أورثه مصينيسا لدولته، فلم يثر عليه ثائر في الداخل ولا في الخارج، فواصلت الدولة سيرها في طريق البناء والتشييد التي دفعها فيها مصينيسا، فازدهرت في كل نواحيها وأعلت صروحها في كل جهاتها، فانتشر العلم في الرعية، والغنى في جماهير الدولة، وحب الحضارة في طبقات الشعب، فازداد إقبالهم عليها. فكانت الدولة البربرية هي التي تحمل راية الحضارة بعد البونيقيين، وهي التي ورثت مدينة قرطاجنة وزادت فيها، وطبعتها بطابعها.

وكان عهد مصيبسا هو الزمن الذي ظهرت فيه نتائج جهود مصينيسا كاملة. لقد تثقف البربر كما أراد، واقبلوا على الزراعة، والصناعة، واستعدوا لعدوهم بالتربية العسكرية، واقبلوا على العمل المستمر والجد الدائب في كل الميادين، واتحدوا وتآزروا فلم تنفصل ناحية عن الدولة، وأدركوا كلهم خطر الرومان فاستعدوا لهم بالاتحاد. فقطف مصيبسا ثمار جهاد أبيه. فعاش قرير العين بحسن الاتجاه الذي كانت عليه دولته بفضل والده، وبالاستقرار والهناء التي ترك مصينيسا أسبابها كاملة في الدولة.

غرام مصيبسا بالعلم والفلسفة وعكوفه عليهما

وكان مصيبسا لما ولي الملك في كهولته. انه في التاسعة والخمسين من عمره. وكان عاقلا حكيما وذكيا عالما، وقد أيد فيه الاستقرار الذي كانت عليه الدولة رزانته ووقاره، وحبه للعلم، وغرامه بالدراسة. كما كان جهاز الدولة الذي أحسن اختياره له فضل كبير في ذلك. وكان أخواه غولوسة ومنستابعل قد قام مل منهما بما عهد إليه أحسن قيام فكان منستابعل وزير القضاء، وغولوسة وزير الحرب. فخف كاهله، ووجد الوقت الفسيح للاستغراق فيما يحب ويهوى، وهو العلم الذي غرس حبه مصينيسا في أبنائه وفي دولته. فاقبل على خزائن أبيه من الكتب، وعلى خزائنه، وعلى خزائن الدولة التي

غنمتها من قرطاجنة. فوجد فيها ضالته من العلم والفلسفة. فكان يقضي أوقات فراغه في الكتب أو في مذكرات العلماء والفلاسفة، أو في إفادة حاشيته من واسع علمه، وغزير معرفته.

وكان مصيبسا يحسن ثلاث لغات: البونيقية، والإغريقية، والرومانية، أفادته اللغتان البونيقية والإغريقية في الدراسة والاستزادة من العلم. وكان يميل إلى الفلسفة الإغريقية، ويعتني بدراسة كتبها، ومناظرة الفلاسفة اليونان الذين يزورونه في عاصمته ويرغبون في التحدث معه لسعة علمه، وغزارة معرفته، وعمق إدراكه لإسرار الفلسفة ودقائقها.

وكان مصيبسا يدفع بشعبه في طريق العلم والمعرفة، وينفخ حبة للعلم في رعيته، فتأثر به البربر واقتدوا به، فازدادوا نشاطا في التعليم، ومنافسة في معرفة ما تركت لهم الدولة البونيقية من مختلف العلوم.

قوة البربر واختيارهم من غنائم قرطاجنة لمكاتبها الحافلة

ان غرام مصيبسا -وهو رأس الدولة وعنوانها- بالعلم، واختيار غولوسة وجيشه الذي فتح قرطاجنة مع الرومان من غنائم قرطاجنة الكبرى لخزائن الكتب التي كانت تشتمل عليها مكتبة الدولة، دليل على نضوج البربر وحبهم للعلم والمعرفة

وكان فرح مصيبسا بتلك الخزائن التي نقلت إلى نوميديا، وفرح شعبه كبيرا لحصولهم عليها، ونجاتها من الحرق والتدمير الذي عفي على قرطاجنة، وأزالها من الوجود . إنهم قد غنموا من قرطاجنة لما غنموا كتبها أنفس كنوزها، أثمن أعلاقها، وفازوا من الغنائم بأحسن مما أخذه الرومان. لقد كان البربر أكثر نضوجا من الرومان، واعلم منهم لاختيارهم للكتب من الغنائم، ولإثارهم للعلم الباقي، والمعرفة التي هي أنفس شيء في الوجود!

قد يكون الرومان قد رغبوا في خزائن قرطاجنة من الكتب فاستأثر بها غولوسة قائد جيش مصيبسا. وهذا دليل على مكانة البربر وقوتهم وأثرهم الأكبر في فتح قرطاجنة، فكان لهم نصيب الأسد من الغنائم، وانتقاء القوي المنتصر من الأسلاب وهو دليل أيضا على تقرب الرومان إليهم، وحرصهم على استرضائهم، لأنهم دولة قوية يحتاجون إلى عونها ومؤازرتها في كل الميادين، فأثروهم بأنفس شيء في الغنيمة ورضوا بان تنتقل كل الكتب إلى الدولة البربرية حتى التي تمثل شخصية البونيقيين العظيمة، وهم حريصون على إزالة تلك الشخصية ومحوها من الوجود.

وقد نظر الأستاذ احمد صفر إلى الغنائم والأسلاب في قرطاجنة نظرة الطفل الذي يفتتن بالمادة ويستبيه البريق، ويحتقر المعاني ويعرض عنها، فحكم بان البربر لم يأخذوا من الغنائم إلا الفتات، وان الرومان قد بخسوهم حقهم، واحتقروهم؛ وجعل الرومان في معركة قرطاجنة هم كل شيء، يأخذون ما يريدون، والبربر معهم كالخدم مع السادة يأخذون فضلاتهم، وما يزهدون فيه! ان هذا غلط كبير. لقد كان غولوسة وجيشه البربري هم القوة الفعالة التي عجلت بفتح قرطاجنة. وكانوا يمثلون دولتهم المستقلة القوية الرافعة الرأس. وما كان للبربر ان يخشعوا للرومان، وهم يستعدون مل الاستعداد لحفظ المغرب منهم. ان الحازم الكيس كغولوسة وجيشه، لا يخنع للعدو فيطمع فيه، بل يريه جانب القوة، ويقف إمامه رافع الرأس، ويعامله معاملة الند لنده لا يرضى ان يحتقره أو يبخسه حقه ة سيما في مجال الحرب الذي تقسم فيه الغنائم على حسب الغناء في المعركة، والدرجة في البطولة والأقدام.

قال الأستاذ صفر:» وتخلفت رومة لأبناء مصينيسا عن بعض فضلات الغنيمة لا تسمن ولا تغني من جوع، فتركت لهم مكتبة قرطاج، وتنازلت لهم عن بعض الأراضي!».

ان هذا الكلام لا يليق في أسلوبه ومعانيه. انه ينطوي على احتقار العلم، والاستخفاف بالبربر، وعدم المبالاة بالتراث العلمي العظيم الذي تركته قرطاجنة. انه ليس فتاتا تلك الخزائن الغاصة بالكتب البونيقية النفيسة، بل هي لباب الغنائم وخيرات السلب، وأحسن ما تختاره الأمة الناضجة الواعي. لقد أبيحت قرطاجنة للجند الفاتح أياما، فاخذ البربر من نفائسها المادية ما يشاءون، واخذ مصينيسا قبل ذلك من أراضيها أخصبها وأغناها، ولم يترك من افريقية للرومان إلا نحو الثلث. وهاهم يستأثرون بكنوزها الأدبية، فهل بقي لهم من شيء نفيس لم يأخذوه؟!

ان عيب المؤلفين المحدثين في تاريخ المغرب هو إيمانهم بالمراجع الأجنبية وتقليدها حتى في احتقار مغربهم، والإزراء بأجدادهم، والغض من مقام البربر الرفيع، وتمجيد كل ما هو روماني، وجعله شيئا رفيعا نافعا كالسحاب ولو كان غبار المراغة! !

كان مصيبسا عالما جليلا، وفيلسوفا حكيما، يحب القراءة ويشغف بالعلم. وكانت دولته مثله في الغرام بالعلم والهيام بالمعرفة.

غرام مصيبسا بالجمال والحضارة وتزيينه لعاصمته

وكان متحضرا قد أعجب بالحضارة البونيقية والإغريقية فاقتبس منهما الصالح

الذي يليق بدولته، وأشاعه في رعيته. وكان يحب الجمال. يريد ان يراه في كل شيء في دولته، في سيرة رعيته، وفي عقول أمته، وفي المدن والقرى، وفي القصور والجدران فاعتنى بعاصمته قرطة كل الاعتناء، فلم يكتف بجهود البربر المثقفين في تجميلهما وتحصينها بل جلب إليها طائفة من اليونان، فأعانوا البربر في البناء والزركشة وعلموهم ما لم يعلموا من الفن المعماري الإغريقي، فصارت قرطة في الجمال والروعة والزخرف والنظام عروس المغرب، وأمست للدولة البربرية الكبرى هي المحيا الفاتن في الجسم القوي وصارت للمدن في الدولة قدوة في الزخرف والنظافة، والنظام والجمال، فاقتدت بها

وكان الغنى الذي كانت عليه الدولة البربرية، والثقافية المنتشرة في طبقاتها، والاستقرار والهناء الذي تنعم به، مما جعلها تغرم بالجمال وتقبل على الزخارف والنقوش وتحرص على الحسن تريد ان يكون في كل أشيائها.

وكانت قرطة إلى جمالها وزخرفها، حصينة عالية الأسوار والأبراج. وكانت كثيرة العمارة غزيرة السكان تستطيع ان تجند من سكانها عشرة آلاف رجل، وعشرين ألف فارس. وهذا دليل على الرخاء والهناء، وسعة الأرجاء في قرطة، فاقبل عليها الناس من كل أنحاء المغرب.

وكان مصيبسا يحافظ على القوة العسكرية التي تركها مصينيسا في الدولة. انه يعرف ضمائر الرومان للمغرب. إنهم لص يساكنه في داره فيمناه لا تفارق مقبض سيفه، وهو لا يغفل عن جيشه وأسطوله وتقويتهما والمحافظة عليهما.

سياسة مصيبسا الحكيمة مع الرومان

وكان مصيبسا يكره الرومان كوالد. وكان حريصا على الاستقرار في الدولة لينجز البربر كل مشاريعهم، وتبني الدولة نفسها في كل النواحي، فتستطيع مصارعة الرومان ومكافحتهم، لذلك كان يهادن الرومان ويداريهم، ويسلك معهم مسلكا حكيما لا يثيرهم عليه. ولا يجعل لهم سلطانا على دولته.

وكان الرومان يحتقرون مصيبسا ويخشون جانبه، وكانوا يتخذون كل وسيلة لاستبقائه على الحلف القديم الذي ابرموه مع أبيه. وكانوا يستنجدون به في حروبهم الكبيرة فينجدهم. وكان اكبر أغراضه في إعانتهم ان يزداد الجيش البربري قوة وتمرنا على الأساليب الرومانية في الحروب، وان تذكو صفاته الحربية فلا يضعفها السلم الدائم، فان الاستقرار الذي كانت عليه دولته، وخلوها من الأعداء والحروب، مما يوهن الشخصية الحربي في جيشه. كان غرض مصيبسا من إرسال جيوشه ليحاربوا مع الرومان، لا تملق

الرومان والخضوع لهم كما يقول المقلدون، بل إرهاف شجاعتهم والزيادة في دربتهم، ومنعهم من نسيان فنون الحرب التي يتقنونها، واكتساب الأساليب الحربية الجديدة من الرومان والأمم الأوروبية والشرقية التي يشاركون في محاربتها.

وكان الرومان قد استنجدوا بمصيبسا في سنة 148 لما استعصت عليهم قرطاجنة فذهب إليه سبيون الاميلي قائد الرومان مستغيثا، فانجده بجيش قوي أرسله مع قائد جيوشه أخيه غولوسة. كما استنجدوا به في حروبهم مع جمهورية نومنسة في الأندلس في سنة 134 ق.م فانجدهم بجيش كبير فيه اثنا عشر فيلا، وجماعة كبيرة من الفرسان وحاملي القسي وحاملي المقاليع، وأرسله تحت قيادة ابن أخيه البطل القوي يوغورطة فاستطاع يوغورطة بكفاءته الحربية وجرأته، وبشجاعة جيشه البري ومضائه، ان يفض قلعة نومنسة ويفتحها للرومان.

قال الأستاذ صفر:»وبعد سقوط نومنسة في صائفة سنة 133 شكر سبيون قائد الرومان يوغورطة وأكرمه أمام الجيش؛ وصرفه مبجلا معظما بعد ما سلمه رسالة خاصة إلى مصيبسا يمجد فيها أعماله !».[90]

وكان الرومان قد استنجوا في حروب كثيرة بمصيبسا فانجدهم، كما كانوا يشترون من الدولة البربرية الغنية الحبوب، والزيت، والعدد الحربية، والفيلة المدربة، وغير ذلك من غلال المغرب المخصب الغني، وسلعه الجيدة.

وكان الرومان اكبر زبون للدولة البربرية، تبعهم ما يحتاجون إليه بثمنه، وكانت علاقاتها بهم علاقة التاجر العزيز الأبي الغني بزبونه. ولم تكن الدولة البربرية تخضع للرومان، وتتمرغ تحت أقدامهم، ويرونها مزرعتهم يأخذون منها ما يشاءون، كما يقول الضعفاء المقلدون الذين يرددون دعاوي الأوروبيين التي تزري بأجدادهم، وتحتقر جنسهم الكريم الأبي.

قال الأستاذ صفر:»وبعد انتصار الرومان على قرطاجنة وتهديمها اكتفت رومة مبدئيا بالاستيلاء على ارض حكومة قرطاج افريقية) لان أبناء مصينيسا كانوا كلهم طوع أمرها، ورهن إشارتها ! وكانت تعتبرهم تحت ظلها وحمايتها، فلم تر فائدة في زيادة الاستيلاء على مملكتهم التي كانت تستغلها بدون عناء ولا كلفة ولا نفقات! وكانت تعتبرها تحت تصرفها مثلما كانت تصرفت في الملك غولوسة وفي قواته العسكرية فربحت بهم الحرب ضد القرطاجيين!».

90- مدينة المغرب العربي ج 1 ص 276 أولى بتونس.

ان هذه دعاوي أوروبية باطلة قد رددها الأستاذ صفر في أكثر من صفحة في كتابه وقد بينا خطأها في باب مضى[91] انه كلام لا يقوله إنسان يعرف كل أبواب التاريخ القديم للمغرب، ولا يصح ان يصدر من الأخ صفر الذي شرع بعد هذه الدعوى بصفحتين يشرح مصارعة الرومان العنيفة الطويلة المهولة للدولة البربرية ليصرعوها كي يستولوا عليها وعلى المغرب كله. ان الأستاذ قد ناقض نفسه بعد صفحتين، وأبطل ما دعاه من «ان الرومان لا يرون فائدة في زيادة الاستيلاء على المملكة البربرية لأنها تحت تصرفهم الخ»

لو ان الأستاذ رأى تاريخ المغرب الكبير كله تاريخه، ونواحي مغربنا كلها وطنه لاعتنى بأبواب تاريخ المغرب كلها عناية واحدة، وترك الأقلية الضيقة التي تجعله يوجز في الدول النوميدية والموريطانية ويشير إليهما، لا يدرس في عناية أخبارها ليدرك الصحيح الذي ينقله، والزائف الذي يطرحه ويرد عليه، ولا يراها دول أجداده فيسهب فيها كما فعل في الدول التي نشأت في افريقية. لقد عكف على الدولة البونيقية التي ثار عليها أجداده، وعلى الدولة الرومانية التي استعمرت وطنه وقتلته، فأسهب فيهما، لان الدولة البونيقية كانت في افريقية، والدولة الرومانية قد علمته مراجعة الفرنسية وأساتذته الأوروبيون ان يمجدها، ويعتني بها أكثر من عنايته بدول أجداده في المغرب الكبير !!

أننا نعجب بكتاب (مدينة المغرب العربي) ونراه اكبر يد يقدمها الأستاذ صفر إلى الأمة المغربي، والى المكتبة العربية، ولكنه قد جاء فيه بهنات ان اغتفرت لمؤرخينا في عهد الاستعمار الغاشم، فلا تغتفر لهم، ولا تجوز منهم في عهد الاستقلال الذي يوجب علينا أنصاف امتنا المظلومة، وتاريخنا المغبون.

وفاة منستابعل وغولوسة

وكان منستابعل وغولوسة أخوا مصيبسا يحملان معه أعباء الدولة، فتوفيا في سنة 145 ق.م بعد أربع سنين من ولايته الملك، فاستعاض عنهما بابنيه همصال، وآذربعل وابن أخيه يوغورطة. لقد كان يوغورطة شجاعا، داهية، كعمه غولوسة، فجعله قائد الجيش، واستعان بابنيه لا سيما هيمصال في الشئون السياسية، وكان يدربهما ليكونا خليفته في الملك، ولا يتغلب عليهما ابن عمهما يوغورطة فيستولي على المملكة كلها.

وقد ظلت الدولة البربرية الكبرى هادئة مطمئنة لم تقع بلبلة طول عهد مصيبسا

91 - انظر ذلك في صفحة 253 من هذا الجزء.

في الملك، وذلك لرضى البربر عنه، وإقبالهم على العمل، واشتغالهم بحظوظهم في الغنى والعلم والحضارة، وكل النعم التي أسبغتها عليهم دولتهم الكبرى.

وفاة مصيبسا ومدته في الملك

وفي سنة 119 ق.م أدركت مصيبسا الوفاة. فحزنت عليه الدولة، وأشفق شعبه من فقده. ورأى في الأفق غيوما تطلع على المغرب بعد مصيبسا فتعكر أيامه. انه سواد الرومان الذين لا يبغون للمغرب إلا سرا، فوضعوا أيديهم على قوائم السيوف وتمنوا ان يكون ملكهم بطلا جسورا كمصينيسا، فنظروا في العائلة المالكة فوجدوا يوغورطة فتنفسوا الصعداء.

وكان عهد مصيبسا في الملك تسعا وعشرين سنة. من سنة 148 إلى سنة 119 ق.م وعمره ثمانية وثمانين عاما. فمن الذي جاء بعده من الملوك الكبار الذين رفعوا رأس المغرب؟ انه يوغورطة! هذا البطل الذي سنوفيه حقه بعد ان نلم بابني مصيبسا اللذين فتحا باب المغرب للرومان. كيف وقع هذا ومتى؟

يوغورطة بن منستابعل 119-104 ق.م

نسبه الكريم ونشأته الحسنة

هو يوغورطة بن منستابعل بن مصينيسا. المؤرخين يسميه يوغرطة. وأنا اختار يوغورطة لأنه أفخم وأليق بشخصيته القوية.

وكان والد يوغورطة هو منستابعل. وقد عينه والده مصينيسا وزير للعدل في دولة مصيبسا. فتوفي في سنة 145 ق.م فترك ابنه يوغورطة في عنفوان الرجولة وفورة الشباب. وكان سن يوغورطة لما توفي والده حوالي سبع وعشرين سنة كما يدل رسمه الذي وضع أيام ملكه. ان رسمه أيام ملكه ينبئ بأنه في العقد الخامس أو أكثر. وفي آخر أيام الشباب. وعلى أبواب الكهولة.

وكان يوغورطة قد اعتنى والده بتربيته وتثقيفه، وعلمه الفروسية، وفنون الحرب، واعتنى به في كل نواحيه، ورباه تربية الحكيم الذي يعرف كل مواهب ابنه نواحيه، ورباه تربية الحكيم الذي يعرف كل مواهب ابنه فيستخرجها كلها بالأسلوب الحكيم في التربية، وينميها فيه كلها بالتدريب والتعليم.

وكان منستابعل معجبا بذكاء يوغورطة وبشجاعته وإقدامه، وطموحه، وبغيرته على قومه، وبالشخصية الحربية الاجتماعية القوية فيه. فأيقن انه هو الذي يخلف جده مصينيسا في صفاته، ويقوم بعمل كبير في المغرب، فغرس فيه أحسن المثل العليا، وأنشأه على الإخلاص لامته، وعلى الغيرة على دولته، وعلى الاعتداد بجنسه وعلى العناية بشئون المغرب كلها، وارضعه وهو طفل كره الرومان، ونقش في قلبه العداوة لهم، واراه نواياهم السيئة للمغرب، وأطماعهم فيه. فنشأ يوغورطة وهو مستعد ليكون كاهل أمته يحمل أثقالها، وعميدا للدولة ينوء بأحمالها، وسيف المغرب البتار يجالد أعداءه، ويمزق في التراب كل مستعمر يريد استعباد أمته، وإذلال الأمازيغ الأحرار.

شخصيته العظيمة

وكان يوغورطة شجاعا، جريئا، قوي الجسم، خفيف الحركة، فاغرم بفنون الحرب والفروسية فبرع فيه. فكان فارسا مغوارا لا يشق له غبار في الفروسية، مقاتلا ماهرا

لا يقف إمامه قرن في المعركة. فنضجت شخصيته الحربية القوية، وبدت فروسيته فأعجب به البربر والتفتت إليه الأنظار من كل أنحاء الدولة وعلقوا فيه آمالا كبيرة.

وكان يوغورطة إلى شجاعته وفروسيته، وقوة بنيانه، جميل الجسم، بهي القسمات، رائع الطلعة، مع قوة تنبئ ببطولته، فزاد جمال خلقته في جمال شخصيته وقوتها، فتفتحت له القلوب، وأقبلت عليه نفوس قومه.

وكان ذكيا بالغ الدهاء، واسع الحيلة، عليما بالوسائل التي تحقق له أغراضه وتحبط كيد الأعداء والمنافسين له، ويقضي بها على مناوئيه بدون معركة، ويصل بها أهدافه البعيدة بأهون سعي.

حرص يوغورطة على توحيد المغرب الكبير ومقته للرومان

وكان يوغورطة غيورا على البربر كلهم، يحب الخير لهم جميعا، ويعمل جاهدا ليكون المغرب كله قويا، سعيدا، متصفا بكل ما يورثه الصدارة بين الشعوب، ويبوئه المكانة العليا التي تليق بعرقه ازكي ، واستعداده الكبير.

وكان مخلصا لدولته كلها وللمغرب كله فأعطاهما حياته، وقصر عليهم جهوده، فأحبه البربر وأعطوه قلوبهم، ودانوا بزعامته ورئاسته.

وكان قوي الإرادة لا ترده العقبات، ولا تضعف تصميمه وإصراره المحن والصعوبات، يزيده الفشل قوة فيكر على مراده، والخيبة وإصرارا فيهجم على غايته، وإذا انسدت أبواب للنجاح في وجهه طرق أبوابا أخرى، لا ييأس ولا يفشل. ان الانهزام هو الموت عنده، فتراه يفر منه ويتنزه عنه !

وكان يوغورطة يكره الرومان ويمقتهم. لقد عاشرهم واختلط بهم، ودرس نفوسهم، فعرف طموحهم لامتلاك المغرب، وعلم إنهم كالوحوش الضارية، لا يتسلطون على امة إلا مزقوا أوصالها، وقتلوها، وصيروها فرثا في أحشائهم، وعظاما بالية تحت أقدامهم! وكان يعلم ان الرومان يتمنون ان يمزق المغرب إلى ممالك عديدة ليغزوا بينها العداوة والبغضاء، فتتقاتل، فيضعف بعضها بعضا للرومان، فيكروا عليها جميعا، فيفترسوها. وأيقن ان قوة المغرب في اتحاده، وجعله دولة واحدة متماسكة الأطراف.

ان الاتحاد هو القوة. فالرومان لم يكتسبوا قوتهم فيكونوا دولة كبرى إلا لما وحدوا ايطاليا وجعلوا ممالكها العديدة دولة واحدة.

ان المغرب كله وطن واحد، وجنس واحد، لا اختلاف بين أجزائه وسكانه. ان الاتحاد بين

المغاربة أسهل، وهو اوجب. فما لم يتحدوا لا يستطيعون الوقوف في وجه الرومان. ان الرومان الذين احتلوا افريقية هم الحية القتالة التي تساكن أهل المغرب في دارهم. لابد من القضاء عليها. لابد من تهشيم رأسها وقذفها في اليم! ان توحيد المغرب في دولة واحدة هو وسيلته الكبرى لبلوغ هذا الغرض لينجو من الاستعمار الروماني الأثيم. ان توحيد المغرب واجب عليه. لابد ان يحققه. ان أمته مقبلة على خطر عظيم يكمن لها في الولاية الرومانية. يجب ان يكون ملك دولته قويا شجاعا بالغ الدهاء. انه ليس في عائلة مصينيسا من تجمع فيه هذه الأوصاف كلها غيره. ان قيادة دولته ورئاستها واجب عليه. ان تبوأ عرش الملك بعد عمه هو الذي يفتح له المجال لخدمة المغرب وتوحيده، وحفظه من الرومان. كان هذا الشعور يملأ قلب يوغورطة وكان هذا الرأي عقيدة راسخة فيه، تؤثر في شخصيته، وتوجهه في سلوكه؛ كان توحيد المغرب وتنظيفه من الرومان هو المثل الأعلى الذي يستولي على نفسه، ويدفعه في أعماله.

إعجاب الملك مصيبسا بيوغورطة وتبنيه

وكان الملك مصيبسا معجبا بيوغورطة، فضمه إليه، ثم تبناه في سنة 120 وصار كأحد أبنائه من صلبه. وكان يستكفي به في مهمات الدولة، ويعتمد عليه في الشئون الكبرى، ويستشيره في المشاكل، فيقوم بكل هذه المهمات كما يريد مصيبسا. فرشحه للملك من بعده، ولكن لا بد من إشراك واديه هيمصال وآدربعل معه في الملك. أنهما ابناه لا يمكن حرمانهما منه.

إشراك مصيبسا لابنيه مع يوغورطة في الملك

وطغت غريزة الوالدية على مصيبسا، ورانت على عقله وحكمته، فلم يحسن الاختيار للدولة، ولم يتقيد بالقانون المعهود عند آل نارفاس في وراثة الملك. ان العادة ان يتولى الملك أسن رجل في العائلة. قد يكون الآسن الصالح للملك هو يوغورطة. كان يجب ان يترك له الملك، ولكن مصيبسا جعل الملك إرثا لعقبه، فأوصى به لابنيه، وضم إليهما يوغورطة. فصارا ابناه هما الأصل في وراثة الملك ويوغورطة فرع لهما.

وكان هيمصال وآدربعل ضعيفين لا يستطيعان مصارعة الرومان، والقضاء على دسائسهم في المغرب. سيكونان سببا لتقسيم الدولة إلى دولتين أو ثلاث دول. ان هذا ما يعمل له الرومان سيحققه هيمصال وآدربعل. ان الدولة لفي خطر. لابد من إنقاذها، ولا يكون ذلك إلا بمنع تقسيمها، وتوحيد الرئاسة فيها. فجد يوغورطة لتحقيق هذا الغرض.

تقسيم الدولة البربرية الكبرى

وكانت وفاة مصيبسا في سنة 118 فاجتمع ابناه ومعهما يوغورطة في مدينة دقة في الجناح الشرقي لدولتهم. فلم يتفق الثلاثة. ان الابنين يردان ان تكون الرئاسة لهما ويوغورطة تابع لهما، ويوغورطة يراهما ضعيف لا يستطيعان القيام بما يستطيع هو ان يقوم به. ان الرئاسة العليا يجب ان تكون له هو. فاختلفوا. ثم اتفقوا على تقسيم الأموال والدولة. فاخذ هيمصال وآدربعل نوميديا وتركا موريطانيا الشرقية ليوغورطة. فابتهج الرومان بهذا الصنيع، ولكن يوغورطة ساءه ورآه هلاكا للدولة، فعزم على التخلص من ابني عمه الضعيفين وتوحيد الدولة.

اغتيال هيمصال والهجوم على آدربعل

وكان هيمصال بعد ان قسم المملكة ذلك التقسيم قد آوى إلى مدينة (اثمدة) بجوار (دقة) فأقام فيها للاستجمام. فدس إليه يوغورطة من قتله، فاستراحت منه الدولة. فبقي آدربعل. وكان اضعف من هيمصال. وكانت قرطة هي عاصمة آدربعل فأسرع إليها ليتحصن فيها. لقد كان مصرع أخيه نذيرا بما سيقع له. لابد من سحقك أيها الضعيف الجبان لتستريح الدولة من شر التقسيم! فجهز يوغورطة في سنة 114 ق.م جيوشه في موريطانيا الشرقية فداهم آدربعل في عاصمته. وكان آدربعل جبانا. ففر إلى رومة يستغيث بها، ويسألها ان تعينه على حفظ مملكته، وترسل معه جيشا يحارب له يوغورطة! !

دهاء يوغورطة وإحباط كيد الأعداء

وكان يوغورطة قد أرسل وفدا منه إلى رومة. فاستمالوا بالهدايا جماعة من كبار مجلس الشيوخ الروماني. فلما وصل آدربعل إلى روما، فذرف الدموع في مجلس الشيوخ واستعداه على يوغورطة، كان يوغورطة قد افرغ مجلس الشيوخ من باروده يعد مستعدا للانفجار.

وكان الرومان بودهم ان يتدخلوا في شئون الدولة البربرية، ويهجموا على يوغورطة، ولكنهم يعلمون قوة الدولة البربرية، وكره البربر لهم. سينضمون كلهم إلى يوغورطة ليحاربوهم فيكون ذلك ليوغورطة. ان هجومهم على الدولة البربرية لا تحمد عقباه. انها لا زالت في شبابها وقوتها، لا يمكن التغلب عليها! فآثر مجلس الشيوخ الوسائل الهادئة للإبقاء على دولة آدربعل. ان انقسام المغرب وتشققه هو الذي سيخلق فيه الديدان

فيسقط! لابد من بقاء دولة آدربعل. فأرسل الرومان إلى نوميديا وفدا للصلح.

حكمة يوغورطة ودهاؤه

كان ذلك في سنة 114. فجمع الوفد بين يوغورطة وآدربعل . فرأى يوغورطة من الحكمة ان يرد إلى آدربعل مملكته نوميديا ليرجع إلى قرطة، فيبتعد عن الرومان الذين يمكن ان ينجدوه، فيقع في حرب لم يستعد لها. ان محاربته آدربعل تجر له حروب الرومان، فلابد من الاستعداد الكبير ليستطيع الوقوف في وجه الرومان أيضا. فرضي يوغورطة برجوع آدربعل إلى مملكته فرجع إليها إلى حين.

هجوم يوغورطة على آدربعل وقتله جزاء خيانته وإضراره بالدولة

لابد من سحقك أيها الخائن الجبان الذي يستنجد بأعداء دولته، ويفتح الأبواب الواسعة لدخول الذئاب العاتية إلى وطنه! ولابد من توحيد الدولة فإنها على خطر بالتقسيم! فعكف يوغورطة يستعد لحرب آدربعل ولحرب الرومان الذين قد ينجدونه. فنظم شئون مملكته، وعقد الصلات الحسنة مع جيرانه بوكوس أجليد[92] ملك موريطانيا الغربية، ثم أكد صداقته له بالمصاهرة، فتزوج ابنته، ليأمن ظهره ا حارب الرومان. ولما أتم يوغورطة استعداده، كشر لآدربعل وعزم على سحقه. لن تفلت مني هاربا إلى رومة أيها النعجة السمينة. لابد من سحقك في قرطة! فسار يوغورطة في جيوشه إلى نوميديا ليحتلها.

كان ذلك في سنة 112 ق.م بعد ثماني سنين من ولاية يوغورطة للملك. فهجم على نوميديا فاحتل غربها كله فقرب من قرطة، فخرج إليه آدربعل فوقعت بينهما معركة انهزم فيها آدربعل ففر هاربا إلى عاصمته قرطة فاعتصم بها.

وكانت مدينة قرطة شديدة الحصانة بأسوارها العالية، وحصونها الطبيعية فعصمت آدربعل. فحاصره يوغورطة حصارا شديدا، وصمم على استنزاله، وشدد الرقابة عليه لكي لا يفر إلى الولاية الرومانية في افريقية أو إلى الرومان. ودام حصار يوغورطة لآدربعل في قرطة عامين.

وكان في قرطة جماعة كبيرة من الرومان يحترفون فيها الصناعة والتجارة والفلاحة.

92 - أجليد كلمة بربرية معناها الملك. أجليد بالجيم وليس الاقليد كما ذكر الأستاذ صفر الذي نقل هذه الكلمة من الكتب الإفرنجية التي حرفتها.

وكانوا طابورا خامسا لدولتهم.[93] وكانوا يكرهون يوغورطة لقوته، ويؤثرون آدربعل لضعفه. إنهم الانداء التي يرسلها الرومان على جدران الدولة لتوهنها ثم يفيضون عليها، وهم مقدمة الغزو التي يخلق بها الرومان جيشا سريا في داخل الدولة ليسهل عليهم فتحها من الخارج. فتعصب هؤلاء العمال الرومانيون لآدربعل فلبسوا السلاح فوقفوا معه وراء أسوار قرطة يدافعون يوغورطة. وكانوا يذكون الحماس في آدربعل ويحثونه على الدفاع، ويمنونه بمسير جيش من روما فيفك عنه الحصار. فتصلب آدربعل في الدفاع، وطال صبره على الحصار.

وكان الرومان يقنون بان يوغورطة سيقضي على آدربعل فيوحد الدولة فيقع ما يخشونه. «فأرسلوا إليه في رفع الحصار والكف عن آدربعل مع ثلاث من النواب (وأبى ان يخاشنهم لكي لا يستفز روما للدخول في الحرب ضده) فاظهر لهم احترامه لروما، ولكنه لم يمتثل أمرها، فاستمر محاصرا لقرطة. فأرسلت إليه روما رسلا آخرين، وتعين الاجتماع بعوتيقة (عاصمة الولاية الرومانية بافريقية) فذهب إليها، وأوعز إلى جنوده بتشديد الحصار، ولما اجتمع برسل رومة اكتفى بإظهار احترامها أيضا».[94]

سبب تدخل الرومان في شئون الدولة البربرية

انه ليس للرومان أي سلطان على الدولة البربرية فلم تدخلهم في شئونها؟ ان آدربعل هو السبب. لقد ذهب إلى رومة فطلب حمايتهم فواعدوه. ان بقاءه في الملك وهو ضعيف سبب لإضعاف الدولة البربرية التي يرجون افتراسها. أما يوغورطة فهو شباب دولته وأجنحتها التي تطير بها فتنقض عليهم في افريقية، وتفتك بهم فتك البزاة بالحمام! يجب ان يفك الحصار عن قرطة ويبقى آدربعل في الملك. فأرسلوا وفدهم إلى يوغورطة وهم يرجون ان يتجهم له ويخاشنه، فيجعلوا ذلك سببا لحربه، ولكن يوغورطة بدهائه وحكمته لم يخاشن الوفد، ولم يجعل للرومان سبيلا عليه، فأحبط كيدهم له.

ان الموقف البارد الهادئ الذي وقفه يوغورطة مع الوفد الروماني. وتظاهره بالود والاحترام لروما، ليوحي إليها ويشعرها بان يوغورطة لا يراها جانبا في الخصام، ولا يرى لها أي حق في نوميديا، وأي سلطان على مملكة آدربعل حتى تحامى عنها وتأمره بالكف

93 - الطابور الخامس هو الجيش السري الذي يبثه العدو في الدولة التي يريد حربها للتجسس عليها، وتحطيم معنوياتها، وتخريب أجهزتها، وضربها من الخلف إذا اشتبك بها في الحرب.
94 - تاريخ الجزائر للميلي ج 1 ص 139 ط بيروت.

عن محاصرة ملكها. أنا أجنبية. ليس لها حق في التدخل في شئون البربر. فرجع الوفد الروماني خائبا إلى رومة. ورجع يوغورطة إلى محاصرة آدربعل. وكان قد شدد عليه الحصار، فمنع عن قرطة الأقوات وكل المواد. فأودى بأهل المدينة الجوع. وكان كثير منهم شيعة ليوغورطة فسئموا من الحرب، وضاقوا ذرعا بالحصار، والجأوا آدربعل لمفاوضة يوغورطة، والعدول عن عناده. وأيس آدربعل من تدخل الرومان لنقاده، فاستسلم إلى يوغورطة. ودخل يوغورطة قرطة فملكها، فتتبع الرومانيين الذين كنوا في قرطة طابورا خامسا لدولتهم فقتلهم. ان مستقبله دهور قراع مع الرومان. فليبدأ بالعدو الداخلي ليأمن ظهره إذا صارعهم. إنهم قد رفعوا السلاح ضده، وحرضوا عليه. لو اقتصروا عللا الكيد لنفاهم. ولكن وجدهم في السلاح يحاربونه مع آدربعل.

وكان يوغورطة يوقن بان آدربعل مريض القلب لا يمكن انم يصفو له. سيثور عليه إذا وجد الفرصة. سيثيره الرومان إذا حاربهم فيضر به من خلفه. انه عدو للدولة وخطر عليها. ثم انه قد ذهب إلى روما، واستنجد بالرومان، وهم أعداء المغرب، ففتح الأبواب للتدخل في شئونه، وفرض سلطانهم عليه ! ! ان هذه خيانة كبرى للدولة وللمغرب كله تستوجب العقاب، وليس عقابها إلا الإعدام.

وكان البربر على حنق وغيظ على آدربعل. إنهم يتمنون ان يلاقي جزاء خيانته ويلك أيها الحمل الذي يستغيث بالذئاب، ويدعو الصلال إلى وطنه! ان جزاءك شيء براق مهول في يد الجلاد إذا هوى به عل الأعناق. فأمر يوغورطة جلاده فأهوى بسيفه على عنق آدربعل، فاستراحت الدولة، واطمأن يوغورطة.

توحيد يوغورطة للدولة واعتناؤه بالقوة العسكرية

كان ذلك سنة 112 ق.م. وقضى يوغورطة ست سنين وهو يجاهد بتوحيد الدولة، فتم له ما أراد وأراده كل البربر المخلصين. فضم يوغورطة نوميديا وتوابعها من افريقية وطرابلس إلى موريطانيا الشرقية فصارت كلها دولة واحدة كعهدها أيام جده مصينيسا وعمه مصيبسا. وكان حد الدولة من الشرق خليج سرت الأكبر، ومن الغرب وادي ملوية، ولا يخرج عن دولته يوغورطة من افريقية إلا الولاية الرومانية.[95] وعادت للدولة البربرية الكبرى قوتها لما احتدت، وراجعها شبابها لما تولى يوغورطة رئاستها، ورأى الرومان في عينيها بريق الاعتزاز والاعتداد الذي يفيض من عيون الأسود الواثقة بنفسها. فخرجت قرطة وفرحت نوميديا كلها بانضمامها إلى دولة يوغورطة. وانتقل يوغورطة إلى

95 - انظر حدود الدولة البربرية الكبرى في الخريطة في آخر هذا الكتاب

قرطة فجعها عاصمة ملكه. فاخذ بأزمة الدولة في عبقرية وإخلاص ليندفع بها في طريق القوة والعظمة والرخاء التي تركها مصينيسا، ويحقق أمل مصينيسا، فيضم موريطانيا الغربية إليه، ويحتل الولاية الرومانية ويقذف بالرومان في البحر ويصبح المغرب كله دولة واحدة تقف سورا حديديا في وجه الرومان لا يستطيعون اختراقه، وتصير هي المنافس الأكبر القوي للرومان في البحر الأبيض المتوسط لا يستطيعون التغلب عليه بالقوة، فاعتنى بالجيش والأسطول، وأكد في نفوس البربر ما كان قد غرسه فيها جده مصينيسا من تمجيد القوة، والتجرع بها في الأخلاق، وفي الجيش والأسطول، وفي كل نواحي الدولة. وكان يوقن بان مستقبل البربر دهور نضال وحروب مريرة مع الرومان الجشعين المعتدين الأقوياء. فلفت أنظار شعبه إلى الناحية العسكرية، ومجد البطولة والفروسية وجعلها سببا للتقدم في الدولة والنباهة في المجتمع. ورسم على احد الوجهين في نقوده صورة لبطل بربري قوي ومعه جعبة سهامه، وكنانة ذخيرته الحربية، كما رسم في نقوده الفيل وهو اكبر عدة للحروب في ذلك الزمان. انه كالدبابة الثقيلة يغني غناءها في الهجوم والدفاع. ورسم في نقوده الفرس تمجيدا للفروسية، وتحبيبا لها إلى البربر.

كانت القوة هي شعار دولة يوغورطة. انه نزاع إلى الاعتناء بدولته في كل النواحي، ولكنه رأى بنظره البعيد شر الرومان والغزو الروماني يحيق بدولته فاعتنى بالقوة أكثر ومجدها، وعلم البربر حب القوة وتعظيمها والحرص عليها في كل نواحيهم في أخلاقهم، وأجسامهم، وفي كل نواحي حياتهم. واراهم بما رسم في نقوده من شعارات القوة مع رسمه ان الملك إذا كان هو الرأس الذي تحيا به الدولة فالجيش وأبطالها وقوتها العسكرية هي الجهاز العظمي الذي لا تحيا بدون سلامته وقوته.

وكان يوغورطة كما اعتنى بالناحية العسكرية في دولته قد اعتنى كثيرا من الاعتناء بنواحيها الأخرى. سيما الفلاحة. فقد اعتنى بها كل الاعتناء ورسم النخلة في نقوده تمجيدا للفلاحة وإشعارا للبربر بأنها سبب الغنى، وهي الأم الولود للنقود الكثيرة، سيما النخلة التي عرف البربر فضلها فاستكثروا منها في المغرب. وكانوا أكثر الأمم اعتناء بها. وقد ضرب الملك يوغورطة النقود باسمه، واعتنى بكل ما يسعد الدولة ويقويها. وكان ملكا عظيما، ومن الأفذاذ الذين أورثوا المغرب عزته فرفع رأسه.

كان أمل يوغورطة امن يوحد المغرب كله في دولة واحدة متحضرة، غنية قوية متحابة متحدة كل الاتحاد ان المغرب وطن واحد، وأمة واحدة، ودين واحد. فلم انقسامه إلى دول

تتناطح، وجهات تتنابذ، وتجزئته إلى أجزاء صغيرة يسهل على الأعداء ابتلاعها ! لابد من توحيد المغرب لينجو من خطر الرومان، ويسعد ويهنأ ويسود.

هذا هو أمل يوغورطة، وهو أمل مصينيسا من قبله. فابتدأ يستعد ويتأهب، ولكن الرومان كانوا بالمرصاد. فعاجلوه قبل ان يستعد. فجهزوا جيوشهم الجرارة فأرسلوا عليه. فوقعت في المغرب الزلازل الكبرى، فلمن تكون الدائرة يا ترى؟

حروب يوغورطة مع الرومان 111-105 ق.م

كان الرومان في النصف الأخير من القرن الثاني قبل الميلاد قد عزموا على القضاء على الدولة البربرية الكبرى التي تجاورهم، وتقف في وجوههم ليتأتى لهم غزو المغرب وامتلاكه. ولكن القضاء عليها بالسيف لا يمكن لأنها دولة قوية، شجاعة، واسعة الأرجاء، كثيرة الجند، والبربر كلهم سيهبون لقتالهم، وهم في الشجاعة، والثبات في درجة كبيرة لا يمكن معها إخضاعهم بالقوة. فعولوا علي الكيد لهذه الدولة ليضعفوا فيسهل القضاء عليها. ولما قسم أبناء مصيبسا تلك الدولة وتولى الملك في القسم الذي يجاورهم آدربعل الضعيف ابتهجوا وسروا. فرأوا في ذلك التقسيم ضعفا للدولة وفي ولاية آدربعل سببا كبيرا للهرم الذي سيسرع إليها، فيستطيعون التحكيم فيها، والقضاء عليها. وهب يوغورطة فوحد الدولة، وأعادها إلى حالها في عهد مصينيسا، وشمر لتوحيد المغرب كله ليكون دولة واحده فيغزو بها الولاية الرومانية في افريقية فيظهرها من الرومان، ويغلق المغرب في وجوههم إلى الأبد. فارتاع الرومان باتحاد الدولة، وتولي يوغورطة الملك فيها. وكانوا يعرفوا كفاءته وعبقريته، وما سيورثه للدولة وللمغرب كله من قوة وشباب فيتعذر التغلب عليه؛ ويعرفون عداوته لهم، وعزيمته فيهم. لقد قتل الرومانيين الذين وجدهم في قرطة، ولم يبال بطلب روما التي تضرعت إليه ان يكف عن مقاتلة آدربعل الذي طلب حمايتها فواعدته بها. ان يوغورطة عدو اللدود يجب القضاء عليه. وهو شباب الدولة وقوتها، فلا بد من القضاء عليه ليتأتي لهم أضعاف الدولة البربرية والقضاء عليها ! يجب ان يعاجلوه بالحرب قبل ان يستعد لحربهم. لا تزال جروح دولته بحروبه مع آدربعل دامية لم تندمل، ولا يزال الإعياء الذي أصابها في تلك المعارك يوهن قوتها، ولا يزال التصدع الذي أحدثته في دولته مصيبة التقسيم، وبلاء الفتن لم يرأب. إنهم إذا أمهلوا يوغورطة سنين أخرى، وأصلح شئون دولته ووحد المغرب كله تحت رايته لم يستطيعوه. فاتفق مجلس الشيوخ الروماني على محاربة يوغورطة وإزالته من الملك.

وكان النظام الجمهوري الذي تقوم عليه الدولة الرومانية يقضي بان تختار الدولة كل عام رجلين يقومان بالسلطة التنفيذية فيها. ومن وظيفتهما رئاسة مجلس الشيوخ، وقيادة الجيش. ويسمون الرجلين بالقنصلين.

وكان الرومان اكبر دولة في ذلك الزمان. وكانت دولتهم قوية شجاعة، كثيرة الجند، قد استعدت منذ زمن طويل لامتلاك دول البحر الأبيض المتوسط كله. وكانت قد استجمت من حروبها الكبيرة، واستطاعت ان تؤلف اكبر جيش من خيرة أبنائها المدربين الأقوياء، فأرسلته مع القنصل بستيا ليحارب يوغورطة.

كان ذلك في سنة 111 ق.م. فلم يشعر يوغورطة إلا والجيش الروماني يزحف من الولاية الرومانية إلى حدود دولته الشرقية، فأسرع إليه ليصده عن دولته، فوقع اللقاء حول مدينة باجة في الشمال الشرقي للدولة البربرية. فوقعت حرب كبيرة بين يوغورطة والرومان. انتهت بفوز الرومان وتغلبهم لأنهم كانوا أكثر استعداد لهذه الحرب من يوغورطة.

وكانت روما تريد من قائدها القنصل بستيا ان يضرب يوغورطة في المعركة الحربية ضربة كبرى ثم يقيده بشروط ثقيلة، وغرامات حربية باهضة توهنه، وتقيده ليقضوا عليه متى شاءوا. ولكن يوغورطة كان داهية. فما ان رأى كفة الرومان ترجح في المعركة وأيقن ان الغلبة لهم حتى سعى لإيقاف الحرب ليستعد الاستعداد اللازم لمواجهة الرومان في معركة أخرى، ويحفظ دولته من توغل الرومان فيها. فطلب الصلح من بستيا فأجابه إليه، لأنه يوقن انه يمكن التغلب على يوغورطة في جولة واحدة، وخاف ان ترجح كفة يوغورطة في الحرب إذا استمرت لما يعرف من شجاعة البربر واستماتتهم في الحروب.

وكان يوغورطة داهية قد عاشر الرومان وعرف نفوسهم، وعلم حبهم للمال وعبادتهم له، ودرس نفس بستيا قائد الرومان فعلم انه يستطيع رشوته بالمال، فيخفف شروط الصلح. فدس إليه البدر الثقيلة، والهدايا النفيسة، فأجابه لما أراد. فانسحب من تراب الدولة البربرية الذي احتله. وتساهل معه في شروط الصلح فكانت شيئا خفيفا لا يهبط يوغورطة ولا يضعفه. لقد اشترط عليه ان يدفع إليه أفيالا، وخيلا، وأنعاما وأموالا. فخرج يوغورطة من الحرب التي لم يستعد لها. وكان ينكسر فيه انكسارا كبيرا. ولجا بدهائه وحسن تصرفه، فعكف على جيشه يقويه، وعلى دولته يعدها للقراع الطويل.

وسمع مجلس الشيوخ الروماني بنجاة يوغورطة من قبضتهم، وانتصاره بدهائه عليهم، فعزموا على امتحانه وإدانته، لينقضوا الصلح الذي ابرمه معه بستيا، فيجددوا الكرة عليه. فنهض يوغورطة فخاض معركة ديبلوماسية كبيرة مع الرومان فانتصر عليهم انتصارا كبيرا. ما هي هذه المعركة وأين وقعت؟

انتصار يوغورطة على الرومان
في المعركة الديبلوماسية الكبرى

كان مجلس الشيوخ الروماني يتتبع أنباء جيوشه التي أرسلها لمحاربة يوغورطة بكل اهتمام. وكان يعلق فيها آمالا كبرى. ولما بلغه نبأ انتصار بستيا على يوغورطة، امتلأ سرورا، ورقص للبشرى. ولكنه لما عرف ان بستيا قد أوقف الحرب قبل ان يحتل باجة، وهي العاصمة في الناحية التي وقعت فيها المعركة، ويتوغل في الدولة البربرية حتى يطأ ارض نوميديا، وعرف شروط الصلح الخفيفة التي وضعها بستيا على يوغورطة، خابت آماله في بستيا في الجيش، فاستشاط غضبا، وشعر بالرشوة التي استمال بها يوغورطة قائدهم وقناصلهم بستيا، فقامت قيامة أعضاء مجلس الشيوخ، وعزموا على محاكمة بستيا، وعلى نقض الصلح، وتجديد الكرة على يوغورطة. فأرسلوا إلى يوغورطة يستدعونه إلى رومة ليناقشوه في الصلح. وكانوا يعتقدون انه سيمتنع عن القدوم فيجعلون ذلك سببا لإبطال الصلح، وشن الحرب عليه.

وكان يوغورطة لدهائه يتظاهر بالصداقة لروما، ويخفي عداوته الشديدة لها. وأشاع ان بستيا لم يوقف الحرب، ولم يخفف شروط الصلح إلا لعلمه بنواياه الحسنة للرومان، وصداقته القوية لروما. ولما استدعوه إلى روما عزم على الذهاب رغم ما في وقوعه في أيدي مجلس الشيوخ الروماني من خطر القبض عليه، وخطر اغتيال أعدائه الكثيرين له في روما. لقد رأى بذكائه ان امتناعه عن الذهاب إثبات للتهمة التي يحرص مجلس الشيوخ على إثباتها في بستيا الذي أحسن إليه، وخفف شروط الصلح عليه، ونقض لما يتظاهر به من صداقة للرومان وحسن نيته لهم. ان أعدائه من شيعته آدربعل ومن الرومان في روما كثيرون. سيجدون في امتناعه عن الذهاب الحجة لما يؤكدونه من عداوة يوغورطة للرومان، ويجد فيه مجلس الشيوخ سببا لإثارة حرب كبيرة عليه وهو لم يستعد لها بعد. وكان الرومان يرونه الخطر الكبير الذي يهددهم من المغرب. ان الذهاب إلى رومة هو ما تدعو إليه الحصافة والدهاء فركب يوغورطة في حاشيته فاقلع إلى روما.

وكانت أيدي يوغورطة التي سيصافح بها مجلس الشيوخ الروماني ما زالت تقطر بدماء أبنائهم الذين قتلهم في قرطة، وفي الحرب التي خاضها معهم في افريقية، ولكنه مع ذلك ذهب إلى عاصمتهم اعزل لا جيش معه، وهو واثق بأنه سينتصر بدهائه

على مجلس الشيوخ الروماني، ويحبط كيد كل أعدائه، وينال كل أغراضه في روما، ويرجع إلى عاصمته قرطة مكللا بالفوز الباهر.

ووصل يوغورطة إلى روما فوجد مجلس الشيوخ متأهبا لإدانته والقبض عليه، وإدانة بستيا والحكم عليه بالإعدام. ولكن يوغورطة كان قد عاشر الرومان فعرف نفوسهم. إنهم يعبدون المال، ويقدسون بريق الذهب ! ان بدر الدنانير البربرية الوهاجة هي الدلاء التي ستطفئ النار المتأججة عليه. فاتصل بنائب من نواب الشعب في مجلس الشيوخ اسمه بابيوس، وكان كثير الأتباع في المجلس، ذا لسن ونفوذ، فرشاه بمال كثير، وبهدايا نفيسة من طرف المغرب، فواعده بالدفاع عنه في مجلس الشيوخ، وسد كل الأبواب التي سيحرجه بها أعضاؤه، والوقوف بجانبه في كل الأزمات التي تعترضه في روما.

وانعقد مجلس الشيوخ. فدخل يوغورطة في لباسه الملوكي، وفي هيئته المهنية، وهو رافع الرأس، مشرق الطلعة، لا يهاب احد ولا يخاف شيء. فابتدأ الأعضاء المتصلبون المتضرمون الكلام ليقدوا عليه صدور المجلس، ويثبتوا فيه عداوة روما، ورشوة لبستيا، فيقيض الرومان عليه، فانبرى لهم بابيوس، فدافع عن يوغورطة، وقال انه صديق روما، لقد حارب بجانبها في اسبانيا، وهو الذي فتح للرومان مدينة نومنسة.[96] لولاه ما فتحوها، وما انتصروا ذلك الانتصار الكبير ! ان بستيا قد أحسن صنعا بمجاملة هذا الصديق ! ان محاربة الملك يوغورطة غلط من روما قد أدركه بستيا لما وصل المغرب فأوقف الحرب، وان ما عرفه من حسن نوايا الملك يوغورطة للرومان هو الذي جعله يخفف شروط الصلح عليه. ان بستيا قد أحسن صنعا بذلك ولم يفعل إلا ما توجبه مصلحة الدولة العليا. ان الإخلاص والنصح لروما هو الذي دفعه لإتيان ما أتى ! ان يوغورطة صديق الرومان. لولا صداقته وحسن نيته ما حضر إلى عاصمتنا. ثم وجه الكلام إلى يوغورطة قائلا: لا تجب عن الأسئلة التي وجهها إليك المجلس. إنما يستجوب المتهم، ويناقش المذنب. أما أنت فبرئ وعار على روما ان تعامل ضيفها الكبير معاملة المجرمين ! [97] فاستطاع بابيوس بدفاعه وكثرة أتباعه في المجلس ان يشل مجلس الشيوخ فلم يدن يوغورطة بشيء. فخرج منه يوغورطة كما دخل شامخ الرأس، مشرف الوجه بالانتصار الذي حازه على شيوخ روما، وصفوتها المختارة. وأحس شيوخ روما بيوغورطة يمرغهم في التراب، ويمشي بنعليه على رؤوسهم ! فخرجوا من مكان الاجتماع منكسين كاسفين.

96 - انظر قصة هذا الفتح في ص 264 من هذا الجزء

97 - قال المؤرخون/ ان بابيوس دافع عن يوغورطة ولم يبينوا دفاعه. ولا نرى الدفاع يخرج عن هذه المعاني وهذه الحجج لذلك اجزنا إجراءها على لسان بابيوس.

قضاء يوغورطة على مصيفا الذي يخون دولته

وكان في روما مصيفا بن غولوسة. وهو من شيعة آدربعل. وكان يثير الرومان على يوغورطة، ويسألهم ان يبعثوا جيوشا للقضاء عليه، ليتولى هو الملك فيكون لهم كما يريدون في المغرب. وكان الرومان يدخرونه لوقت الحاجة. فدس إليه يوغورطة من قتله في قلب روما. فازداد حنق الرومان على يوغورطة. ان يقينهم ان يوغورطة هو الذي قتله، ولكنهم لا يجدون دليلا يثبت جريمته. من يدري. لعل يوغورطة قد احتج وثار واتهم الرومان بقتل ابن عمه، فخاف الرومان من بقاء هذا الداهية الجرئ في روما. فد يكيد لهم كيدا يعرض دولتهم للخطر، فأمروه بالخروج من روما. فخرج يوغورطة من روما. وقبل ان يغادرها نظر إليها وعلامات الاحتقار والازدراء تفيض من وجهه فقال قولته المشهورة:»روما ! مدينة مباعة لمن يريد شراءها !» فركب سفنه ورجع إلى المغرب فعكف على جيشه يعد للملاحم الكبرى، وعلى شعبه يهيئه للصراع الطويل. ان الرومان لا يمهلونه طويلا. ثم وقعت الحروب الهوجاء مع الرومان فانتصر عليهم يوغورطة انتصارا رائعا ومرغهم في التراب؟ ومتى وقع ذلك، وفي أي مكان؟

تجديد الحرب بين يوغورطة والرومان وانتصار يوغورطة عليهم

كان مجلس الشيوخ الروماني شديد الحنق على يوغورطة، سيما بعد ما ارتكب فيهم في روما. لقد افلت من قبضتهم بدهائه، وقتل صنيعتهم مصيفا وهو في حجرهم وفي عاصمتهم. انها جرأة كبيرة لا تحتملها الكبرياء الرومانية. وهاهو يعود إلى دولته ليستعد لحربهم، ويهيئ المغرب للانقضاض عليهم. لابد من معاجلته قبل ان يستعد. ان إمهاله سنين يجعله راسخ العروق لا يستطيعون اقتلاعه. فأمروا جيشهم الكبير المرابط في الولاية الرومانية بافريقية بالهجوم على يوغورطة، وعينوا لقيادته القنصل البينوس. وهو قائد كبير من قوادهم يثقون بنزاهته وإخلاصه لروما. لا يستطيع يوغورطة ان يشتريه بالمال.

كان ذلك في سنة 110 ق.م. بعد قليل من وصول يوغورطة من رومة، فزحف البينوس بجيشه الكبير على نوميديا فوجد يوغورطة في انتظاره. فوقعت حرب عنيفة بين الطرفين ابدي فيها الجيش الروماني شجاعة ومهارة في القتال. وكان البينوس ماهرا في قيادته وفي خططه، ولكن البربر كانوا أشجع، وكانوا يحامون عن دولتهم ويوغورطة

كان امهر في القيادة، وأقوى في الهجوم. فمال على الجيش الروماني فهزمه شر هزيمة، وشتت شمله، فولى الأدبار إلى معاقله في الولاية الرومانية.

وكان مجلس الشيوخ والرومان كلهم يرقبون سير المعركة. فعلموا بهزيمة جيشهم فازداد احتدامهم على يوغورطة. فعينوا قائدا ثانيا لحربه كان أقوى وأكثر كفاءة من البينوس هو أخوه الوس.

وكان ذلكم في سنة 110 أيضا. فنظم الوس جيشه ونفخ فيه روحه، وأذكى فيه الشجاعة الرومانية الممتازة، وصمم ان يثار لأخيه الذي عفره يوغورطة بالهزيمة. وسار نحو نوميديا وهو مصمم ان يهزم يوغورطة، ويحتل مدينة (ستول) التي اتخذها مركزه، وهي قرب مدينة فالمة. فوجد يوغورطة في انتظاره، فدارت بينهما قرب (ستول) معركة فظيعة ابدي فيها الجيش الروماني كل شجاعته ومهارته، واظهر فيها الوس عبقريته في القيادة، وجهاءه وشجاعته الكبرى. فكر عليه يوغورطة في جيشه البربري الباسل فهزمه شر هزيمة، وقتل من جنوده مقتله كبرى، ومزق جيشه شر تمزيق، وأحاط به جند يوغورطة فرأى الوس الموت الأحمر يهجم عليه من كل جانب، فطلب إيقاف الحرب، واستسلم هو وجنده إلى يوغورطة.

عزة الرومان وشموخهم وإذلال يوغورطة لهم

وكان الجيش الروماني لشجاعته، ومهارته في الحرب، وإخلاص رجاله مظفرا في حروبه التي خاضها مع دول البحر الأبيض المتوسط، وفي وسط أوروبا وآسيا لم يعرف الانهزام والاستسلام ! وكانت تربيته الرومانية القوية، وعزته القومية، وتعوده الانتصار على الأمم في حروبه قد أورثته شموخا، وعلمته ان يكون دائما رافع الرأس لا يطأطئ لأحد.

وكان يوغورطة يعرف فيهم وفي دولتهم ذلك الشموخ ! وكان يعلم ان ارتفاع الرومان في حبل المشنقة أسهل عليه. من الركوع أمام عدوه! فأراد ان يظهر لهم عزة الأمة البربرية، ويؤد بهم على شموخهم وكبريائهم على الناس! فنصب حبلا طويلا على العرض، وقربه من الأرض فوقف هو وجيشه بجانبه في مكان عال فأمر الوس وجنده ان يمروا من تحت الحبل. فكانوا يمرون إمامه عزلا من السلاح، والذلة تعلوهم، فإذا وصلوا إلى الحبل طأطأوا ليمروا من تحته، فتكاد جباههم تمسح الأرض من شدة الانحناء! وكان هذا الركوع وذلك الاستعراض اشد عليهم من الذبح بالشفرة الكليلة، والحرق بالنار الضعيفة! وبعد ان أدب يوغورطة الوس والجيش الروماني، وأمره ان يغادر دولته سريعا إلى الولاية الرومانية، واجله عشرة أيام. وأبقى جيشه مجردا من السلاح، مهانا تعلوه

الذلة والصغار!وكان مجلس الشيوخ الروماني كلهم يرقبون سير الحرب مع يوغورطة. فبلغتهم أنباء هزيمتهم الشنعاء، ورأوا قائدهم الكبير وجيشهم ينكسون رؤوسهم ليوغورطة، ويرتكب فيهم يوغورطة ما لم يعهدوا مثله في كل حروبهم فثارت ثائرة الرومان الأقوياء، واقسموا ان ينتقموا من يوغورطة، ومن البربر، وان يرسلوا عليه من جيوشهم الجرارة ما يضمن لهم الفوز عليه!

وكان الرومان امة حربية، وأقوى دولة في ذلك الزمان. فتفرغت لحرب يوغورطة، وأرسلت عليه جيوشها الجرارة. فماذا وقع ليوغورطة بطل المغرب مع الرومان؟

الهجوم الروماني الكبير على يوغورطة

حروب ميتلوس مع يوغورطة

كان الرومان يتضرمون غيظا، ويتقدون حنقا على يوغورطة. ان رؤوسهم لا تعرف الإنحاء، ونفوسهم لا تطيق الخضوع، سيما في ميدان القتال الذي يفتخرون بالتفوق فيه. إنهم أقوى امة حربية في ذلك الزمان! لقد حاربوا أما أكثر عددا من البربر، وملوكا أوسع دولا من يوغورطة، فهزموا تلك الأمم، واخضعوا أولئك الملوك. فها هو يوغورطة يهزمهم، ويسومهم الركوع والإنحاء تحت حبل المذلة، وها هي الأمة البربرية الباسلة تمرغهم في التراب. ان كل رئيس من رؤساء الرومان، وكل حر أبي من امة الرومان الأبية، ليحس بذلك التراب الذي مرغ فيه يوغورطة جنودهم تغص به عيناه فتفيض عبراته من شدة التأثر والإباء! لابد ان يسترد الرومان هيبتهم في الدنيا! ان الأمم التي تخضع لهم سترفع رءوسها وتثور عليهم إذا دامت رءوسهم معفرة، ويوغورطة يركبهم بالهزائم في المغرب. إنهم إذا لم يعالجوه بحرب واسعة عاصفة فانه سيزحف على ولاية الرومانية ويقذفهم في البحر، ويطردهم من افريقية. فيومئذ تتجرأ كل مستعمراتهم فتثور عليهم، ويومئذ يفقدون في العالم تلك الهيبة التي يخضعون بها الشعوب. لابد من التغلب على يوغورطة والقضاء عليه! انه بطل صنديد، وداهية عبقري، والبربر امة شجاعة باسلة. فلا بد من التفرغ لحربها، وإرسال جيوش قوية تكون أضعاف جيش يوغورطة، تحيط به، وتتكاثر عليه. ولابد من إرسال قائد بل قواد دهاة يصولون على يوغورطة بدهاء كدهائه، ويشهرون عليه سلاح الكيد البارع، ويحسنون منازلته في الحروب النفسية.

اختيار القنصل ميتلوس لمحاربة يوغورطة

وجهز مجلس الشيوخ جيوشه الجرارة، وأرسلها تحت قيادة ابرع قواده وهو القنصل ميتلوس. وأرسل معه القائد الكبير ماريوس. فسار ميتلوس حتى نزل في عوتيقة

عاصمة الولاية الرومانية في افريقية. فوجد فيها الجيش الروماني قد قتلته الهزائم، وخنق الشجاعة والثقة بالنفس في صدورهم ذلك الحبل الذي نصبه يوغورطة فركعوا على أقدامه تحته. وصاروا بعد ان مرغهم في التراب كالشعلة التي تدسها في التراب فتنطفئ! وكان يوغورطة غولا يرهبهم شبحه ويرعبهم في اليقظة والمنام. فتمردوا قوادهم، وصاروا يهربون من الجيش خوفا يكلفوا بمحاربة يوغورطة. فعمد ميتلوس إلى هذا الجيش الميت فأحياه، ونفخ فيه الثقة بالنفس، وأورثه الأمل في النصر بما جاء به من الجيوش القوية من روما، فاختلطت بالجيش المنكسر فأفاضت عليه من قوة نفوسها. ونظم ميتلوس جيوشه أحسن تنظيم، وقسمها قسمين، قسم يقوده هو وقسم يقوده ماريوس. فسار إلى محاربة يوغورطة.

وكان ميتلوس من أسرة ما جدة، وتولى منها قبلة ستة قنصل رأسوا الدولة الرومانية. وها هو يقع اختيار دولته عليه قنصلا يرأسها ويقود جيوشها. وكان قائدا داهية، مخلصا لدولته، قد صمم على استرجاع هيبتها والانتصار على يوغورطة.

وكان يوغورطة يعرف ميتلوس فاستعد لحربه. ان الجيوش الرومانية أضعاف جيشه، ولكنه مع ذلك صمم على القتال. فأسرع من نوميديا، فوقع اللقاء بينه وبين الرومانيين في جنوب مدينة (باجة) قرب وادي تاسة.

وكان ذلك في شهر أغسطس من سنة 109 ق.م. وكان ميتلوس قد اخترق الحدود الشرقية الشمالية للدولة البربرية فاحتل باجة وعاث فيها فسادا. فوقع اللقاء بينه وبين يوغورطة في جنوب باجة فوقعت معركة رهيبة بين البربر والرومان، فقتل يوغورطة من جيش ميتلوس عددا كبيرا. وكان جيش ميتلوس أكثر عددا وكان قويا باسلا، فاستطاع ان يحوز النصر. وكانت الغلبة له في هذه المعركة. فتقهقر يوغورطة في نظام نحو الجنوب الغربي فعسكر في شمال تبسة فاستعد هناك لمحاربة الرومان. وكان قد قسم جيشه قسمين تحت قيادته هو وقسم تحت قيادة قائده بوملكار.

إيثار يوغورطة لحرب العصابات في مقاتلة الرومان

فزحف ميتلوس في جيوشه الجرارة فاحتل مدينة سيكا «الكاف» وغيرها من المدن في طريقه إلى يوغورطة، فوقع اللقاء في شمال تبسة، فاشتعلت معركة رهيبة بين يوغورطة وميتلوس. فرأى يوغورطة ان جيش الرومان أضعاف جيشه في العدد. وانه لا يستطيع مصافته، وخوض المعركة الفاصلة معه. فعزم على حرب العصابات، وأسلوب الكر والفر الذي يتقنه البربر، ويليق بالجيش إذا داهمته جيوش أقوى منه. فتقهقر إلى

جنوب تبسة، ليجتذب جيش ميتلوس إلى الصحراء التي لا يطيق الرومان حرها ولا يعرفون مسالكها. ان هذه الحروب العنيفة لتقع في آخر الصيف وفي أول الخريف، في شهور لا يطيق فيها الرومان حر الصحراء. وفي الصحراء الجيتوليون الأشداء الذي يعينون يوغورطة على الرومان، فيكر عليهم بعد ان يكون الحر قد أرهقتهم فيهزمهم ويقصم ظهورهم بضرباته. فتنبه ميتلوس إلى كيد يوغورطة فلم يتبعه. وعكف على شمال تبسة بفتح مدنها، وينكل بالبربر فيها، ويفسد مزارعهم، ويتلف أموالهم، ويهتك حرماتهم، ويأتي كل ما يسوله الحقد والضغينة والغطرسة له، ليشفي غليله من البربر، ويستفز يوغورطة فيخوض معه المعركة الفاصلة في المكان الذي يختاره هو.

وكان يوغورطة يشن حرب العصابات على ميتلوس، فيكر على جيشه فيفتك به، حتى إذا استعد له وجد يوغورطة قد اختفى. فكان يوغورطة يصيب من الرومان ولا يصيبون منه.

واستكلب الشتاء، وكثرت الأمطار، وأحس ميتلوس بالإعياء، وعلم ان يوغورطة لا ينازله في معركة فاصلة، وانه سيواصل عليه حرب العصابات، ويضعف حماس جيشه بضرباته الخاطفة، وبطول الزمان الذي يقضيه في مكانه ثم لا يفوز بنصر عليه، وكان يوغورطة يغتنم فيه الفرصة كلما وجدها، فيهجم عليه هجوما سريعا فيصيب منه ثم يختفي. فأيقن ميتلوس ان الانتصار على يوغورطة وهو يشن عليه حرب العصابات، ويعتصم بالجبال الوعرة التي لا يستطيع اقتحامها، والصحاري المجهولة التي لا يقدر جيشه على الحرب فيها، والعيش في رمالها وشعابها؛ ان انتصاره عليه وهو يحاربه بأسلوب العصابات لا يمكن، فعزم على الكيد له. فرجع إلى الولاية الرومانية. وأرسل إلى بوملكار قائد يوغورطة من سوس له بمن أراد.

كان ذلك في سنة 108 ق.م. وكان بوملكار قائدا بربريا من أركان يوغورطة في حربه، ومن مستشاريه، يثق به، ويسكن إليه، ويعتقد فيه الصفاء والإخلاص، والغيرة على الوطن. وكان بوملكار طموحا يحب الرئاسة والتقدم. فأرسل إليه ميتلوس يعده بالملك وبدولة يوغورطة ان أعانهم على اغتيال يوغورطة أو القبض عليه. فمال بوملكار إلى متيلوس، وخان ملكه، وتنكر لدولته، فشرع في الكيد ليوغورطة في الخفاء ليوقعه في قبضة الرومان. فشعر به يوغورطة فقتله، وخلص الدولة من شروره.

فظائع الرومان في المدن البربرية وفي المدنيين العزل

وكان الرومان قد فتحوا مدنا كثيرة في الجناح الشرقي للدولة البربرية، في افريقية

وفي نوميديا الشرقية. وكانوا يقتلون الأبرياء، ويهتكون الحرمات، ويأخذون الأموال، ويفسدون المزروعات، ويطلقون أيدي العيث والتخريب في أموال البربر، ليرهبوا البربر، ويخضعوهم. ولكن البربر لا يخضعون. لا يكاد جيشهم يفارق المدينة المغزوة حتى تثور المدينة، وتنكل بمن بقي فيها من الرومان، وتظهر ولاءها ليوغورطة، والاستعداد للنضال معه، ومدافعة الرومان المعتدين على الوطن.

وكانت مدينة باجة هي عاصمة نواحها في الشمال الغربي لافريقية. وكانت من المدن الأولى التي احتلها الرومان من الدولة البربرية، وعاثوا فيها فسادا، فصارت ترقب الفرصة للثورة والانتقام. «وفي شتاء 108 اغتنم أهلها فرصة الاحتفال بعيد الآلهة سيريس وهو عيد الزراعة، ففتكوا بجميع الرومانيين وأهلكوهم عن أخرهم. ولما بلغ ذلك متيلوس أسرع إلى تلك المدينة بنهبها»[98] ونكل بأهلها وأغرقها في الدماء. وهزم على تتبع يوغورطة لعله يلتجئ إلى حصن فيحاصره فيه،ولعله ينازله في معركة فينتصر عليه. وكان يوغورطة متحصنا في جنوب افريقية، يغير من هناك على الرومان فينهال عليهم بضرباته. وبعد ان فعل ميتلوس بباجة ما فعل، زحف بجيوشه على جنوب افريقية، إلى ان أدرك يوغورطة في مدينة (تالة) وكان قد اتخذها معسكره، وكانت مدينة كبيرة حصينة، وهي غير تالة المعروفة اليوم في جنوب تونس ولكنها في نواحها، فحاصر ميتلوس تالة، وأحاط بها بجيوشه، وشدد الرقابة عليها لكي لا يفلت منها يوغورطة، ودام حصاره أربعين يوما، ثم استطاع ان يفتح المدينة، ولكنه لم يجد فيها يوغورطة ولا أمواله ولا أولاده. لقد خرج، بدهائه من المدينة في كل أثقاله ولم يشعر به الرومان. فهب ميتلوس المدينة، وأغرقها في الدماء، ثم هدمها وأزالها من الوجود لكي لا يتحصن فيها يوغورطة. ثم نظر يبحث عن يوغورطة فوجده في الصحراء يتمنى ان يتبعه إليها، ولكن ميتلوس خاف من تتبع يوغورطة آثر ان يحاربه في الشمال. فزحف في سنة 108 ق.م. على نوميديا الشرقية والوسطى حتى وصل إلى قرطة فاحتلها واتخذها مقرا له ولجيشه.

وكان يريد ان يستفز يوغورطة ليخرجه من الصحراء، ولكن يوغورطة كان داهية، فلم يخرج من الصحراء، فبقي فيها يعد العدة ليكر على الرومان.

استنجاد يوغورطة بالجيتوليين وبصهره بوكوس وزحفه على الرومان

وكان يوغورطة يعلم ان شمال المغرب لا يعصمه من الرومان. إنهم بجيوشهم الجرارة

98 - مدينة المغرب العربي ج 1 ص 280 ط أولى بتونس.

الباسلة هم الأقوى ولكن الصحراء تعصمه. فبوده لو اجتذب الرومان إليها ليكر عليهم بإعانة الجيتوليين الشجعان فيقضي عليهم. فالتجأ إلى الصحراء بجنوب افريقية فاعتصم بها. فاتصل برؤساء القبائل البربرية في جيتوليا فدعاهم إلى محاربة العدو فأسرعوا إليه برجالهم الأبطال. ثم إلى صهره بوكوس الأول ملك موريطانيا الغربية، فخوفه من شرور الرومان على المغرب، وأوقفه على نواياهم السيئة لدولته، وآثار فيه وفي أهل دولته الحماس والغيرة، فهبوا لمدافعة العدو ومجالدته، وإعانة يوغورطة في القضاء عليه.. فسار جيش بوكوس فانضم إلى يوغورطة. فكثر جنده، ووجد القوة العسكرية التي يستطيع بها مقابلة الرومان.

وكان يوغورطة قد اتخذ في سنة 108 مدينة قفصة معسكره بعد ان هدم ميتلوس مدينة تالة التي كان متحصنا بها. فجهز جيشه فسار من مدينة قفصة في جنوب افريقية الغربي ليهاجم الرومان في نوميديا. فسمع ميتلوس بمسيره فخرج من قرطة فنزل مكانا يستطيع فيه الدفاع.

عزل ميتلوس وولاية ماريوس قيادة الجيش الروماني بالغرب

ودخلت سنة 107 وكان ميتلوس يتهيأ لخوض المعارك الطاحنة مع يوغورطة في نوميديا. وكان قد أمضى حوالي سنتين وهو يحاول التغلب على يوغورطة والانتصار عليه في معركة حاسمة فلم يستطع، فاستعصم الرومان قائدهم وقنصلهم ميتلوس، فانتخبوا في سنة 107 زميله جايوس ماريوس قنصلا وقائدا لجيشهم في المغرب. فسمع ميتلوس فرجع مغضبا إلى رومة قبل ان يصل يوغورطة إليه.

وكان ماريوس اقل ذكاء من متيلوس، ولكنه أكثر جرأة وإقداما، وخبرة بالحروب. فاختاره الرومان لمقارعة يوغورطة، فأرسلوا جيشا كبيرا. فوصل نوميديا فتسلم أزمة القيادة، واستعد لملاقاة يوغورطة.

حروب ماريوس مع يوغورطة

إفساد ميتلوس لقلب بوكوس على يوغورطة

كان بوكوس بعد ان استجاب لمحاربة الرومان، وأرسل جيشه إلى يوغورطة قد داخله ميتلوس فواعده وأوعده، وأفسد قلبه على يوغورطة ! فشعر يوغورطة بذلك ففت في عضده. فخاف ان يشتبك بماريوس في معركة كبرى فيضربه بوكوس من خلفه، ويوعز

إلى قواد جيشه فينهزموا عنه في إبان المعركة فينتصر عليه الرومان.فلم يثق بقوة بوكوس العسكرية، فرجع إلى حرب العصابات في مقارعة ماريوس .

ونزل ماريوس في عوتيقة بما معه من الجيش في سنة 107 فانضم إليه الجيش الروماني الكبير في افريقية فبلغ جيشه ألف جندي من خيرة الجيش الروماني المدرب، فزحف بهم نحو نوميديا، ولكن لم يكد يصل حدود نوميديا الشرقية حتى مال نحو الجنوب الغربي لافريقية، فداهم (قفصة) التي جعلها يوغورطة معسكره، وكان يوغورطة غائبا عنها في نوميديا فاحتلها، وتكل بأهلها، واخذ ما فيها من أموال يوغورطة وذخائره، ونهب ما فيها من أموال البربر احرقها فأكلتها النيران، فصارت لا تعصم من يأوي إليها، فانتقل يوغورطة إلى موريطانيا الشرقية وجعل معسكره محل أثقاله في حصن تاوريرت[99] وهو حصن في هضبة عالية في غرب موريطانيا الشرقية.

وزحف ماريوس في جيشه الجرار حتى وصل نوميديا الوسطى فوجد يوغورطة في انتظاره، فلم يشتبك به يوغورطة في معركة كبرى بلا آثر ان يتبعه ويرهق جيوشه بحرب العصابات في الجبال والأودية الوعرة، وان يجتره إلى الناحية الغربية ليثير بوكوس للحرب معه في صدق وإخلاص إذا رأى الرومان يقربون من دولته. فكان ليوغورطة ما أراد. فكان يهجم على الرومان كلما وجد الفرصة فيقتل منهم، وينكل بهم، ثم يلوذ بالجبال الوعرة. وحارب الرومان الذين يتتبعونه في الزاب، وجبال الحضنة، وفي أمكنة كثيرة من موريطانيا الشرقية. ان الرومان أقوى منه وأكثر جندا، ولكنه لا يستسلم ولا يهن ! ان الصحراء هي ملجؤه الحصن سيعتصم بها، ويوالي منها ضرباته للرومان. يجب ان يقاتل الأعداء في كل ناحية من نواحي المغرب ان الاستسلام جريمة ! لابد من دحرهم وتطهير المغرب منهم. ان البربر معه، سيهبون كلهم لنصرته إذا وصل وقت الهجوم على الرومان.

ان الرومان أجانب في المغرب، وهم يحاربون في وطن لا يعرفون دروبه ومسالكه الجبلية. سيجد فيهم فرصته فيضربهم الضربة القاصمة. ثم ان الرومان يضعفهم ويوهن قواهم. سيكر عليهم فيهزمهم شر هزيمة. هذا ما عزم عليه يوغورطة فثبت في الميدان فلم ينهزم.

استنجاد يوغورطة ثانية بيوكوس

99 - آوريرر بسكون الواو في البربرية للجبل وهو مذكر. وتاوريرت للجبل الصغير أو الهضبة العالية وهو مؤنث.

وقرب ماريوس من وادي ملوية. وهاجم حصن تاوريرت فاحتله، واخذ ما فيه من أموال يوغورطة وذخائره الحربية. وأمسى على حدود موريطانيا الغربية دولة بوكوس. فأعاد يوغورطة دعوته إلى محاربة الرومان وواعده على النصرة بثلث نوميديا. ان بوكوس تحركه أطماعه لا غيرته وشجاعته. فما زال به حتى أعداه بشجاعته، وكساه بوجدانه، فاستجاب له، وغلت مراجله، فجهز جيشه وأرسله إلى يوغورطة فكثر به جند يوغورطة، فهجم على الرومان.

كان هذا الهجوم في سنة 106 بعد مرور نحو عام من قيادة ماريوس للرومان في المغرب. فوقعت بين الجيشين معارك طاحنة، وقتل البربر من الرومان مقتلة كبرى، ونثروا أشلاءهم في ميادين الحرب، وجللوا الساحة بجثث قتلاهم، وقتل الرومان من البربر كثيرا، ودامت المعركة يوما كاملا، وأحاط البربر بالرومان فكادوا ان يهزموهم. ولما وصل الليل أوقفوا الحرب. فنظم الرومان صفوفهم، ولم يكد يشرق الصباح حتى كان الرومان هم الذين يهجمون على البربر الذين وثقوا بالنصر وانهزام الرومان فغفلوا عن عدوهم، ولم يبقوا على أهبتهم الأولى لمحاربته. فوجد الرومان البربر عللا غير تعبئة فاخترقوا جموعهم، وهجموا على معسكرهم، فاعملوا فيهم السيوف، فقتلوا منهم عددا كبيرا. فانهزم البربر وانتصر الرومان.

أرى ان هذه المعركة لم يتولى قيادتها يوغورطة، بل احد قواده أو قواد بوكوس. ان يوغورطة حازم عبقري في الحرب. ما كان ليغفل هذه الغفلة، فيضيع النصر الذي حاز، ويتركه لعدوه. لقد رأيناه يهجم في الليل على آدربعل في سنة 112 فيهزمه. فما كان ليرجئ الإجهاز على الرومان إلى الصباح لو كان هو الذي يدير المعركة.

وذهب ماريوس إلى قرطة بعد هذه المعركة الكبرى. وقد يكون ذهابه إلى قرطة ليتحصن بها إذا رجحت كفة يوغورطة في الحروب المقبلة. فأرسل يوغورطة وراءه كتائب من جيشه و جيش بوكوس فأدركته في الطريق. فدارت حروب عنيفة بين الجيشين، جيش يوغورطة، وجيش ماريوس. فحمى في غرب (سطيف) الوطيس واشتد القتال، ورأى ماريوس الموت الأحمر يحدق به، وكادت كفة جيش يوغورطة تكون هي الراجحة. فجاء القائد الروماني صيلة بجيش الجد به ماريوس، فرجحت كفته في الحرب فكان النصر له. ورجع إلى قرطة واستقر فيها، والإعياء يهده، والاياس من القضاء على يوغورطة بالحرب يملأ نفسه.

وكان مجلس الشيوخ الروماني يتتبع سير الحروب في المغرب باهتمام. فرأى ثبات

يوغورطة، وثبات البربر، وحرب العصابات التي يتبعها، وهي حرب لا تهزم، فأيقن كماريوس بان الجهود العسكرية لا تجدي. وان مستقبل المعركة إذا استمرت ليوغورطة، فيمرغهم في التراب ويسحقهم بأقدامه. ان الزمان طويل الذي يمر وهم معه فلم يستطيعوا كسره والقبض عليه، أو قتله. وها هو بوكوس ملك موريطانيا الغربية ينضم إليه فيبدأ حربهم بقوات جديدة. انه إذا لم يستطع مواصلة المعارك الكبرى معهم لتفوقهم عليه في الجند، فسيواصل حرب العصابات عليهم من جيتوليا فيرهقهم ويعييهم، ثم يكر عليهم فيكسرهم في معركة كبيرة. ان يوغورطة لا يستطيعونه ولا يبلغون مرامهم فيه بالقوة بل بالمكيدة. ولكن ماريوس ضعيف الذكاء في باب الختل والكيد. ان سيفه أطول من عقله. فلابد من رجل داهية يحسن الفخاخ الخفية، والكيد البارع، يكون معه ليتولى الدس والختل فاختاروا لوكيوس كولانيليوس صيلة. وهو قائد روماني لا شجاعة له، ولكنه ماهر في الدس والكيد، والإيقاع بعدوه في أفخاخه. فأرسلوه إلى ماريوس. فخلا به ماريوس بعد معركة سطيف يعملان الفكر في مكيدة تضعف يوغورطة وتوقعه في قبضتهم. فخلق لهم بوكوس صهر يوغورطة الفرصة لذلك، فهب صيلة لاستغلالها.

وكان بوكوس ملك موريطانيا الغربية ضعيفا جبانا. وكانت تتسلط عليه شهواته وجبنه وحسده ليوغورطة لا إدارة البربر وشجاعتهم، وكرههم للرومان. وكان يوغورطة قد واعده على النصرة بثلث نوميديا، فحركه بالطمع فوقف بجانبه، ولكن يوغورطة لم ينصر، ورأى قوة الرومان، فخاف ان يغضب عليه الرومان فيزحفوا على دولته فأرسل إلى ماريوس في طلب الصلح، وأبدى استعداده لخدمة الرومان وخذلان يوغورطة. فأرسل ماريوس رسل بوكوس إلى رومة ليرى مجلس الشيوخ رأيه في طلب ملكهم. وأرسل صيلة إلى بوكوس لينصب فخاخه ليوغورطة.

غدر بوكوس بيوغورطة

دهاء صيلة وجبن بوكوس

واجتمع صيلة الداهية ببوكوس الضعيف. وكان ذلك في سنة 105 ق.م وكان صيلة يعرف ان بوكوس عبد أطماعه وجبنه. فواعده بموريطانيا الشرقية كلها ان هو أعانهم في القبض على يوغورطة، واو عده باحتلال دولته، والقضاء على ملكه ان أبي واستمر في تأييد يوغورطة. فكان بوكوس كما يريد صيلة، فشمر للكيد ليوغورطة، واتفق مع صيلة على خطته.

وكان يوغورطة يكره الصلح مع الرومان. وكان يعرف الإعياء الذي أصابهم، وعرف إنهم لا يستطيعون ملاحقته إلى جيتوليا، وسيظل يشن عليهم حرب العصابات إلى ان يوهنهم، ثم يكر عليهم فيطرحهم أرضا، ويلقي بهم في اليم.

كان يوغورطة ثابتا في الحرب، قد عزم على مواصلة القتال، فأرسل إليه بوكوس يعلمه بطلب الصلح، ويرجوه ان يوافق عاليه. فجعله أمام الأمر الواقع. هل يرفض الصلح فيختلف بوكوس فيصبح عدوه يحاربه مع الرومان؟ ان الرومان سيستغلون هذا الخلاف. ووالى بوكوس رسله إلى يوغورطة يعلمه بان شروط الصلح ستكون مقبولة، وان الرومان سينسحبون إلى الولاية الرومانية، فيخرجون من دولته بدون قتال. فما زال به حتى ألزمه بقبول الصلح. فاستقدمه إلى مقره لمقابلة الوفد الروماني ليتفاوضا معه في شروط الصالح، وانسحاب الرومان من دولته.

كيد بوكوس وصيلة ليوغورطة

وكان يوغورطة ذكيا. وكان يعرف ضعف بوكوس ودهاء صيلة فاحتاط لنفسه فطلب ان يرسل إليه صيلة ليكون رهينة عنده ثم يقدم لمفاوضة الوفد. فأبى عليه بوكوس ما طلب، واعلمه بان صيلة هو رئيس الوفد، وانه لا يصيبه أي ضير إذا اجتمع بوفد الرومان، وان الاجتماع يكون عنده في مكان امن لا سلطان ولا قوة للرومان فيه.

وكان يوغورطة حسن النية. وكان بوكوس صهره، وجاره وابن جنسه. وكان قد حارب الرومان معه فلم يخطر بباله انه يختله. فرضي بالاجتماع بصيلة. فاشترط ان يكون الاجتماع في مكان يكونان فيه خاليين من السلاح، فرضي صيلة بالشرط، وأكد له بوكوس قبول الشرط، وان صيلة سيكون خاليا من السلاح ومن كل قوة حربية. فجاء يوغورطة وهو يعتقد انه ذهب إلى دار صهره وجاره وابن عمه الأمن، ولكنه ذهب إلى دار عدوه حيث نصب له الفخ.

وكان يوغورطة يعتقد ان الرومان شرفاء مثله، يوفون بالوعد، ويتنزهون عن الغدر، فوثق بوعد صيلة الذي لابد ان يكون قد بعث به إليه مكتوبا مختوما بختم الدولة، أو يكون شاقه به رسل يوغورطة. ولم يدر في خلده ان الرومان يغدرون بعد إيمانهم ووعودهم واتفاقهم على التجرد من السلاح.

وكان يوغورطة شريفا شجاعا ! فوصل مكان الاجتماع وهو خال من كل جند يحرسه، ومن كل سلاح. وما كاد يستقر به المقام في مكان الاجتماع حتى أحاط به جند بوكوس الذي كان صيلة قد أخفاه في مكان قريب من موطن الاجتماع. فأسروه

فسار به صيلة في جيش كبير قد يكون جيش بوكوس فسلموه إلى ماريوس في قرطة ! فسر ماريوس وتنفس الصعداء، وفرح فرحته الكبرى، وطير الخبر إلى روما فسر مجلس الشيوخ الروماني بالقبض على يوغورطة. ورقصت روما طربا لهذا الحادث الكبير.

وكان كل العقلاء في العالم يرون الرومان وهم يحتفلون بأسر يوغورطة والغدر به كالغربان الخسيسة التي تستلذ التهام الجيفة، وتحتفل بإقحام مناخرها في ديدانها، وفي أقذار المزبلة !

ماذا سيفعل الرومان الغادرون بيوغورطة بطل المغرب الكبير.

نهاية يوغورطة ولؤم الرومان

وفي ديسمبر من سنة 105 ق.م ذهب ماريوس إلى رومة ومعه يوغورطة أسيرا في أغلاله. وأعاد مجلس الشيوخ الروماني انتخاب ماريوس قنصلا جزاء له على غره بيوغورطة، وقبض بوكوس عليه. وفي اليوم الأول من يناير سنة 104 ق.م.احتفل الرومان بانتصارهم على يوغورطة، وبماريوس الذي أورثهم ذلك النصر، وكان قنصلا للدولة. فأسرعت المدن الرومانية إلى روما فغصت شوارعها وميدانها العام الفسيح بمختلف الطبقات. وكلهم يتلهف وبشخص ببصره ليرى ماريوس فيحييه، ويشاهد يوغورطة أسيرا في أغلاله ليشمت به. فخرج ماريوس في أول يناير في شموخ المنتصر، وأبهة الغالب، فركب عربته الفخمة، وجعل يوغورطة أمام عربته مع الخيل، وهو في تاجه الملوكي وحلته الأرجوانية الملوكية، ويداه في القيد الحديدي ! فمشى به في شوارع روما، ووقف به في ميدانها العام، فشمت العجائز والصبيان والسفهاء بيوغورطة، واسمعوه قارس الكلام. ثم زج به مجلس الشيوخ في أقسى السجون، ومنعوا عنه الطعام والشراب. ومشى الحراس القساة بيوغورطة ودفعوا به في قيوده في سجن (التوليانوم) تحت قصر (الكابتول). هو سجن مظلم بارد كثير الانداء لا يحكم به إلا على كبار المجرمين، ومنعوا عنه الطعام والشراب أيام كاملة وفي اليوم السابع من يناير سنة 104 ق.م. شنقوه، ففاضت روحه ! فتنفس الرومان الصعداء وظنوا إنهم قد قضوا على يوغورطة، واخمدوا البربر، ولكن بغدرهم به، ولؤمهم معه زادوا العداوة البربر لهم اشتعالا، وغرسوا يوغورطة في أعماق قلوب المغرب، فظل يهيب به لمحاربة الرومان وعدم الخضوع للمستعمرين، فتثور براكينه عليهم.

تعظيم الرومان لماريوس لقضائه على يوغورطة

وكان الرومان يعظون ماريوس لأنه قضى على اكبر عدو لهم جرعهم مرارة الهزيمة، وطعم الذل، وشغلهم بالحروب سبع سنين، ثم امتنع عنهم فلم يستطيعوا التغلب عليه بالقوة، وجازوه على ذلك بان أعادوا انتخابه للقنصلية ست مرات.وكان ماريوس يفخر بالقضاء على يوغورطة. وكان صيلة يقول للرومان بأنه هو الذي قضى عليه. فكان هذا من أسباب العداوة التي شبت بعد ذلك بين صيلة وماريوس فأغرقت روما في الدماء.

يوغورطة ! بطل المغرب العبقري المخلص! حارب الرومان سبع سنين، وركبهم بالهزائم، وعجزوا عن إخماده وإخماد البربر بالقوة، وهم اكبر دولة في ذلك الزمان، وأقوى امة في ذلك العصر. قد خضعت لسلطانها كل الدول الكبرى، وطأطأت لسطوتها كل الشعوب القوية. لقد أحنى الرومان بقوتهم رءوس الملوك الأقوياء، ورءوس الأمم القوية، ولكن البربر لم يخضعوا لهم، ويوغورطة لم تنحن رأسه لهم. فظل يقاتلهم سبع سنين، ولولا غدر بوكوس لبلغ مرامه فيهم، فيكنسهم إلى البحر!

لقد قاتل يوغورطة دفاعا عن وطنه في كل أنحاء دولته. قاتل في افريقية، وفي نوميديا، وفي موريطانيا الشرقية، وفي الشمال، وفي الصحراء، وفي السهول، وفي الجبال، وظل سبع سنين في لأمة الحرب مع الرومان لا يسكن ولا يستريح. وقضى أيامه في الملك وهو يجاهد لتنظيف الدولة وتوحيدها، وفي مجالدة المستعمرين ودفاعهم. ولو امتد اجله لبلغ كل آماله، فيقضي على الرومان في المغرب، ويوحد وطن الأمازيغ فيكون دولة واحدة، ويجعل المغرب أكبر دولة بعبقريته السياسية والإدارية، وبإخلاصه!

لقد كتب كثير من المؤرخين عن يوغورطة فمجدوه، وأرغمهم على الاعتراف ببطولته وبطولة البربر النادرة. فبعضهم كان سهما فانتصر على القول الصواب، وبعضهم كان سيفها فقال في يوغورطة ما يقوله السفهاء الذين لا شرف ولا عقول لهم فيمن يكرهون.

سفاهة بعض المؤرخين الأوربيين وأكاذيبهم على يوغورطة

ان بعض السفهاء من المؤرخين الأوربيين قد رأى يوغورطة يركب ظهور الرومان بالهزائم المتوالية في ميادين الحروب، ويمرغ قوادهم الكبار في التراب، ويرغم الجيش الروماني على الركوع والانحناء تحت أقدامه، فأفزعهم هذا المنظر، فاغتاظوا، فبسطوا السنة السب السفيه في يوغورطة، وأرادوا ان يغضوا من مقامه بالكذب والوقاحة، فقالوا :»انه ابن

حرام! !» وان أمه امة تسراها أبوه. قد يكون أم يوغورطة من سبايا جده غولة في حروبه مع صيفاقس. ولكن منستابعل أمير وابن ملك منتصر، وهو رجل حصيف رزين لا يتسرى من السبايا إلا بنات الملوك والأمراء، ولا يبني بهن إلا على النحو الشريف الذي يليق بشرفه الملوكي.

انه لا بغض من مقام يوغورطة إذا كانت امة سرية. فكثير من عظماء العالم، وعباقرة الأمم، وكبار الملوك أمهاتهم من ذلك النوع، فلم بغض ذلك من مقامهم، بل كان ذلك من أسباب قوتهم باختلاط الدماء القوية المختلفة فيهم.

ان شخصية المرء وأعماله دليل أصله. وأعمال يوغورطة كلها وجهاده لتدل على شرفه نسبه في جهتيه، وعلى كرم أعرافه كلها.

لو كان في نسب يوغورطة مغمز ما كان على ذلك الشموخ، وما مجده البربر كل التمجيد، وترتضوا ملكا، ونصروه على ابني عمه.

ايت أولئك المؤرخين الأوروبيين الذين كذبوا على يوغورطة والصقوا به ما ليس فيه، ممن يتمسك أقوامهم بالعفاف ويغارون على النسب، ولكنهم أبناء حضارة تجيز ان يتصل احدهم بإحداهن فيولدها مثنى وثلاث ورباع، ثم بعقد عليها للزواج، ويعد الناس أولئك أبناءه !

وقد ردد بعض المؤرخين المغاربة هذه الشتيمة الأوروبية، وهذا الكذب في يوغورطة ولم يفندوه. كأنهم من أولئك الأعداء الذين يسوؤهم ان يكون للمغرب بطل كيوغورطة، وان يكون البربر معدن البطولة والعبقرية فأجبوا أمثاله ! من أولئك المؤرخين المغاربة احمد صفر. ليته نزه كتابه القيم عن ترديد الشتائم الأوروبية في أجداده، وقلد الأوروبيين في تمجيد أبطالهم والذود عنهم. نرجو ان يتنبه ويتحرى فيما يقلد فيه، وان لا يشين الطبعة الثانية من كتابه بهذه الفرية الأوروبية على بطلنا العظيم.[100]

مدة يوغورطة في الملك وآثاره الراسخة في دولته.

وكانت مدة يوغورطة في الملك أربع عشرة سنة. من سنة 118 إلى سنة 104 ق.م

100 - قال احمد صفر في كتابه مدينة المغرب العربي ج 1 ص 276 فأغلظ هيمصال القول ابن عمه يوغورطة لأنه نغل. وقال في التعليق: النغل ابن الحرام. لو اعمل احمد صفر عقله في التاريخ وكان غيورا على أبطاله لعلم ان الملك مصيبسا العاقل الشريف لا يتبني ولا يوصي بالملك لرجل مغموز في نسبه، وان هيمصال إذا صح انه جهم يوغورطة فلطيش الأمراء وغطرسة المدللين في هيمصال لا لضعة في يوغورطة.

وقد أمضى معظمها في الحروب لتوحيد المغرب، وفي مدافعه الرومان عن دولته. ولم يحظ بعهود الاستقرار الطويلة التي كانت لجده مصينيسا، وعمه مصيبسا. فلو ظفر بالاستقرار والهناء، وطالت مدته في الملك، لرأي المغرب منه خيرا كثيرا، ولجعل الأمازيغ كلهم دولة واحدة تشمخ على الرومان. ولكن شاء الله ان يبتليه بالرومان، فشغلوه عن الإصلاح والعمران.

وقد أورث يوغورطة بجهاده ونضاله شبابا جديدا لدولته، فامتد عمرها في الحياة فلو اتصل الهدوء والاستقرار الذي كانت عليه في عهد مصينيسا وعهد مصيبسا لأسرع إليها الهرم، وأودت بها الراحة وحياة النعيم.

وأورث يوغورطة لدولته عزة فرفعت رأسها. فلم يستطيع الرومان القضاء عليها إلا بعد محاولات طويلة استغرقت نصف قرن من الزمان.

وكان عمر يوغورطة لما اسر حوالي ثمان وستين سنة. وكانت قوة بنيانه، والحياة العسكرية التي أحياها، وعدم إخلاده إلى الراحة والنعيم، قد حفظت شبابه وقوته الجسيمة، فلم يصبه الضعف والتهدم الذي يصيب من كانوا في مثل عمره.

لقد استطاع الرومان ان يقضوا على يوغورطة بالخديعة، ولكنهم لم يستطيعوا القضاء على الدولة البربرية الكبرى. انها ما زالت شامخة، متينة البنيان، واسعة الأرجاء لا يستطيعون اقتطاعها أو تهديمها، فكل ما استطاعوا عمله هو إزالة يوغورطة الذي وحدها، فيها الشباب، فانقسمت بعده إلى دويلات، فأصابها عامل الضعف إلي يتمناه لها الرومان. وستظل تزأر زئيرها على الرومان، وتكشر عن أنيابها لهم، وتمرغ جيوشهم في الرغام! فمن خلف يوغورطة في بطولته وإخلاصه، وغيرته على المغرب من ملوك البربر؟ انه يوبا الأول! متى كان، وفي أي ناحية، وما شخصيته وأعماله؟ ومن الذي قدم له فكان أحسن نتائجه، وأزكى ثماره؟

هل كان ذلك الأسد البربري تستطيعه هذه الذئاب الرومانية لولا خيانة بوكوس؟ ادرس الشخصيات في رسومها، وقارن بينها، فان الله خلق وجه الإنسان مظهر شخصيته، وعنوان حقيقته.

انقسام الدولة البربرية وتمزقها

كان الرومان يعتقدون ان السبب الذي يضعف الدولة البربرية لنما هو انقسامها وتمزيقها إلى دويلات. ليتناطح ملوكها ويستنجدون بها كما استنجد بهم آدربعل فيهجمون على الأقوى بالأضعف فيزيلونه. فلا يبقى على عرش الدولة إلا الملوك الضعفاء الذين يخضعون لهم. ويورثون الهرم والضعف لأجزاء الدولة فيلتهمونها قطعة قطعة. ويستولون على المغرب كله. ولما قضت روما على يوغورطة بالغدر والمكيدة تحقق للرومان ما أملوه. فانقسمت الدولة البربرية وتمزقت.

اقتطاع بوكوس الأول لموريطانيا الشرقية

وكان الرومان قد واعدوا بوكوس الأول بإعانته على الاستيلاء على موريطانيا الشرقية جزاء له على إعانته لهم في القبض على يوغورطة. فلما اسر يوغورطة. زحف بوكوس الأول بإعانة الرومان على موريطانيا الشرقية فملكها وسموها نوميديا الغربي. فامتدت الحدود الشرقية لدولته إلى غرب بجاية.

ولاية الملك على نوميديا وغرب افريقية

أما نوميديا وغرب افريقية التابع لنوميديا فان البربر فيهما قد أقاموا بعد يوغورطة أخاه غودا ملكا عليهم. وكان هذا بسعي الرومان. وحثهم البربر عليه. فانقسمت الدولة البربرية إلى دولتين. آلة موريطانيا قد اقتطعها بوكوس وأضافها إلى دولته. والى نوميديا التي صار غودا عليها ملكا.

وكان غودا هو أسن رجل في أسرة مصينيسا. وكان الملك له كما يقضي قانون وراثة الملك القديم في هذه الأسرة.

وكانت ولاية غودا للملك في سنة 104 ق.م وكان شيخا مسنا. واهن القوى. ضعيف الشخصية. لا يشبه أخاه يوغورطة في بطولته ومواهبه. وكان عهده في الملك ساكنا. لم يحدثنا التاريخ بثورات داخلية وقعت له. وبحروب خارجية خاضتها دولته مع جيرانها. لقد كانت الدولة البربرية مثخنة بالجراح بحروب يوغورطة التي دامت سبع سنين. فآثرت السكون والهدوء لتنسجم وتتجدد. وكانت بعد ذهاب يوغورطة قد خلت من القائد القوي الذي يثور بها على أعدائها. ان الدولة في الم وغيظ شديد لتقسيمها واقتطاع

موريطانيا الشرقية منها وإعطائها إلى بوكوس الذي تمقته وتراه سبب نكبتها. فبودها ان تثور عليه. ولكن خلوها من القائد القوي. وتعبها من الحروب الطويلة جعلها تؤثر الهدوء. وتخلد إلى السكون. على نار للحق والعداوة القائمة للرومان وذنبهم بوكوس تتأجج في أعماقها.

ولاية هيمصال الثاني ويرباص ومصينيسا الثاني للملك

ودام غودا ملكا على نوميديا وغرب افريقية إلى ان توفي في سنة 88 ق.م وكانت مدته في الملك ست عشرة سنة. ولما توفي اقتسم أبناؤه الثلاثة مملكته نوميديا وغرب افريقية. فاخذ هيمصال الثاني غرب افريقية ونوميديا الشرقية وهي من طبرقة إلى شرق روسكاد (مدينة سكيكدة). واخذ يرباص نوميديا الوسطى وهي من روسكاد إلى شرق مدينة جيجل وغرب ميلة. واخذ مصينيسا الثاني نوميديا اسطيفية وهي الغربية. وحدها من شرق جيجل إلى غرب صلداي (بجاية).

وكان الرومان يعجبهم هذا التقسيم الذي يضعف الدولة البربرية. كما كان يتفق مع طبع البربر القديم الذي حاول مصينيسا الأول ويوغورطة القضاء عليه. وهو إيثار الاستقلال الجهوي. واللامركزية في الحكم. وكانت حدود هذه الممالك في نوميديا تنتهي في حدود الصحراء الشمالية وفي شمال جبال آوراس. وكان آوراس مستقلا تحت أمرائه. وكذلك جبال القبائل. كما كانت جيتوليا وهي الصحراء مستقلة تحت أمرائها.

وكان مصينيسا الثاني غيورا على الدولة. وقد ساءه ان يستولي عدوهم بوكوس على الجزء الغربي منها. وهو موريطانيا الشرقية. فعزم على استردادها. فصار يرقب الفرصة إلى ان اشتغل الرومان بالحروب الداخلية التي شبت بين مايوس وصيلة في سنة 88 ق.م فوجد فرصته. فاستولى على موريطانيا الشرقية فضمها إلى مملكته. وأخرجها من قبضة بوكوس اللئيم.

قال الأستاذ احمد صفر:»وبعد موت غودة سنة 88 ق.م تولى الملك أبناءه (هيمصال) و(مصينيسا). فتمكن هذا الأخير من استرجاع مملكة أجداده من الملك بوكوس الخائن.»[101]

ان كل ما ذكره المؤرخون هو ان مصينيسا الثاني استطاع ان يسترجع موريطانيا الشرقية ويأخذها من بوكوس الأول ولم يذكروا متى وقع ذلك. وإذا كان الرومان هم القوة التي تتدخل إذا هوجم بوكوس فتعينه على منع إخراج موريطانيا الشرقية من يده. فأرى ان انشغال الرومان بحربهم الداخلية هو الفرصة التي اغتنمها مصينيسا

101 - مدينة المغرب العربي ج 1 ص 213 ط أولى بتونس.

فهجم على بوكوس فاخذ منه موريطانيا الشرقية. ودلك أما في سنة شبوب الحرب الداخلية الرومانية وهي سنة 88 ق.م أو بعدها بقليل. ان البربر في موريطانيا الشرقية كانوا يغلون حقدا على بوكوس لقضائه على زعيمهم يوغورطة، ونوميديا كانت تتوق لاسترجاع موريطانيا الشرقية. ولا أراها تؤخر اغتنام فرصة الحرب الأهلية أول ما حانت في سنة 88 ق.م.

طموح يرباص وهيمصال وتنازعهما

وكان يرباص وهيمصال الثاني ملكين طموحين. وكان كل منهما يريد ان يستولي على ما بيد الآخر ليوحد نوميديا، ثم الدولة كلها بعد ذلك. فحانت الفرصة ليرباص فاغتنمها فاستولى على نوميديا كلها وعلى موريطانيا الشرقية فأقصى هيمصال الثاني ومصينيسا الثاني من مملكتهما فتوحدت الدولة على يد يرباص، وبلغ ما أراد. فمتى وقع ذلك وما هي فرصته؟

هجوم يرباص على أخويه وتجريدهما من الملك

كان ذلك في سنة 88 ق.م وكان الصراع على أشده في روما بين القائدين الكبيرين ماريوس وصيلة. وكان ماريوس شعبيا يريد تجديد نظام الحكم في الدولة وإضعاف نفوذ مجلس الشيوخ الذي كان جله من الطبقة الاوروستقراطية الأنانية الضعيفة، وإقامة النظام الإمبراطوري الذي يصلح بالدولة ويجدد شبابها. أما صيلة فكان اورويستقراطيا يتحمس للجمهورية، ويتعصب لمجلس الشيوخ، ويريد ان يرجع له نفوذه أيام شباب الجمهورية وقوتها. وكان إلى اختلاف الطبقة بينهما، واختلاف المذهب يحبان الرئاسة. وكان لكل منهما حزب قوي في روما فتصارعا. وكان صيلة أكثر دهاء من ماريوس، وحزبه كان أكثر نظاما. وكان من حزبه القائد الكبير بامبايوس الذي كان بطلا في الحروب كماريوس فاستطاع صيلة ببطولة رجاله، سيما قائده بامبايوس، ودهائه الكبير ان يهزم ماريوس في روما وفي ايطاليا. ففر ماريوس إلى المغرب ليستعين بدوله على التغلب على خصمه. فنزل عوتيقة فأبى الوالي الروماني ان يعينه. ان صيلة أقوى منه. سيلاحقه فينتصر عليه بكثرة جيوشه فتقع الضربات على من يأويه. فأرسل إلى هيمصال الثاني يسأله ان يأويه وينصره. فأبى لما رآه الوالي الروماني. فطرق ماريوس أبواب يرباص، وواعده بإعانة حزبه له ومن معه من الجيش على الاستيلاء علة نوميديا وكل نواحي الدولة

البربرية الكبرى.[102] فسر يرباص بهذه الفرصة فآوى ماريوس في سنة 88 ق.م ثم أعانه ماريوس بجيشه، وأنصاره في افريقية، وزين له الاستيلاء على الدولة البربرية كلها ليكون قويا فيصول به صيلة. فهجم في سنة 81 على مملكة هيمصال الثاني نوميديا الشرقية، وعلى مملكة مصينيسا الثاني نوميديا الغربية وموريطانيا الشرقية، فاستولى عليهما فتوحدت الدولة على يده.

وكان يرباص قوي الشخصية، وكان يحب الحضارة وينشرها في دولته، وقد اعتنى بالفلاحة، وضرب السكة باسمه. وكان غيورا على الدولة البربرية، كما كان يكره الرومان ويمقتهم.

هجوم صيلة على ماريوس ويرباص وهزمهما

وفي سنة 80 ق.م عزم صيلة على القضاء على عدوه ماريوس في المغرب أيضا. فأرسل جيشا قويا تحت قيادة بومبايوس فاشتبك بماريوس وحليفه يرباص في حروب عنيفة. وأرسل صيلة إلى صديقه القديم بوكوس الأول ملك موريطانيا الغربي مستنجدا به. فأعانه بجيش كبير من فرسان موريطانيا تحت قيادة حفيده غودا. فهجم بهم من خلف على يرباص فاستطاع بومبايوس الانتصار عليه وعلة ماريوس. فتقهقر يرباص إلى عاصمته ليعتصم بها، فاعترضه غودا في جيشه فقبض عليه فقتله. وكان بوكوس وأبناؤه هم حبل المجزرة النتن الذي يقيد به الرومان أبطال المغرب فيفتك بهم. وهم الحبل الخبيث الذي يعترض طريق الدولة البربرية في حروبها مع الرومان فتقسط فيتغلبون عليها. لولاهم لكانت الدولة البربرية هي المنتصرة على ماريوس في عهد يوغورطة، وعلى بومبايوس في عهد يرباص.

وكان هيمصال الثاني وأخوه مصينيسا الثاني قد أدركا بنظرهما البعيد ان الغلبة لصيلة فرفضا تأييد ماريوس واظهرا ميلهما إلى صيلة. ولما غزا بامبيوس نوميديا أعاناه فاستطاع ان ينتصر على يرباص. فاسترجعا مملكتهما، فرجع كل منهما إلى مملكته. وزحف هيمصال الثاني على نوميديا الوسطى مملكو يرباص فضمها إليه. فصارت دولته تشتمل على غرب افريقية، ونوميديا الشرقية والوسطى وينتهي حد دولته في شرق جيجل وغرب (ميلة).

وكان هيمصال الثاني قوي الشخصية، عالي الهمة، غيورا على المغرب. بوده لو وحده

102 - إذا قلنا الدولة البربرية أو الدولة البربرية الكبرى فالمراد بها دولة مصينيسا الأول الواسعة التي كانت تشتمل على جل المغرب. انظر حدودها في باب دولة مصينيسا.

في دولة واحدة ليصول به على الرومان. وكان يحب الحضارة. وقد نشرها في مملكته، وواصل أعمال أجداده في هذا الميدان. كما ضرب النقود باسمه. وكان يكره الرومان ويمقتهم. وكان يجهد لتجديد شباب نوميديا ليصول بها على الرومان. وقد أورث كل مثله العليا إلى ابنه يوبا الأول الذي هب بعد وفاته لتحقيقها . ودام هيمصال الثاني ملكا إلى سنة 50 ق.ك فأدركته الوفاة. وكانت مدته في الملك نحو 36 سنة ولولا تمزق الدولة، اشتغال ملوكها بالكيد لبعضهم، لاستطاع هيمصال ان يجددها، فيعيد بها الكرة على الرومان.

أما مصينيسا الثاني فعاش بعد أخيه، وأعان يوبا الأول في حروبه مع الرومان. ومات أو قتل في سنة 46 ق.م واستولى بوكوس الثاني على مملكته.

مات هيمصال الثاني ولكنه ترك لنا يوبا الأول الذي ورث ملكه، وكان من الملوك الأبطال، ومن مفاخر المغرب العظام. ما هي شخصية يوبا العظيمة. وما هي أعماله وجهاده في سبيل الدولة، وفي سبيل المغرب الكبير؟

يوبا الأول 50-46 ق.م

نسبه ونشأته وشخصيته العظيمة

يوبا الأول ابن هيمصال الثاني. مصينيسا الأول جده الثالث، ويوغورطة عمه. قد اكتنفته البطولة من كل نواحيه، وحفه المجد من كل أطرافه. وكان والده هيمصال قوي الشخصية، فأورثه قوة شخصيته، وإباءه، وطموحه، وغيرته على المغرب، ومثله العليا، سيما توحيد المغرب وتطهيره من الرومان !

وكان هيمصال قد رأى في يوبا نبوغا وشجاعة وقوة شخصية. فرجا ان يكون من عظماء الدولة، ومن قوادها المخلصين الذين يطهرونها من الرومان. فاعتنى بتربية كمل الاعتناء، فأرهف شجاعته ومضاءه، وغرس فيه الإخلاص والوفاء، وملأه بالغيرة على دولته، والاعتداد بجنسه، وعوده اللطف والحدب على بني قومه، والكره والعداوة للرومان الذين مزقوا دولته ليبتلعوها؛ كما أنشأه على الفروسية، ودربه على فنون القتال فبرع فيها. فكان من فرسان عصره، ومن الماهرين في القتال في زمانه. اعتنى هيمصال بتربيته العقلية فعلمه وثقفه، فحذق اللغة الرومانية، وأتقن ما يجب من العلم والمعرفة. ثم أرسله إلى روما حيث أتم تعليمه، واطلع على الحضارة الرومانية، ودرس نفوس الرومان فعلم أسباب عظمتهم، واطلع على نواياهم السيئة للمغرب، وعلى رغيتهم في امتلاكه والسيطرة عليه. فرجع إلى وطنه وقد تمت ثقافته، ونضجت مواهبه، واستعد للقيام بالأعمال الكبرى ولما تولى أبوه الملك صار من أعوانه في مهمات الدولة، ومن اعضاده الذين يسد بهم الثغور الغربية، فاستنجد مصينيسا بالرومان، فأرسل هيمصال ابنه يوبا إلى روما فحامى عن أبيه في مجلس الشيوخ وقام بالدفاع عنه أحسن قيام حتى اغضب قيصر الذي كان يميل إلى مصينيسا فقام يناقشه محتدا، فتصدى له يوبا فجادله، وضايقه بقوة حججه وبشجاعته في الدفاع، فقام إليه قيصر في حماسة الغضب فامسك بلحيته، ولابد ان يكون يوبا قد دفعه عنه بقوة بنيانه فيقعى في مجلسه.

كان يوبا بطلا شجاعا، وفارسا مغوارا. وكان يتقيد غيرة على المغرب. وكان مثله الأعلى ان يوحده كله في دولة واحدة، ويقذف بالرومان في البحر.

وكان أبيا كل الآباء معتدا بنفسه. وكان واسع الغنى، كبير الثروة فزاد غناه في عزه نفسه، وفي آبائه واعتداده وطموحه.

وكان قوي الجسم، متين البنيان، مهيب الطلعة. وكان يرسل لحيته، فتزيد اللحية في مهابته، ويطيل شعر رأسه، وإذا نظرت إلى صورته رأيت أسدا هصورا في شخص إنسان، وشاهدت رجلا قويا يحترمه ويجله ويهابه كل من يراه.

وكان يوبا متدينا، وقد رسم في نقوده صورة معبد. وذلك لتقديسه للدين، وللمزاج الديني القوي فيه، وفي أهل دولته.

وكان ذكيا بالغ الذكاء، داهية يعرف كيف يوقع بأعدائه. وقد أغرى سبيون القائد الروماني بما نفر البربر عنه، وشحن صدورهم بالعداوة له، وذلك لدهائه، ومقته للرومان.

وكان يوبا الأول أشبه الناس بيوغورطة في شخصيته. انه ضريعه في الشجاعة، والأقدام، والإخلاص للمغرب، والعداوة للرومان المستعمرين.

وكان يوبا محبا للحضارة، حريصا على العمران، فلو طالت أيامه في الملك لرأى الغرب منه الشيء الكثير في هذا الباب.

وكان يوبا إلى غناه وحبه للحضارة متقشفا، يؤثر حياة الجد. لا ينغمس في الملذات التي تضعف أخلاقه، ولا يركن إلى الخمول الذي يدخل الوهن على نفسه.

حدود دولته وعاصمته

وكان هيمصال قد أوصى بالملك إلى يوبا. ولما توفي في سنة 50 ق.م اقتعد عرش الدولة. وكانت دولته تشتمل على غرب افريقية، وجنوبها إلى مدينة طرابلس، وعلى نوميديا الشرقية، وعلى نوميديا الغربية. وتنتهي دولته غربا في شرق جيجل، وفي غرب ميلة.

وكان يجاوره في نوميديا من الغرب مملكة عمه مصينيسا. ان نوميديا الغربي له. وكان يوبا أحسن جواره، وامتلك وده، فوقف بجانبه في حروبه مع الرومان.

ان المؤرخين لم ذكروا عاصمة يوبا. قد تكون هبون، وقد تكون قرطة. ان قصر أيامه في السلم جعل عاصمته السياسة، ومقره غير معروف. أما مركزه الحربي وعاصمته أيام حروبه فهي (جامة ريجيا) في شمال مدينة (مكثر) في الوسط الغربي لافريقية، وفي الجنوب الشرقي لمدينة الكاف. وقد آثر جامة معسكرا له، وعاصمة أيام حربه، لان

حروبه مع الزمان في الولاية الرومانية. فهو يريد ان يكون قريبا من ميدان عمله وفي مكان يستطع ان يراقب منه الرومان. ولا أرى انها كانت عاصمة لأبيه قبله. فهبون هي العاصمة كما قال بعض المؤرخين، أو قرطة، وقد استولى عليها هيمصال فصارت من دولته.

اعتناء يوبا بجيشه واستعداده لمحاربة الرومان

وكان يوبا يوقن بأنه مقبل على حروب طاحنة مع الرومان. فما كاد يتولى الملك حتى اعتنى بجيشه كل الاعتناء، فدربه وعلمه احدث الأساليب في القتال، وسلحه أحسن تسليح. وربي شعبه تربية عسكرية، وألقى في روعهم مقبلون على حروب وطنية مهولة، ومنازلة أعداء أقوياءهم الرومان. فاعد دولته للحرب، وصار كل فرد فيها مرهف المخالب والأنياب مستعدا للانفجار.

وكان يوبا عليما بأحوال الرومان، وبما يجري في بلادهم، فرأى تصارعهم على الرئاسة فعلم ان هذا الصراع سينتقل إلى الولاية الرومانية فتحين له الفرصة للقضاء على الرومان، وتطهير المغرب منهم. فحانت تلك الفرصة، فاغتنمها يوبا. فدخل في حروب عنيفة كان غرضه منها وطنيا نبيلا. فلولا الحساد وسواد النفوس لنال غرضه وظهر المغرب من عدوه اللدود. ما هي أسباب تلك الحروب التي انتقلت من روما إلى المغرب وما مواقف يوبا البطولية فيها؟ ومتى وقعت؟ ولمن كان النصر والغلبة فيه؟

حروب يوبا الأول مع قيصر

الصراع بين الجمهورية والإمبراطورية في ايطاليا

كان الرومان في القرن الأخير قبل الميلاد يتصارعون الرئاسة، ويتنافسون على الزعامة. وكانت الجمهورية قد شاخت في روما، وصارت أنظار المجددين الأحرار من الرومانيين تتطلع إلى مستبد عادل حكيم ينقذ الإمبراطورية من الانتثار، ويطب لروما التي فتكت بها أمراض المدينة وعلل الحضارة فصارت تسعل وتئن. وكان سعالها هو صليل السيوف التي يشرعها المتنافسون على الرئاسة في شوارعها بعضهم على بعض، وأنينها هو أنين الجرحى والمجندين الذين تغص بهم الميادين والشوارع في رومة التي تعصف بها المنافسة فجن جنونها.

وكان يقود هذا الصراع، وتلك الحروب الأهلية الهوجاء في آخر النصف الأول من القرن

الأخير قبل الميلاد رجلان يتناطحان على الرئاسة. كلاهما قائد حربي كبير قد كلل أمته بالنصر في عدة حروب، وأورثها الغلبة والظفر على عدة أمم حاولت ان تتحدى رومة وتتمرد عليها. وهذان القائدان الكبيران هما بامبايوس ويوليوس قيصر.

نصرة يوبا للجمهوريين وأسباب ذلك

وكان بامبايوس يناصر الجمهورية الهرمة فإقامته حكومة روما الجمهورية قائدا لجندها المأجور المهلهل، ورئيسا يدافع عنها. أما قيصر فاعتمد على أنصاره المتحمسين، وشبان حزبه المخلصين. فوقعت حروب أهلية بينهما في سنة 49 ق.م. كان النصر فيها لقيصر. فملك روما، ودحر بامبايوس في ايطاليا كلها. ففر بامبايوس إلى مصر، وهرب كثير من أتباعه إلى افريقية ليسترجعوا هناك قواهم فيكروا على قيصر.

وكان ممن هرب إلى افريقية من أتباع بامبايوس (فاروس) كبير ضباطه، واحد زعماء حزبه. وما كاد فاروس يصل إلى الولاية الرومانية حتى راعته شخصية يوبا وبطولته، وشجاعة رجاله، ونظلم جيشه، وكثرة جنوده. فصار يتملقه ويستميله إليه لينصره على قيصر. ولكن يوبا ما كان لينصر روما على آخر بدون قائد كبرى يجلبها لقومه، وبدون أغراض سامية يحققها لدولته. ان له مثلا أعلى يملك فؤاده فما من عمل مهم يقوم به إلا وهو مقدمة لتحقيقه، ووسيلة لبلوغه. ان مثله الأعلى، وأمله الكبير ان يطهر المغرب من الرومان، ويوحد الدولة البربرية الكبرى، ثم يوحد المغرب بها، ليكون كله دولة واحدة قوية سعيدة فها هي الفرصة تحين له. ها هم الرومان يتقاتلون ويتخاصمون، وها هو حزب الجمهورية يستغيث به انه الحزب الضعيف في روما، ولكنه القوي في الولاية الرومانية بافريقية. في يده كل الشئون، وهو المستبد بالأمور، فأعانته ونصرته ذات جدوى سياسية كبرى لدولته وللمغرب، ثم ان بمبايوس صديق والده، قد أعانه على استرجاع مملكته. لقد نصرهم في وقت الشدة، وكان لهم في أيام عصيبة قد أنزلوا فيها من عرش الملك، وأمسوا كما صار هو مجردا من الدولة، يحتمي بالناس. ان مروءته، وكرم نفسه ووفاءه لتدعوه إلى نصرته، والانتقام من قيصر الجبار الذي سول له طغيانه ان يقبض في مجلس الشيوخ على لحيته، ويهينه بهذا التحدي الذي يدل على عدم المبالاة به وبدولته.[103]

ومال يوبا إلى الحزب الجمهوري، وواعد فاروس بالنصرة عل ان يتخلى الرومان عن المغرب، ويرحلوا إلى بلادهم، ويتركوا وطن الأمازيغ للأمازيغ. فواعده فاروس وحزبه بذلك. فاستعد

103 - انظر هذه القصة في صفحة 315 من هذا الجزء.

يوبا لخوض المعركة ضد قيصر.

وكان قيصر حازما صارما. فما كاد يهزم الحزب الجمهوري في ايطاليا، حتى شمر للقضاء على أنصار هذا الحزب في إفريقيا. ولما سمع انضمام يوبا إلى الجمهوريين حسب لذلك ألف حساب، وخاف ان يتقوى به الحزب الجمهوري فيغزوه في ايطاليا. فجد في محاربة يوبا وفاروس. فأرسل في سنة 49 ق.م. جيشا كبيرا تحت قيادة احد ضباطه الكبار (كريون) وكان كريون عدوا شخصيا ليوبا فاختاره قيصر لهذا السبب أيضا. فنزل كريون في الولاية الرومانية. ودخل في حرب طاحنة مع فاروس.

دهاء يوبا مع الجمهوريين

وكان يوبا داهية. فترك فاروس في أولى الحرب وحده مع الرومان يقاتلون كريون، ليظهر ضعفهم، ويروا تفوق كريون عليهم، ويوقنوا بغلبته لهم إذا لم يعنهم يوبا. انه لو أعانهم من أول الحرب فانتصروا لنسبوا النصر إلى قوتهم فلا تظهر منة يوبا عليهم. لقد تركهم يقعون في المحنة، ويبتلون بالهزيمة، ويظهر ضعفهم وقصورهم أمام كريون القوي وجيشه المخلص الباسل.

واشتبك كريون بفاروس في معركة حامية. فضربه كريون ضربات قاصمة، وهزمه في المعركة. ففر فاروس وبقية جيشه إلى العاصمة الحصينة (عوتيقة) فتحصن بها، فحاصره كريون وشد عليه الحصار، وكاد يخلها عنوة عليه. ولما رأى يوبا ان فاروس قد أيقن بضعفه،وقوة عدوه، ورأى الموت الأحمر يحدق به، ويكاد ان يقضى عليه، أسرع إليه بجيشه، فصدم القوى بفرسان نوميديا وبجيشه المنظم الباسل فهزمه، ومرغه في التراب. ففر كريون إلى قلعة حصينة في الولاية الرومانية فتحصن فيها. فأراد يوبا ان يخرجه من قلعته، فرجع بأكثر جيوشه، فأشاع ان ثورة داخلية قد نشبت عليه في نوميديا فأرغم على الذهاب إليها ليخمدها، وان الذين يحاصرون قلعته ليسوا إلا حفنة من جيشه. فصدق كريون الإشاعة. فخرج من القلعة ليهزم المحاصرين، فيسير إلى يوبا فيضربه من خلفه وهو مشتغل بأعدائه في الداخل فينتصر عليه. ولم يكد يناوش المحاصرين له حتى تقهقروا إمامه، فظن التقهقر هزيمة فاتبعهم. وكان يوبا قد كمن بجيشه الكبير وأفياله الكثيرة في شعاب بعيدة عن قلعة كريون. فلما وصل كريون إلى مكمنه خرج عليه يوبا فأحاط به، وهو في تعب بقطع المسافات في الطريق الوعرة. فما أسرع ما أتى الحسام على جيش كريون فأباده يوبا، فسقط كريون قتيلا في المعركة. فحملت رأسه إلى يوبا. وكان ذلك كله في سنة 49 ق.م.

كان ذلك نصرا كبيرا ليوبا. فقد ظهرت قوته لفاروس، وبدا تفوقه للرومان في الولاية الرومانية، فصاروا يعتقدون -ورؤوسهم حانية له- انه منقذهم من الهلاك. لولاه لقضى عليهم كريون.

استعلاء يوبا على الرومان وإخضاعهم لسلطانه

كان يوبا جريئا داهية، فاستغل انتصاره على كريون فابتدأ في تحقيق أمله وما واعده به فاروس، وهو الاستيلاء على الولاية الرومانية. فرجع إلى عوتيقه عاصمة الولاية إلى عاصمته (جامة ريجيا) فاظهر سلطانه على الرومان، فصار هو الأمر الناهي، والرومان رعية له خاضعون لسلطانه، يأبى ان يمتازوا على البربر بشيء، أو يظهروا في مظهر السلطان والقوة، أو يبدو رؤساؤهم في زي يشعر بالرئاسة والتقدم. ان الرئاسة بالقوة وهو أقوى منهم، وبالعزة، والبربر اعز منهم وأقوى، إنهم لا يهربون أمام الأعداء، ويختبئون في قلاعهم كالنساء، ولكن يهجمون على العدو وان كان جرارا، فيرى منهم طلعة الأسود، فيقرونه بالحتوف، ويتركونه مطعما للنمل والحشرات !

وكان فاروس وحزبه الجمهوري يخضعون ليوبا ويمتثلون أوامره، وكان هو يعلو عليهم ويريهم إنهم رعية خاضعة. وقد جاءه مرة سبيون رئيس البمبايوسيين لابسا حلة حمراء مطرزة بالذهب، وهي شعار الملوك عندهم، فأمره يوبا بخلعها ولبس البياض، فامتثل سبيون، فخلع ثوب الملك ولبس ثياب السوقة !

وكانت نصرة يوبا لحزب بمبايوس أنعشت هذا الحزب فجددت أمله في التغلب على قيصر، وانتزاع الرئاسة منه. فأسرع عظماء هذا الحزب إلى افريقية ليجددوا الكرة على قيصر. وكان من الوافدين سبيون، وهو غير سبيون الإفريقي بطل جامة وغير سبيون الاميلي الذي هدم قرطاجنة وحرقها. ولكنه قائد آخر من أركان حرب بمبايوس. وكان قدومه إلى افريقية في سنة 48 ق.م.

وكان سبيون يعتد بنفسه لأنه صهر بمبايوس ويرى انه أولى بالرئاسة في افريقية، ولكن فاروس أبى ان يتنازل له، فوقعت المنافسة بين الرجلين، وحثت بلبلة في صفوف الرومان بهذا. وكان يوبا يغرى كلا من الرجلين بالأخر ويفرق كلمتهم، ليتنازعوا فيفشلوا فيستعلي عليهم. إنهم أعداء أمته. إنهم الحية الرعناء المسمومة في عقر داره. إنهم المرض القتال في جسم المغرب العزيز. فهل يعمل يوبا الغيور المخلص إلا لخرابهم وهل يساعد إلا على ضعفهم واضمحلالهم؟

وقد ظل هذا النزاع بين سبيون وفاروس مدة. وكان لا يزداد إلا اشتعالا. ان كلا منهما

قائد حربي مستبد. وكانا يمثلان الجمهورية الهرمة التي استولت على أنصارها الأنانية وحب الذات، فأمسى القائدان -قيصر يستعد للهجوم عليهما في روما- كالثيران التي تتناطح في المجزرة. وكان مغتبطا بتناطحهما. وفي سنة 47 ق.م. وفد على افريقية كاطون وهو غير كاطون الذي نادى بتهديم قرطاجنة.

وكان كاطون الثاني يشبه كاطون الأول في الغيرة، والذكاء، والعلم، وقوة الخطابية. فأصلح بين فاروس وسبيون، وجمع كلمة الرومان، ونظم صفوفهم. فتفاوضوا فيمن يرأس الحزب بعد بمبايوس، فقدموا سبيون. فشمر سبيون عن ساعده فأعاد تنظيم الجيش، وشرع في الاستعداد لحرب قيصر.

وكان سكان الولاية الرومانية من الرومان اغلبهم من شيعة قيصر. وكانت الحضارة أيضا قد قتلتهم، والغرق في الملذات قد اوهن نفوسهم وقتل شجاعتهم، فلم يعتمد عليهم سبيون، فجمع طوائف كبيرة من الموالى والعبيد المستأجرين فكون منهم جيشا كبيرا بلغ عدده أربعين ألفا، فاركبهم الخيل وأمدهم بالسلاح. ولكن من أين له ان يخلق في نفوسهم ما تتأجج به قلوب جيش قيصر من الحب له، والإخلاص لمبادئه.

وكان سبيون يعلم ان عماده في قراعه، وقته في هجومه ودفاعه هو يوبا. أما جيشه المستأجر وان كان كثيفا فهو سور من الرمل، لا يثبت أمام العاصفة، ولا يقف في وجه السيول. لهذا شرع يفتل ليوبا في الذروة والغارب، ويؤكد ما واعدوه به فاروس. فأعانه يوبا بأربع فرق من جيشه المدرب القوي، فيها اثنا عشر ألف مقاتل، ومائة وعشرين فيلا، وبجمهور كبير من المتطوعين البدو الشجعان. فتنفس سبيون الصعداء ففرح بهذه القوة. وكان هو الذي يقوم بنفقاتها، ويدفع لها أجورها الكبيرة.

دهاء يوبا مع سبيون

وكان سبيون يتملق يوبا ويخضع له، ويمتثل أوامره، ويعمل بما يشير به عليه. فوجد يوبا فرصته للكيد لسبيون. انه يريد ان يفسد القلوب عليه في افريقية، ويضعفه ليكون دائما في حاجة إليه، وتحت سيطرته. وكان سبيون في حاجة إلى الميرة والى المال لنفقات جيشه وجيش يوبا فأشار عليه بمطالبة الفلاحين من البربر في الولاية الرومانية بتقديم ما يحصدون ليستولى عليه بدون ثمن أو أبخس الأثمان وبمطالبة التجار بالأموال الكثيرة. أشار عليه بتجنيد البربر في الولاية الرومانية وهم كارهون. كل ذلك ليفسد عليه قلوب البربر، ويهيئ البربر للثورة عليه إذا وصل وقت الانقضاض عليه ليظهر افريقية من الرومان. وقد فعل سبيون ما أشار به يوبا، فكان يطالب البربر بأموالهم

وزروعهم. ومن أبى أرسل عليه جنده فهدم داره واتلف أمواله. فهدم لذلك قرى كثيرة، وقتل من البربر ما لا يحصى ! ! فازداد البربر عداوة للرومان، واتجهت قلوبهم إلى يوبا، ورجوا ان يكون خلاصهم من المستعمرين الجشعين.

وأشار يوبا على سبيون، ليفسد قلوب الرومانيين عليه أيضا فلا يجد نصيرا إذا هم بقذفه في البحر؛ أشار عليه بقتل شيعة قيصر من الرومان في الولاية الرومانية، انه ليس من الحنكة والحزم الإبقاء عليهم وهو يستعد لمحاربة قيصر. إنهم جواسيس للأعداء. سيضربونه من الخلف إذا اشتبك بقيصر في معركة حامية. لابد من القضاء عليهم جميعا صغارهم وكبارهم، رجالهم ونسائهم! فأبى سبيون ان يمتثل لان العملية الجراحية ستجرى في لحم رومانى. وهو لحم كريم عنده، ليس كلحوم البربر الذين يحتقرهم ويضطهدهم، ويراهم حشيشا يابسا في طريقه، يطؤه بأقدامه، ويشعل فيه النيران!

وكان قيصر يتتبع حركات سبيون وحزبه. فلما علم بإمداد يوبا له، وانحيازه إليه، وعرف قوته واستعداده، اغتم لذلك واهتم به كل الاهتمام. فعزم ان يعاجل سبيون فيقضي عليه في افريقية قبل ان يسير هو إليه بفرسان نوميديا، وبقوة يوبا فيحاربه في روما، فيسترجع النفوذ الذي خسره حزبه بالهزيمة التي حلت به.

استمالة قيصر لبوغيد الأول

وكان قيصر يعلم قوة يوبا، وشجاعة جنده، ونظامه العسكري البارع. ويعلم دهاء يوبا وكيده لعدوه، وعبقريته في قيادة الحروب، وإدارة المعارك فأيقن انه لا يستطيعه وحده. فلابد من نصير من البربر يعينه فيضرب يوبا من خلفه، ويطعنه من ظهره إذا اشتبك به. وكان يعرف بوغيد الأول ملك موريطانيا الغربية، وأخاه بوكوس الثاني ويعرف أطماعهما، وحسدهما ليوبا الأول. فأرسل إليهما يستميلهما، ويعدهما على النصرة بموريطانيا الشرقية وجزء من نوميديا. فمالا إليه، وأصبحا من حزبه، وواعداه بالزحف على دولة يوبا وضربه من خلفه. فسر قيصر بهذا وأطمأن بعد خوفه فصر بأسنانه، فأذن في أنصاره وجنوده بالاستعداد للحرب. فحمسهم وأشعل نيرانهم فاقلع بهم لحرب يوبا وسبيون.

وكان قيصر مهما بهذه الحرب كل الاهتمام. وكان يعرف قوة يوبا وشجاعة البربر فسار إلى الحرب بنفسه، وتولى هو قيادة جيوشه، ولم يكتف بأحد قواده

نزول قيصر في افريقية وحروبه فيها

وفي أكتوبر من سنة 47 ق.م نزل قيصر في نواحي اقليبية في الشمال الشرقي لافريقية. وعندما نزل من السفينة عثرت رجله فسقط على الأرض، فأنشب يديه في الأرض فتناهض وهو يصيح :»افريقية قد قبضتك» وإنما فعل ذلك حتى لا يتطير جيشه. وهذا يدل في قيصر على الذكاء وسرعة البديهة.

وكان سبيون يترقب مسيرة قيصر إليه. فعلم بنزوله في افريقية في جيش كبير، واستعداده للزحف عليه. فشرع في الاستعداد والاستكثار من الجيش. ولكن بمن يستعد، وعلى من يعتمد؟ ان بربر الولاية الرومانية قد تغيرت قلوبهم عليه لفظائعه في أموالهم، وظلمه لهم، وتهديمه لقراهم. فهم أعداؤه الألداء، يعملون لموته لا لحياته ويصنعون له هزائمه لا نصره. والرومان في الولاية الرومانية شيعة لقيصر. فاتجه سبيون إلى يوبا وسأله ان يدخل معه في الحرب بكل جيشه وقواه، وعلى ان يجلو مع الرومان كلهم من الولاية الرومانية فيتركها له، يبلغ ما يريد. فعلم يوبا ان فرصته لتحقيق أمله الكبير قد حانت، وان سبيون قد تجرد من قوته بفساد القلوب عليه في الولاية الرومانية وصار كما يتمنى ضعيفا يحنى الهام له، ويخضع لشروطه. فشمر يوبا لنصرته، ودخل معه الحرب بقوة كبيرة من جيشه، وبعدد كثير من جيشه، وبعدد كثير منة أفياله.فتنفس سبيون الصعداء، وأحس بالقوة والمنعة، فصر بأسنانه، ونظر بعين النمر إلى قيصر.

وفي نوفمبر سنة 47 ق.م هجم ضباط يوبا وسبيون على قيصر، فوقعت بينهما أول معركة. فأحاط الجيش البربري القوي، وجنود سبيون بقيصر وكادوا يهزمونه، فرأى الموت الأحمر في أحداق البربر وسيوفهم يحدق به، فلم ينج من المعركة إلا بدهاء كبير وحظ سعيد. فتقهقر إلى معسكره الحصين فاعتصم به.

مكيدة قيصر ليوبا

وكانت هذه المعركة صغيرة لم يحضرها يوبا ولا سبيون. فرأى فيها قيصر من الهول ما رأى. فأيقن قيصر بالهزيمة في المعركة الفاصلة التي تستقبله. تلك المعركة التي يقودها يوبا ويشارك فيها سبيون. ان المحق هو ما يهدده إذا بقي وحيدا في هذه الحرب. فأرسل إلى بوغيد وأخيه بوكوس الثاني يسألهما الوفاء بالوعد، وهو الهجوم على مملكة يوبا وضربه من خلفه إذا اشتبك به في الحرب المقبلة.

وكان سيتيوس جنديا في الجيش الروماني، وكان باسلا. فترقى إلى ان صار واليا، ثم

عزل. فساءه العزل فجمع جيشا من اللصوص والمتشردين فصار يؤجره لمن يستنصر به من الملوك المتنافسين في أوروبا. وكان منصور الراية. وكانت له سفن يحارب بها في البحر أيضا. فاستماله قيصر ورغبه في نهب نوميديا وفي الولاية على جزء منها فأرسله إلى بوغيد وبوكوس ليكون معهما إذا هجما على يوبا من خلفه. فوصل سيتيوس موريطانيا الغربية بعصابته المسعورة، فوضع الخطة مع بوغيد وبوكوس للهجوم على مملكة يوبا والعيث فيها ليرغما يوبا على الرجوع لحماية مملكته، فيقسمان الجيش الذي يحاصر قيصر، فيضعف سبيون بتخلي يوبا عنه، فيكر عليه قيصر فيهزمه. هذه هي الخطة التي وضعها قيصر، هذا كيده ليوبا، فعزم بوغيد وصاحباه على تنفيذها.

استعداد يوبا للمعركة الفاصلة

وكان يوبا وقعت المعركة الأولى مع قيصر يتأهب لسير إلى ساحة الوغى ليصدم قيصر بجيشه القوي فيقضي عليه، ويرغم سبيون على الوفاء بوعده والجلاء بقومه من افريقية. فأعلن التعبئة العامة في دولته، وإذن في المدن والبوادي: ان قد دقت ساعة الجهاد الأكبر لسحق العدو المغير، وتحقيق حلم البربر الكبير،وهو جلاء الرومان من افريقية، وتظهر المغرب من عدوه. فنثال عليه المتطوعين من ناحية، من الجبال والسهول، ومن المدن والقرى. فسار في جيشه المنظم، وفي سيول من المتطوعين كانوا ينضمون إليه في طريقه. فقصد الولاية الرومانية ليدحر قيصر. فنزل وراء جيش سبيون. فشرعوا يستعدون للمعركة الفاصلة.

هجوم صنائع قيصر على يوبا من خلفه

وكان يوبا يجهل ما دبر له قيصر في الخفاء. وما كاد يتأهب للهجوم على عدوه حتى هجم الأوغاد الثلاثة سيتيوس وبوغيدة الأول وبوكوس الثاني في جيوشهم الكبيرة على موريطانيا الشرقية فوصلوا إلى نوميديا الوسطى والشرقية مملكة يوبا فاعملوا فيه الحسام ونهبوها،وارتكبوا فيها كل ما تسول لهم نفوسهم الدنيئة من الفظائع. وقصدوا مدينة كان يوبا قد اتخذها مستودعا لسلاحه وذخائره فاستولى على تلك الذخائر والسلاح، ونهبوا ما فيها. ثم قصدوا أهم المدن في نوميديا الشرقية فنهبوا، وخربوا، وأشعلوا النيران. فأمست مملكة يوبا في مخالب هذه الوحوش الكاسرة، مثخنة بالجراح، غريقة في الدماء والدموع، قد تسلطت عليها أفدح النكبات!

وطارت الأنباء الأليمة إلى يوبا، فعلم بما حل في مملكته، فلم يسعه إلا الرجوع

لإنقاذها. فرجع بأهم قواه، وبخيرة جنده، فلم يترك مع سبيون إلا عددا قليلا من فيلة غير مدربة، وطائفة يسيرة من جيشه. فضعف سبيون بهذا فلم يستطع مجابهو قيصر. فاستغاث بيوبا، وألح عليه في الرجوع، وذكره بوعده له بالجلاء، واراه خطر انتصار قيصر عليه وعلى المغرب. فما زال بيوبا يستعمل كل وسيلة للتأثير عليه حتى سمع له يوبا. وعلم ان انهزام سبيون سيجعله بين نارين، بوغيد الأول وصاحبيه في داخل مملكته، وقيصر الهاجم عليه. فترك قائده صبورة مع قسم من الجيش يكافح الأوغاد الثلاثة، ورجع هو بجزء من جيشه ليشد أزر سبيون.

«عاد يوبا إلى سبيون بألف من المشاة، وثمانمائة فارس، وثلاثين فيلا. ونزل في العشرين من ديسمبر بجيشه خلف جيش سبيون. وفي التاسع والعشرين منه وقعت معركة شديدة بين المتحاربين».[104]

وكان قيصر هو القوى في هذه المعركة الناشبة. وذلك لاختلال نظام يوبا بما داهمة من خلفه، وتفرق قواه، وحيرته لما يقع في مملكة. لم يكن بكله في معركة كان يجب ان يحصر فيها كل قواه وكل فكره.

وكان قيصر داهية فبالغ في الكيد ليوبا. فدس في جيشه من استمال قسما كبيرا من الجيتوليين الذين يصول بهم يوبا. فمازال بهم بغريهم وبمنهم، ويثير أحنهم القديمة حتى بلغ فيهم مراده «ففر في يناير (46) إلى قيصر كثير من جنود يوبا الجيتوليين بلغ عددهم ألفا. وسبب ميلهم إلى قيصر ان ضباط هذه الفرقة كانت لآبائهم أراض انتزعها منهم والد يوبا هيمصال. وأعادها عليهم ماريوس بعل عمة قيصر»[105] ففت هذا الحادث في ساعد يوبا، وتضعضع جيشه بهذا الارتداد، فانحطت معنوياته. فصار يحارب ليؤخر الهزيمة لا ليكتسب النصر. فوالى قيصر عليهم الهجوم، ووقعت بينهم حروب مهولة كان آخرها معركة طبسوس الفاصلة في رأس الديماس في شرق افريقية في جنوب مدينة المنستير في سنة 46 ق.م. فاضمحل جيش سبيون وانهزام شر هزيمة، وفر جنوده. وركب زعماء حزب بمبايوس سفنهم وفروا إلى الأندلس، ومنهم من انتحر كما فعل كاطون.

انتحار يوبا ونهاية الدولة البربرية الكبرى

وبقي يوبا وحده في الميدان، وأيس من التغلب على قيصر فأبى ان يقع في قبضته أسيرا

104 - تاريخ الجزائر للميلي ج 1 ص 157 ط بيروت.

105 - تاريخ الجزائر للميلي ج 1 ص 158 ط بيروت 1963م.

فيذهب به إلى روما كما فعل ماريوس بيوغورطة! فذهب إلى عاصمته (جامة ريجيا) فأولم وليمة كبيرة أكثر فيها من الطعام والشراب. فجرد سيفه فتحامل عليه لينتحر فغلبه السكر فلم يستطع الانتحار! فأمر احد عبيده بقتله. فنهال العبد بالسيف على يوبا وعلى أمل المغرب في النجاة من الاستعمار الروماني فقتلا معا. فجثم الرومان الجشعون على المغرب يلتهمونه كما أرادوا. ان روحه هي يوبا ودولته القوية وقد زالا!

وكان يوبا هو آخر ملك بربري قوي وعهده هو آخر عمر الدولة البربرية الكبرى. ثم وضع الرومان أيديهم على المغرب فقسموا الدولة البربرية[106] وقطعوا أوصالها ثم ازدردوها قطعة قطعة فزالت من الوجود.

كان يوبا الأول ملكا عللا غرب افريقية وعلى نوميديا الشرقية والوسطى. وتشتمل دولته على غرب افريقية وجنوبها، وعلى الساحل إلى مدينة طرابلس، كما تشتمل على نوميديا على نوميديا الشرقية والوسطى إلى شرق جيجل وغرب مدينة ميلة.

أما الملك مصينيسا الثاني فكان ملكا على نوميديا اسطيفية وعلى موريطانيا الشرقية. وحد نوميديا اسطيفية من شرق جيجل وغرب مدينه ميلة إلى غرب مدينة صلداى (بجاية).

إخلاص مصينيسا الثاني ليوبا وإعانته في الحرب ونهايته

وكان مصينيسا الثاني وطنيا مخلصا. فوقف بجانب يوبا في حروبه مع قيصر. وأرسل جيشه لمحاربة قيصر. ولما زحف بوبكوس الثاني وسيتيوس استولوا على مملكته موريطانيا الشرقية ونوميديا اسطيفية وعاثوا فيها فسادا، قد يكون مصينيسا قتل وهو يدافع هؤلاء الوحوش الضارية في سنة 47 ق.م ان التاريخ لم يحدثنا من زمن وفاته. انه لو عاش بعد يوبا الأول لأسره الرومان، أو يقوم بأعمال ضدهم فيرد ذكره في التاريخ. ان جهاد يوبا وشخصية يوبا، ومملكة يوبا الواسعة قد غطت على أحداثه، واندرج تاريخه في هذه الفترة في تاريخ يوبا.

وكان عهد يوبا في الملك عهد سكون وهناء في الداخل. لم يثر عليه ثائر، ولا نافسه منافس من رعيته. لقد كان شعبه راضيا عن سياسته وسيرته، معجبا بشخصيته وإخلاصه فسكن سكون الرضا والمحبة. وكان عهده مملوءا بالجد والنشاط في كل الميادين. فلم تتسع أيام الدولة للمنازعات التي تقع فيها الدول الكسولة التي لا تعرف إلا

106 - المراد بالدولة البربرية الكبرى هي دولة مصينيسا الأول. انظر حدودها في الخريطة في آخر هذا الجزء.

إشباع شهواتها، أتباع أهوائها. وكان العدو الخارجي الذي يهدد الدولة من أسباب اتحادها وسكونها والتفافها حول ملكها القوي المخلص.

وكان من أسباب سكون الدولة ما كانت فيه من نعيم ورخاء ورفاهية. لقد أتت جهود كل الملوك الذين تقدموا يوبا أكلها في ميدان الحضارة. فأمست الدولة البربرية الكبرى مفعمة بخيرات الله التي أفاضها عليها. وكانت الثقافة الشائعة في طبقات الدولة مما أشاع الإخاء والسلام في هذه الدولة المتحدة المتآزرة.

وكان عمر يوبا لما توفي في الخمسين أو أكثر. ان صورتاه المنقوشة في نقوده تمثله في الخمسين أو أكثر.

وكان عهده في الملك نحو خمس سنين. من سنة 50 إلى أول سنة 46 ق.م. وقد ذكر بعض المؤرخين ان ولايته الملك كانت في سنة 67 ق.م ولا أرى ان هذه الرواية صحيحة لان يوبا لو ولي في تلك السنة لكان له في تلك الحقبة الطويلة أعمال جليلة لا يسكت عنها التاريخ. ان ولايته كانت في سنة 50 ق.م. ان عهده كان قصيرا في الملك، ولكن أعماله كانت كمثيرة عظيمة! فلو لم تثر زعازع الرومان في عهده فشغلته الحروب، وقصر عهده في الملك، لرأى منه المغرب ما جنى من مصينيسا الأول من أعمال كبرى، ونتائج لا تحصى في ميدان البناء والتعمير.

كان يوبا الأول عظيما من عظماء البربر، وبطلا من أبطال المغرب، وابنا بارا لامته فيجب على المغرب ان يعتني بتاريخه، ويحي ذكراه!

كانت وفاة يوبا في شهر يناير 46 ق.م فبكته السماء بأمطارها، وشاهدت الدنيا جبال الأطلس الشماء وهي تبكي في مأتمه، والدموع تشق خدودها، وتجرى انهارا في الثرى!

لقد فجع البربر بوفاة يوبا، وتفطرت قلوب المغرب بفقده، فشقوا أعلام الحروب لا ثيابهم. لان البربر ما عرفوا في عهده -لما نفخ فيهم من بطولة وباس- ثيابا إلا أعلام الحروب!

أيتها السيوف الخادرة في الأغماد، قد خدرتها الأحزان، وعقلتها الأشجان. لا يطل بقاؤك ساكنة. ان يوبا قد ذهب، ولكن المغرب الذي أنجبه باق لا يذهب!

انه ولود منجب. سترين يا سيوف الهند من أبنائه في كل زمان من يرضيك، ويسطر بك في جبين كل الدهور: ان البطولة والعظمة للمغرب الكبير!

ماذا وقع للدولة البربرية الكبرى بعد يوبا؟ لقد وقعت فريسة هامدة، وجثم عليها

الرومان فمزقوها إربا، ودخلت في أيام النزع والاحتضار! كيف قطعت هذه الدولة، وكيف ماتت، وفي عهدَ مَنْ مِنْ ملوكها الضعاف؟

تقسيم الدولة البربرية واحتضارها 46 ق.م.

كان الرومان قد عزموا على امتلاك المغرب والقضاء على دوله، ولكنهم يخافون ثورات البربر وعدم خضوعهم للعدو المغير. فآثروا سياسة المراحل، وهي الاستيلاء عليه جزءا جزءا، وإضعافه بالتقسيم، وتولية صنائعهم على أقسامه ليمهدوا لهم بإخضاع البربر وإخماد الحماسة الوطنية فيهم، وتعويدهم مد الأيدي والأرجل للقيود.

وكان عهد يوبا الأول هو آخر عهود الدولة البربرية في الاستقلال، ثم جثم عليها الرومان فقطعوا أوصالها وقسموها إلى ثلاثة أقسام.

غرب افريقية، وجنوبه، والساحل إلى طرابلس، ونوميديا الشرقية، وحدها من شرق طبرقة إلى شرق مدينة روسكاد (سكيكدة) هذه استولى عليها قيصر وجعلها ولاية رومانية ثانية، وسماها الرومان (إفريقيا نوفا) أي ولاية افريقية الجديدة.

ومن شرق مدينة روسكاد إلى غربي مدينة ميلة وشرق مدينة جيجل وهي نوميديا الوسطى استولى عليها ستيوس بإعانة الرومان ورغبتهم.

ومن شرق مدينة جيجل وغرب مدينة ميلة إلى غرب مدينة صلدى (بجاية) وهي نوميديا اسطيفية استولى عليها بوكوس الثاني وكذلك موريطانيا الشرقية.

كان هذا التقسيم بأمر من الرومان فوافق هوى الذئاب الثلاثة. فتمزقت الدولة البربرية فصارت تعاني سكرات الموت. وقد سكن البربر وخضعوا في أول الأمر. فاستطاعوا ان يخمدوا هذه الثورة. فمن هو هذا البطل الذي جدد للبربر حماسهم، فنهضوا ينفضون ظهورهم القمل الخبيث الذي يرتع فيها. ومتى ثار؟ وما نهايته؟.

ثورة عرابيون بن مصينيسا الثاني

لما انهزم المبيايوسيون في افريقية سنة 46 ق.م. وتغلب عليهم قيصر، فر سبيون وكبار حربه إلى الأندلس. وكانت لهم فيها شيعة قوية، فرجوا ان يكون لهم هناك من الفوز والنصر عللا قيصر ما لم يكن لهم في افريقية وايطاليا. فشرعوا في الاستعداد. فزحف إليهم قيصر بجيوشه، فحاربهم في الأندلس، فوقعت بينهم معارك

عنيفة. وكان نجم المبيايوسيين قد أفل، وأدواء الشيخوخة التي فتكت بالجمهورية كانت تضعفهم، فانتصر عليهم قيصر فقضى عليهم.

وكان من اللاجئين إلى الأندلس بعد انهزام يوبا الأول ومصينيسا الثاني، واستيلاء الأعداء على مملكتيهما عرابيون بن مصينيسا الثاني.

وكان عرابيون شيخا مقداما، غيورا على أمته، أبيا، يأبى ان ينام ووطنه يرسف في أغلال الذل والعبودية، ويخلد إلى الراحة، وثأر أبيه وابن عمه وزعيمه يوبا دين في عنقه. لابد من سحقك أيتها الذئاب التي تمرح وتعوي في نعقل الأسود ! فما ان بلغ عرابيون الأندلس حتى شرع في الاستعداد. فجمع جيشا من الرومان ومن الأوروبيين الثائرين على دولهم، ومن المقاتلين الذين يحاربون للغنيمة. فنظمهم ونفخ فيهم روحه، وقادهم قيادة حسنة جعلت منهم أحسن فرقة في جيش سبيون. فخاض عرابيون المعارك ضد قيصر حتى رأى نجم المبيايوسيين يميل إلى الأفول، وعلم ان عاقبتهم هنا كعاقبتهم في افريقية. فكف عن القتال، واختبأ في الأندلس هو وجيشه. فشرع يرقب الفرصة لاسترجاع ملك أبيه حتى واتته بعد وفاة قيصر فهب لاغتنامها.

كان ذلك في سنة 44 ق.م. وكان قيصر قد قتل في هذه السنة فوقع نزاع دموي كبير بين الجمهوريين والقيصريين، واحتدمت معارك طاحنة بينهم في روما شغلهم عن الاعتناء بالمغرب. ومات بوغيد الأول ملك موريطانيا الغربية في هذا العام أيضا فخلفه ابنه بوكوس الثالث في الملك. فعلم عرابيون ان الرومان لا ينجدون بوكوس الثالث إذا هجم عليه لاشتغالهم بالحروب الداخلية؛ وان بوكوس الثالث وبوكوس الثاني بدون الجيوش الرومانية قوة يستطيع التغلب عليها. فرجع عرابيون في سنة 44 ق.م. إلى نوميديا اسطيفية بجنوده. فلا بد ان يكون قد اعتصم ببعض الجبال المنيعة. فما ان رآه البربر حتى ابتهجوا به، ورأوا العز والحرية في طلعته، وشاموا اليمن والسعادة فيه. وكانوا يتلهفون إلى من يقودهم في الثورة على الأعداء الذين قضوا على دولتهم، ومرغوهم في الذلة والصغار، فالتفوا حوله، ونصروه وأيدوه. فشرع عرابيون يستعد للثورة. فكون من البربر جيشا فصار يدربه على احدث الأساليب في القتال. فلما تم استعداده هجم على بوكوس الثاني وبوكوس الثالث فوقعت له معهما حروب طاحنة. فهزمهما إلى موريطانيا الشرقية فاستولى على مملكة أبيه نوميديا اسطيفة.

اغتيال عرابيون لسيتيوس وانضمام نوميديا الوسطى إليه

وكان سيتيوس قد لازم الحياد في هذه الحرب لخوفه من ثورة البربر عليه في نوميديا

الوسطى فيقع بين نارين. ورأى قوة عرابيون فأراد ان يتزلف إليه بحياده ليكف عنه. ولكن هل يكف عنه عرابيون. انه ركام السماد والسموم حول مورده هل يبقي عليه؟ لابد من سحقك أيتها الأفعى القتالة ! فصار عرابيون يشعر بسيتوس مسامير في مضجعه، وحماة في شرابه. وكان البربر في نوميديا الوسطى كلهم يتمنون ان يخلصهم منه. فدس إليه من اغتاله. فضم نوميديا الوسطى آلة مملكته. وبقيت نوميديا الشرقية. فصار يستعد ويرقب الفرصة للهجوم عليها وافتكاكها من الرومان، ثم الهجوم على افريقية، وتطهير المغرب من الرومان. فيحقق أمل مصينيسا الأول ويوغورطة، ويوبا الأول.

وكان عرابيون يتمنى ان تطول الحرب الأهلية في ايطاليا فتضعف الرومان فيستطيع الهجوم عليهم في نوميديا الحديثة وافريقية. ولكن القيصريين والجمهوريين اصطلحوا فاعتنوا بافريقية ونوميديا الحديثة. وكانوا يرون عرابيون شرا يهددهم. وكانوا يعرفون ان الهجوم عليه يثير المغرب عليهم فيخضون حروبا طاحنة لا يدرون عاقبتها.

فجعلوا نصب أعينهم اغتيال عرابيون. فاغتاله والي افريقية سكسيوس في سنة 42 ق.م فكان عهده في الملك نحو سنتين. فاستولى الرومان على نوميديا الوسطى فصارت تحت نفوذهم، وهجم بوكوس الثالث وعمه بوكوس الثاني على نوميديا الغربية فملكاها. ثم وسعا حدودهما شرقا حتى بلغت وادي مساغة في غرب قرطة. فصارت مملكة بوكوس الثالث وبوكوس الثاني تبتدئ من المحيط الأطلسي وتنتهي في غرب قرطة. وكانت الصحراء (جيتوليا) وجبال آوراس، وجبال القبائل غير خاضعة لهما. ودامت هذه البقاع الشاسعة تحت الملكين الموريطانيين إلى ان انقرضت الدولة الموريطانية الغربية في سنة 33 ق.م فأقام اوكتافيوس على تلك البقاع: نوميديا الغربية والموريطانيتين واليين رومانيين. وفي سنة 25 ق.م ولى الملك يوبا الثاني على نوميديا، ثم ولى في سنة 17 ق.م على الموريطانيتين. فمن هو هذا الملك؟ ما شخصيته؟ وما غرض الرومان من توليته؟

ولاية يوبا الثاني في المغرب 25 ق.م . 23 م

نشأة يوبا الثاني وشخصيته

يوبا الثاني ابن يوبا الأول. ولد في سنة 50 ق.م في أول عهد أبيه في الملك. ولما توفي والده في سنة 46 ق.م كان عمره أربع سنين.

فأخذه يوليوس قيصر فعرضه في موكب النصر بروما. وكان يوليوس قيصر قد رأى

في يوبا علامات النبوغ وقوة الشخصية، فأعجب به فتبناه، فسماه يوبا أحياء لاسم أبيه البطل وذكراه. واعتنى بتربيته، فأنشأه نشأة رومانية، وحرص كل الحرص على ان يصبغه بصبغة الرومان ليكون في المستقبل صديقهم لا عدوهم. ولما توفي يوليوس قيصر في سنة 44 ق.م كفله الإمبراطور قيصر أغسطس، خليفته في الرئاسة. وأعطاه لأخته (أوقطافيا) زوجة انطونيوس فاعتنت به كل الاعتناء، وملأته بحب الرومان وتمجيدهم. فنشأ رومانيا في عواطفه وعاداته واتجاهه.

وكان يوبا الثاني يحمل وراثة أبيه. وكان طموحا جريئا ذكيا كل الذكاء مثله فصرف أغسطس هذا الطموح إلى طريق العلم. وأبى ان يترك شخصية يوبا الحربية تظهر. فان الشخصية الحربية تورث لصاحبها الحماس والغيرة القومية وتبعث صاحبها على الثورة. فادخل يوبا في مدارس روما فتلقى العلوم والفنون فيها من أساتذتها الرومانيين والإغريقيين. فبرع في اللغتين الإغريقية والرومانية.

نبوغ يوبا في العلم والأدب وإعجاب أهل عصره بعبقريته وتآليفه

وكان الرومان مفتونين بحضارة الإغريق وبفلسفتهم. وكانوا يستقدمون علماء أثينا وينتفعون بهم في مدارسهم. فروث يوبا الثاني من كافليه حب الحضارة الإغريقية ففتن بأدبهم، وفلسفتهم، وفنونهم. فاقبل عليها في جد وحماس، كما اقبل على العلوم السائدة في عصره فنبغ فيها، وسطع نجمه في سماء العلم والأدب، فأصبح في روما من كبار العلماء والأدباء، وممن يشار إليهم بالبنان في العلوم والأدب.

وكانت شخصية يوبا علمية أدبية. لقد اتصف بكل ما يستلزمه الأدب والعلم من صفات راقية في عقل المرء وخلقه. وكان ذكاؤه العلمي ومعرفته للنفس الإنسانية قد أجدى عليه في ولايته على الأقطار. فعرف كيف يخدرها، ويورثها السكون للرومان، فتمكنوا من ناصيتها، وأخضعوها لسلطانهم.

كان يوبا الثاني من نبغاء عصره في الأدب والتاريخ، والجغرافية، وفي اللغة الإغريقية والنحو، وفي الطبيعة والكيمياء. فوضع في هذه الفنون تأليف نفيسة باللغة الإغريقية. ومن تآليفه: تاريخ روما منذ نشأتها إلى عهد كافله قيصر أغسطس، وكتاب في جزيرة العرب وجغرافيتها، وكتب عن الآشوريين، وعن المغرب، وألف في التصوير، والتمثيل، والطب، وألف رسالة في أسباب فساد اللغة الإغريقية. كما كتب عن الإغريق كثيرا. وقد بالغ في تمجيدهم وذكر عظمتهم، وذلك لافتتانه بهم وبمدنيتهم.

وكان يوبا الثاني مغرما بالبحث والاطلاع، فأرسل بعثات علمية للبحث عن منابع النيل، وعن أصل الجزائر الخالدات (الكناري).

وكان الإغريق معجبين بعبقرية يوبا الثاني وتآليفه، فأقاموا له هيكلا في أثينا اعترافا بفضله ونبوغه !

حب قيصر ليوبا وتزويجه من كيلوباترة سيلينة

وكانت اوقطافيا أخت قيصر أغسطس، وقيصر يحبان يوبا الثاني ويعجبان به، فزوجاه من كيلوباترة سيلينة التي كفلها أغسطس ونشأت مع يوبا في حجر اوقطافيا.

وكان اوكتافيوس (وهو قيصر أغسطس) قد غزا مصر فانتصر عليها وعلى الملكة كيلوباترة، فاخذ ابنتها التي تبلغ من العمر اثنتي عشرة سنة فسماها كيلوباترة، ولقبها الرومان سيلينة (القمر) إعجابا بجمالها الفتان. وقد تبناها أغسطس ونشأت مع يوبا في حجر اوقطافيا أخت أغسطس. ولما كبرت كيلوباترة وصارت في العشرين من عمرها، وكبر يوبا الثاني وصار في الثلاثين، رغبت اوقطافيا في ان يتزوج يوبا كليوباترة. وكان يوبا يحبها. فنفذ أغسطس رغبتها فآثر يوبا بالأميرة الجميلة التي أعجب بها الرومان فلقبوا بالقمر (سيلينة) فبني بها يوبا الثاني في سنة 20 ق.م.

وكانت سيلينة بنت كيلوباترة ملكة مصر، وأبوها انطونيوس من زعماء الجمهوريين في روما فهي رومانية بالأب والنشأة. وكانت من أسباب جنوح يوبا الثاني إلى الرومان وإخلاصه لهم.

ولاية أغسطس ليوبا الثاني على مصر

وكان أغسطس معجبا بالإخلاص يوبا الثاني لروما. فأراد ان ينتفع به في ميدان السياسة. فولاه على مصر في سنة 30 ق.م. فأبدى كفاءة في الإدارة والسياسة ودام في ولايته خمس سنين. إلى سنة 25 ق.م.

ولاية يوبا على نوميديا

وكان قيصر يحس بالمغرب كله ينتقص ويرقب الفرصة للثورة عليهم. سيما نوميديا. فإنهم وطئوها برجلهم ليزهقوا روحها، ولكنها تتخبط وتأبى ان تهمد، وتتحفز للوقوف على قدميها فتصارعهم. فرأوا ان يولوا عليها يوبا، فان البربر يسكنون له، وهو سيخدمهم، ويمكن الرومان من نواصيهم، ويذلل لهم نوميديا فيتخذونها مستعمرة، ويجعلونها من أملاكهم في المغرب.

وفي سنة 25 ق.م. ولى الإمبراطور أغسطس يوبا الثاني على نوميديا الشرقية والوسطى فدام واليا عليهما إلى سنة 17 ق.م. وقد جعل عنانهما يسلس للرومان، والبربر فيهما يألفون القيود الرومانية، وذلك لإخلاصه للرومان، ولذكائه وحنكته السياسية. ثم نقلوه إلى الولاية على نوميديا الغربية والموريطانيتين، والحقوا نوميديا الشرقية والوسطى بالولاية الرومانية في افريقية، والتهموا هذه القطعة الأثيرة من المغرب، فصارت في أحشائهم.

وكانت ولاية يوبا على نوميديا نحو تسع سنين. وكان روماني العواطف والاتجاه، ولكن البربر سكنوا له وآثروه على الرومان، لأنه بربري الدم، ولأنه يتصف بلطف العلماء، ومرونة الساسة، ولم يكن على جفاء وغطرسة الرومان العسكريين.

وكانت الدماء البربرية تجعل يوبا يعطف كثيرا من العطف على البربر، ويسحن إليهم وان كان ذلك الإحسان لا يتجاوز بث الحضارة الإغريقية فيهم، ومباهجتها، ونعيمها ولذاتها، وهو شيء يرضي الرومان كل الرضى لأنه الشخصية الحربة في البربر، ويخمد الروح الثورية فيهم، ويهيئهم للقيود والعبودية.

ولاية يوبا الثاني على نوميديا الغربية والموريطانيين

وكانت ولاية يوبا الثاني على نوميديا الغربية والموريطانيتين الشرقية والغربية في سنة 17 ق.م. فأصبحت البقاع التي يدبرها واسعة الأرجاء. تمتد من المحيط الأطلسي غربا إلى شرق جيجل. وكانت جيتوليا مستقلة عنه لا يخضع له إلا بعض أجزائها الصغيرة في الشمال. وكذلك آوراس، وجبال القبائل.

وكان يوبا الثاني في ولايته الثانية في المغرب كما كان في الأولى رومانيا في أهدافه وعواطفه، ليس همه إلا إخضاع البربر، وتعليمهم مد الأرجل والأيدي للقيود. وقد استطاع بدهائه ان يجعل البربر يسكنون في أول الأمر، ولكنهم لما عرفوا انه روماني في نفسه استعماري في أهدافه ثاروا عليه.

تعلق يوبا الثاني بالقيصر أغسطس وتمجيده له

وكانت عاصمة يوبا الثاني في ولايته الثانية هي مدينة يول (شرشال) على الشاطئ في غرب مدينة الجزائر. وقد سماها قيصرية تمجيدا للقيصر أغسطس واعترافا بجميله. كما بنى معبدا في (يول) وأطلق عليه اسمه، واعتنى فيه بالعبادة والدين، وامتثالا لأوامر أغسطس الذي دعا دولته إلى الاعتناء بالدين، وإرضاء له. وأقام لأغسطس عدة تماثيل له

في عاصمته. ورسم صورته وصورة زوجته ووالته وأناطها بجدران أهم قصوره. لقد امتلك قيصر قلب يوبا الثاني، وامتلك الرومان كل حبه. فهو بربري بالاسم والدماء وحدها.

إعجاب يوبا الثاني بالحضارة الإغريقية وبثها في عاصمته

وكان يوبا الثاني مفتونا بالحضارة الإغريقية. فنشرها في عاصمته يول واتخذ كل وسيلة لاستمالة البربر إليها وبثها فيهم. وقد استقدم جماعة كبيرة من العلماء والفنانين والمصورين، والممثلين، والمزخرفين من أثينا لبث اللغة الإغريقية في المغرب، ولتجميل عاصمته. فأقاموا التماثيل في أنحاء العاصمة، وزينوها وزخرفوها، ومثلوا الروايات في المسارح، وجعلوا العاصمة (يول) كأثينا في الحسن والفن.

ثورة البربر على يوبا الثاني

وكان البربر ساكنين له في أول الأمر. وكان هو يصطنع رؤساءهم، ويتظاهر لهم بالغيرة والمحبة. فلما عملوا انه القيد الحريري الذي يريد ان يقيدهم للرومان، والشبكة اللطيفة التي ألقاها الرومان على المغرب لاقتناصه وذبحه، ثاروا عليه ثورات عارمة. وكان ممن ثار عليه الجيتوليون.

وكان الجيتوليون مستقلين تحت أمرائهم لا يخضعون ليوبا ولا للرومان. فرأوا يوبا تمتد يده إلى هامهم ليحنيها، ويحاول ان يمد نفوذه إلى جيتوليا ليخضعها أيضا لروما. فثاروا عليه في سنة 6 م. ثورة عارمة، فاشتبكوا به في معارك طاحنة، فهزموا جيشه، ومرغوه في التراب. فاستغاث بالرومان. فأسرعوا إليه بجيوشهم فاستعان بها في التغلب على الجيتوليين ودفاعهم عنه. ولولا الرومان لقضوا عليه.

وثار عليه في آخر أيامه تيقفاريناص واتسعت ثورته، وقضى الأعوام الأخيرة من عمره وهو يجهد لإخماد هذه الثورة فمات قبل ان تخمد.

لم يكن يوبا الثاني ملكا بربريا وان سماه الرومان ملكا ليخدعوا بذلك البربر، ويفتحوا قلوبهم له. لقد كان واليا رومانيا ولاه الرومان. وكانت حرابهم وجيوشهم هي التي تحنى له الهام في المغرب فلم يثر عليه.

لقد خدم يوبا الثاني الرومان، ولم يترك في المغرب من الآثار الحسنة إلا ما جمل به عاصمته يول. انها آثار رخيصة زائلة. كآثار الميت يتركها في المكان بالعطر الذي تضمخ به أكفانه !

وكانت كيلوباترة زوجة يوبا الثاني قد خلع الرومان عليها لقب ملكة. وكانت تشاركه في مظاهر الملك. فرسمت صورتها مع صورته في نقوده.

وكان من أسباب رسم صورتها في نقوده افتتانه بها وتمجيده للجمال. وتراها في نقوده متوجة برأس الفيل، وخرطومه فوق جبينها كالقرن الذي لا يصلح لزوجها شعارا غيره... !!

وفي سنة 6 م. ماتت زوجة يوبا (سيلينة) فحزن عليها حزنا شديدا، ودفنها في شرق عاصمته يول وبني على قبرها هيكلا ضخما.

وفاة يوبا وعمره ومدة ولايته

وفي سنة 23 م. مات يوبا الثاني فدفن مع زوجته في الهيكل الكبير. ولا يزال هذا الهيكل موجودا إلى اليوم. وقد تركه الروم فلم يقضوا عليه كما قضوا على هيكل مصينيسا الأول في (دقة)، وعلى قبور ملوك البربر العظماء وآثار أبطالهم المخلصين.

وكان عمر سلينة لما توفيت 46 سنة، وعمر يوبا الثاني لما مات ثلاثا وسبعين سنة ومدته في الولاية بالمغرب ثمان وأربعون سنة.

وكان يوبا الثاني قد ولد له من كيلوباترة ابن سماه بطليموس. فورث لقب الملك من أبيه، وأقامه الرومان على عرش الولاية ليواصل عمل أبيه في الضغط على هام المغرب لتنحني لهم. كيف كانت نشأة هذا (البطليموس) وشخصيته، ويف كانت سيرته وآثاره في المغرب؟

ولاية بطليموس في المغرب 23-40م

كان بطليموس قد نشأ في حجر أبيه الغني المتحضر، وأمه الغانية المترفة، فأفسده الترف والتدليل. فكان خاملا ضعيفا، بليد العقل، تتملكه شهواته ولذاته، فينصرف إليها، ويقضي جل أوقاته فيها.

وكان أبوه لحبه للحضارة الإغريقية قد اختار اسما يونانيا فسماه بطليموس. وقد اختار الرومان هذا الولد الضعيف فولوه خليفة لأبيه لأنه آخر وال بربري يولونه على ما تبقى من الدول البربرية، ثم يزدردون هذا الباقي. لذلك آثروا ان يكون الوالي ضعيفا تسهل إزاحته أو القضاء عليه إذا حان الوقت لابتلاع ما في يده.

وكان الرومان يظنون ان يوبا الثاني هو آخر من يولون في المغرب، ثم يجعلون الموريطانيتين ونوميديا الغربية ولايات رومانية يحكمونها بأنفسهم. ولكن يوبا الثاني مات والمغرب الأوسط والأقصى يغلي بالثورة العارمة فلم يستطع الرومان ازدرادهما. لابد من زمن آخر، ووال آخر من البربر يختفون وراءه حتى تبرد اللقمة فيبتلعوها. فاضطروا إلى توليه بطليموس.

وكان بطليموس لما ولى في الثامنة والعشرين من عمره. وكانت ولايته في سنة 23 م. فما كاد يستولى على عرش الولاية حتى استمر في طريق الشهوات الذي ألفه، وعكف على لذاته في قصوره، وترك أمور الولاية لحاشيته تتولاها.

وكانت ثورة تقفاريناص لما مات يوبا الثاني قد فترت بعض الفتور، ريثما يستجم ويستعد استعدادا آخر، وتحين الفرصة فيعيد الكرة على الرومان. ولما مات يوبا الثاني الذي كان فيه كثير من الحزم قاوم به الثورة، وتولى بطليموس الضعيف، وجد تقفاريناص فرصته فأعاد الكرة على الرومان. فمن هو هذا الثائر البربري البطل، ومتى ثار، وما ادوار ثورته التي صفق لها المغرب وأيدها؟

ثورة البطل المخلص تقفاريناص

كان تقفاريناص من البربر، وكان غيورا على قومه، مخلصا لامته. وكان شجاعا صنديدا، ذا شخصيته حربية ممتازة.

وكان تقفاريناص ضابطا في الجيش الروماني فأتقن أساليب الحرب الرومانية، وبرع في قيادة الجيوش، فأبى ان يترك مواهبه للرومان. فوهب نفسه للمغرب فقاده في ثورته.

وكان المغرب يغلي حقدا على الرومان، سيما جبال آوراس، وجبال القبائل، وتلال المغرب التي يحل فيها الأبطال من أبنائه. بودهم لو نزلوا من جبالهم كتائب ليسحقوا الرومان. ولكن يعوزهم القائد المحنك الذي يدربهم تدريبا عصريا، ويقودهم في الحروب. فعرف تقفاريناص هذا الاستعداد في البربر، فدهب إلى جبال آوراس المنيعة الواسعة فشرع هناك يستعد للثورة، ويدرب أبناء آوراس ومن أسرع إليه من البربر على احدث الأساليب في الحرب، ثم أعلن الثورة على الرومان.

كان ذلك في سنة 17 م. في عهد يوبا الثاني. فنزل تقفاريناص البطل في جنوده من جبال آوراس فهجم على بعض المراكز الحربية الرومانية في نوميديا فقتل جنودها واخذ أسلحتها. فرأى البربر ثورة تقفاريناص فهللوا لها. فانتشرت الثورة في المغرب من خليج

سرت في طرابلس إلى المغرب الأقصى. فأرسل البربر في تلك البقاع إلى تقفاريناص يبايعونه على الثورة، ويؤيدونه في نضاله.

وكان كاملوس والى الرومان في الولاية الرومانية في افريقية وادعا في قصره. فبلغته أنباء الثورة فارتاع لها الارتياع. فجهز جيوشه فسار ليخمدها قبل ان تتقوى وتنتشر نيرانها. فرأى تقفاريناص جيوش الرومان وقوة كاملوس فأبى ان يخوض معهم معركة كبرى. فعزم على حرب العصابات، والاستعانة بالجيتوليين الأقوياء، فتقهقر إلى جيتوليا فتحصن فيها.

عداوة جيتولية للرومان وتأييدها لتقفاريناص

وكان الجتيوليون يكرهون الرومان. فبودهم لو هجموا عليهم وطهروا المغرب منهم. فلما ثار تقفاريناص فرحوا فرحا كبيرا. فلما ذهب إليهم آزروه وأيدوه. فألف منهم جيشا دربه أحسن تدريب، وعلمه الأساليب الرومانية في القتال وقضى في الصحراء وهو يستعد نحو عام. وفي سنة 20م. هجم تقفاريناص بجنده من جيتولية على الرومان في وادي باجيدة في ناحية لمبس بشمال آوراس. وكان الرومان معسكرين بقوة كبيرة هناك. ففاجأهم تقفاريناص بكتائبه الباسلة التي أحاطت بهم فهزمهم شر هزيمة، فاحتل مراكزهم فغنم منها غنائم كثيرة. ثم أسرع إلى مدينة تالة في غرب افريقية فحاصرها ليحتلها. فأرسل الرومان عليه جيوشا جرارة علم انه لا قبل له بها فرجع إلى حرب العصابات. فاعتصم بالصحراء. وصار يغير على المراكز الرومانية كلما وجد فرصة فيضربهم الضربات القاصمة.

وكان البربر في أنحاء المغرب يؤيدون تقفاريناص. وكان الرومان مرتاعين بهذه الثورة يحسبون لها ألف حساب. وكان تقفاريناص يشعر بالقوة ويعتد بكثرة أنصاره في المغرب. فأرسل إلى إمبراطور الرومان (تيباريوس كلوديوس) يعرض عليه الصلح على ان يرجع الرومان إلى الولاية الرومانية ويكتفوا بها، ويجلوا عن بقية افريقية ونوميديا ليرجع إليها ملك أجداده. فرفض الإمبراطور طلبه. فأرسل إلى الجيتوليين فواعدهم بالعفو ان هم تخلوا عن تقفاريناص فوضعوا السلاح. وجعل جائزة كبيرة لمن يغتال تقفاريناص، ولكن الجتيوليين كانوا مخلصين للوطن ولزعيمهم وقائدهم تقفاريناص. فازدادوا حماسة للثورة، وحبا لقائدها.

وفي سنة 21 عين الإمبراطور تيباريوس لحرب تقفاريناص قائدا آخر أكثر كفاءة من

كاملوس هو ابليسوس وأرسل معه جيشا كبيرا. فأمضى ابليسوس عاما كاملا وهو يطارد تقفاريناص ليقضي عليه فلم يستطع. وكان ابليسوس لخوفه من تقفاريناص لا ينزل بجيشه إلا في الأماكن الحصينة خوفا من هجمات تقفاريناص المفاجئة عليه. ودام تقفاريناص عاما وهو ينازل بعصاباته ابليسوس حتى تكاثر عليه الرومان. فالتجأ إلى الصحراء ليستعد وتستجم قواه، ويظفر بفرصته ليجدد كرته على الرومان.

مؤازرة يوبا الثاني للرومان في محاربة البطل تقفاريناص

وكان يوبا الثاني في أثناء هذه الحروب هو الوالي على غرب نوميديا وعلى الموريطانيتين. وكان يساعد الرومان في محاربة الثورة، ويؤيدهم بكل ما يستطيع ليقضوا عليه. فمات يوبا الثاني في سنة 23 ق.م. وتقفاريناص مرابط في الصحراء يرقب الفرصة. ولما مات يوبا وولي مكانه ابنه بطليموس الضعيف، وجد تقفاريناص الفرصة، فكر على بعض المراكز الرومانية في الشمال فحاصرها وشدد عليه الخناق.

وكان الرومان مهتمين كل الاهتمام بهذه الثورة التي تزعزع بنيانهم في المغرب لتهدمه. فعينوا لمحاربة تقفاريناص قائدا ثالثا من اكبر قوادهم هو (دولا بيلا) فأقام (دولا بيلا) مراكز عسكرية كثيرة في حدود الصحراء لتمنع تقفاريناص من الالتجاء إليها. وقتل جماعة كبيرة من رؤساء الصحراء الذين يؤيدون تقفاريناص وينصرونه. ليرهب الجيتوليين فيكفوا عن مساعدة الثورة. ولكن الثورة لم تزدد إلا تأججا. فعلم دولا بيلا انه لا يستطيع التغلب على تقفاريناص بالهجوم السافر وهو في عصاباته الباسلة. فلابد من الهجوم المفاجئ عليه وهو آمن وفي قلة من الجند. فصار يرصده. فالتجأ تقفاريناص وهو في طريقه إلى موريطانيا حيث ينوي ان يحارب الرومان - التجأ إلى قصر خرب في وسط غابة كثيفة ليستريح فهجم عليه دولا بيلا غي جيشه الكثيف فطوق المكان الذي التجأ إليه، وعزله عن أنصاره. فعلم تقفاريناص انه مقتول أو مأسور، فاختار الموتة الكريمة. فخرج من ملجئه فكر على الرومان هو وصحبه فقتل منهم جماعة كبيرة فقاتل حتى قتل.

كانت هذه المعركة التي قتل فيها البطل المخلص تقفاريناص في سنة 24 م. ومات تقفاريناص وخمدت ثورته، بعد ما حارب الرومان الأقوياء ثماني سنين، وكبدهم الخسائر الفادحة، واقض مضاجعهم أعواما كثيرة.

ان بعض المؤرخين قالوا ان تقفاريناص إنما سار إلى موريطانيا ليجعلها ميدان حربه

لان حاشية بطليموس قد طلبت منه ذلك وواعدته بالعون والتأييد. ولا أرى ان تكون حاشية هذا الضعيف الذي يعبد الرومان ويطأ على رقاب بني جنسه صافية تتسم بالوطنية فتتحمس للثورة. وإذا صح ان الحاشية دعته فان ذلك مكيدة لإخراجه من الصحراء ليحاصره الرومان في الشمال، ويجدوا فيه فرصتهم.

وكان بطليموس يعين الرومان في حروبهم لقمع الثورة بكل ما يستطيع. لقد أعانهم بجنوده، وبكل ما استطاعه من قوة. وارى ان جنوده وعيونه هي التي مكنت دولا بيلا من الظفر بتقفاريناص. لولاهم لاستعصى عليه.

وأرسل مجلس الشيوخ الروماني هدية سنية إلى بطليموس وشكروه شكرا بالغا على إعانتهم حتى استطاعوا التغلب على الثورة. وحمل احد الشيوخ الهدية ورسالة الشكر. وكانت الهدية هي كرسي من العاج، والصولجان، وإكليل من الذهب، والحلة المطرزة. وهي مظاهر الملك لأباطرتهم، أخفوه بها ليزداد ركوعا لهم وتنكرا للمغرب. ولكن هل سيظل الرومان يتملقون بطليموس ويتمسكون به، إنهم لما قضوا حاجتهم به، وجثموا على المغرب وتمكنوا منه، ثقل عليهم، فتخلصوا منه كما يتخلص المرء من الجورب النتن المبتل إذا اجتاز المكان المقرور ودخل في المناطق الساخنة ! لقد قتلوه. وتلك عاقبة من يخون وطنه، ويمشي في ركاب المستعمرين.

متى قتل هذا الرجل ولماذا؟

نهاية بطليموس 40م

كان القيصر كايوس جيرمانيكوس الملقب بقاليقولا هو إمبراطور الرومان. وكان من ذرية انطونيوس جد بطليموس من أمه. فهو ابن خال بطليموس. وعزم الرومان ان يستريحوا من بطليموس وحاشيته التي يحكمون بواسطتها في المغرب ليحكموا حكما مباشرا ما تبقى منه في يد بطليموس. وكانوا يخافون ان يثير عليهم البربر ويستغل كره البربر لهم ذا عزلوه أو القوا عليه القبض في المغرب. فاستدعاه الإمبراطور ابن خاله إلى رما ليحضر حفلة كبيرة يقيمها الرومان في عيد من أعيادهم. فذهب بطليموس في حاشيته وبهته. وفي أثناء الحفلة وهو آمن، وفي مكان سرور، أمر الإمبراطور قاليقولا بالقبض عليه. وقالوا ان السبب هو غيرته من حلة بطليموس الأرجوانية، وأبهته التي لفتت إليه الأنظار في الحفلة. إذا صح هذا فانه على الذئب مع الحمل لما هم بافتراسه. ان السبب هو إنهم قد عزموا على التخلص منه ليستولوا على ولايته، فاغتنموا فرصة أمنه في الحفلة فقبضوا عليه. قد تكون أبهته وكبرياؤه وانتفاشه انتفاش الملوك وهو

ضعيف حقير عندهم مما أثار سخط الإمبراطور عليه، فأراد ان يطهر مكان الاحتفال من منظره الذي يؤذيه فقبض عليه في ذلك المكان. إذا كان مظهره هو السبب سخط الإمبراطور فانه سبب بسيط، والسبب الأكبر هو ما قلنا.

وسجن قاليقولا بطليموس في سجن مظلم بارد، وقطع عنه الطعام والشراب، ولم يترك له ماء غير مياه الميازيب العكرة التي تنهال من سطح السجن وتتجمع في سرداب بمحبسه. وبقي بطليموس ابن الحرير الناعم أياما في ذلك السجن، والجوع والبرد والظلام تعذبه. ثم أرسل إليه ابن خاله الإمبراطور من قتله.

كان مقتل بطليموس في سنة 40 م. وكانت سنه لما قتل خمسا وأربعين سنة، ومدة ولايته سبع عشرة سنة. فستولى الرومان على الموريطانيتين وجعلوهما ولايتين رومانيتين. ولاية موريطانيا القيصرية، وهي الشرقية، وولاية موريطانيا الطنجية وهي الغربية.

وكان ادمون من موالي بطليموس، وهو من البربر. فرفع لواء الثورة في المغرب على الرومان بعد مقتل صاحبه، فأيده الجيتوليون وبقيت ثورته إلى سنة 42 فقضى عليها الرومان.

وكان بطليموس هو آخر بربري يحكم في المغرب. ثم تسلط الرومان وقضوا على ظل السيادة والملك التي بقيت للبربر في عهد بطليموس. ذلك الملك الشامخ الذي ابتدأ في عهد نارفارس وزال بموت يوبا الأول وعرابيون. ثم بقيت بقية ضئيلة منه وظلال خفيفة في الاستقلال الداخلي الذي كان ليوبا الثاني وبطليموس.

هذه أنباء الدولة البربرية الكبرى التي أنشأها نارفارس في نوميدية قد أثرنا ان تتسلسل حلقاتها إلى ان تنتهي. فما هي أنباء المغرب الأقصى ومالكه؟

الممالك البربرية في موريطانيا الغربية

125 ق.م . 23م.

كان الله قد ادخر المغرب الأقصى للإسلام لينشئ لنا الدول الإسلامية البربرية الكبرى: الدولة الإدريسية، ودولة المرابطين؟، ودولة الموحدين؟، ودولة بني مرين، ودولة الحفصيين أيضا فإنها فرع من الموحدين. فلو أجهد نفسه قبل الإسلام لاستنفد طلقته فيدركه الإعياء والهرم فينام كما نامت كتامة في القرون الإسلامية الثلاثة الأولى لما كان المغرب الأقصى والأوسط يصارع الأمويين والعباسيين ليزيحهم عنه فينشئ دوله الإسلامية العادلة الزاهرة. لقد كان الزاب (نوميديا) حينئذ يغط في نومه. وكان العباسيون والاغالبة يجثمون عليه، ولم ينحرك إلا في القرن الثالث لما أفرط الأغالبة في الإساءة إليه.

ان موريطانيا الغربية إذا كانت نهضتها قبل الإسلام متأخرة عن نهضة افريقية، ونوميديا وموريطانيا الشرقية؛ ودولها كانت اقل شأنا، واضعف حضارة، واقل جدوى للمغرب الكبير، فان دولها الإسلامية سيما دولة الموحدين كانت أعظم، وأوسع رقعة، وأعظم جدوى للمغرب الكبير، من كثير من الدول التي نشأت في افريقية ونوميديا في العهود الإسلامية.

ان عدم ثورة الدولة البربرية في موريطانيا الغربية على الرومان، وعدم خوضها للحروب الطاحنة معهم -وهو ما كان المؤرخون القدماء يعنون بتسجيله- وبعدها عن قرطاجنة، وموقفها موقف البرودة في الحرب البونيقية، جعل البونيقيين والرومان لا يعتنون بتاريخها، ولا يسجلون أخبارها لتصل إلينا.

وكانت علاقة الملوك في موريطانيا الغربية بنوميديا وملوكها سيئة في اغلب العهود. لذلك يعتن علماء البربر في الدولة النوميدية بأخبار جارتهم موريطانيا الغربية فيسجلوها، فينقلها عنهم الرومان والإغريق الذين دونوا أكثر ما وصلنا من تاريخ المغرب قبل الإسلام؛ لهذا كانت المادة في تاريخ موريطانيا الغربية قبل الإسلام قليلة.

ان الذي لا شك فيه هو ان موريطانيا[107] الغربية قد أخذت بالحضارة البونيقية فنهضت

107 - موريطانيا وموريطانيا تكتب بالتاء وعدمها، وكذلك نوميدية وجيتولية.

وانتشر فيها العمران، وسرت الثقافة في مدنها، وازدهرت فيها الفلاحة، وخرج البربر فيها من بداوتهم.

لقد كان المغرب الكبير وطنا واحدا للبربر. وكان الاختلاط على أتمه بينهم. فلا بد ان تتأثر موريطانيا الغربية بموريطانيا الشرقية، ونوميديا، وافريقية. ثم ان البونيقيين الذين كانوا اكبر عامل لنهضة المغرب، وكانوا يجوبون بقوافلهم التجارية أنحاء موريطانيا الغربية حتى الصحراء منها، ويؤسسون المراكز التجارية في كل أنحائها، سيما في الساحل للإقامة الدائمة. وكان ساحل موريطانيا الغربية هو طريق البونيقيين إلى الأندلس، وكان تابعا لقرطاجنة في أيام عظمتها وعزها في القرن الخامس والرابع واغلب القرن الثالث قبل الميلاد.

لقد كانت في موريطانيا الغربية حضارة راقية، وان الممالك الواسعة التي نشأت فيها لدليل على التحضر والرقي.

كانت الممالك البربرية في موريطانيا الغربية قد نشأت في شمال المغرب. وكانت عاصمتها هي طنجة كما أرى أو وليلي. وكانت وليلي هي عاصمة يوبا الثاني وابنه بطليموس في موريطانيا الغربية. كما كانت مقرا للرومان بعدهما. وتسمى أيضا قصر فرعون.[108] وكانت تلك الممالك البربرية تشتمل على موريطانيا ووسطها. أما جبال المصامدة، والصحراء فلا أرى انها قد خضعت لها. لقد آثرت الاستقلال تحت أمرائها وزعمائها كما رأينا في جبال آوراس وةجبال القبائل وجبال نفوسة، وفي جيتوليا في نوميديا وموريطانيا الشرقية.

الملك بوكار

ان هذه الدولة التي نشأت في هذه البقاع أول من عرفنا من ملوكها هو بوكار الذي مد مصينيسا بجند في سنة 206 ق.م . لما رجع من الأندلس الإخماد ثورة مزوطيل في مملكته. ولا ندري هل بوكار هو أصل عائلة بوكوس الأول الذي تعاقب أبناؤه على الملك أم هو من قبيلة أخرى.

بوكوس الأول

وتولى الملك بوكوس الأول. وقد اصهر إليه في حوالي سنة 114 ق.م. الملك يوغورطة.

108 - قد تكون سبب هذه التسمية ان يوبا الثاني انشأ فيها قصرا له ولزوجته المصرية الأم والنشأة (كيلوباترة) على النحو الفرعوني فسميت بهذا الاسم.

ثم استعان به في حروبه مع الرومان في سنة 107 ق.م. ثم تسلط عليه الرومان فجنح إليهم فأعلنهم في القبض على يوغورطة في سنة 107 ق.م. فجازوه بان أعانوه على الاستيلاء على موريطانيا الشرقية. فامتدت دولته فصارت من طنجة إلى غرب صلداى (بجاية) وقد مات بوكوس الأول في سنة 80 ق.م. وكانت مدته في الملك نحو أربعين سنة.

بوغيد الأول وبوكوس الثاني

واقتسم ابنا بوكوس الأول مملكته لما مات في سنة 80 ق.م وهما بوغيدة الأول الذي اخذ موريطانيا الغربية، وبوكوس الثاني الذي اخذ موريطانيا الشرقية. ثم نشبت الحرب بين ماريوس وصيلا فاشتغل الرومان بعضهم ببعض فصاروا لا يستطيعون أنجاد صديقهم بوكوس الثاني وأخيه. فهجم مصينيسا الثاني على موريطانيا الشرقية فاستردها من بوكوس الثاني. ثم ردها إليه الرومان جزاء إعانته لهم على يوبا الأول في سنة 46 ق.م. وأضافوا إليه نوميديا اسطيفية فصارت دولته تمتد من وادي ملوية إلى غرب ميلة وشرق جيجل. وكان الإخوان بوكوس الثاني وبوغيد الأول متحدين. حتى ان موريطانيا الشرقية التي سماها الرومان بعد يوغورطة نوميديا الغربية قد قال بعض المؤرخين انها أعطيت لبوغيد والحق انها أرجعت لبوكوس الثاني، ولكنها لاتحادهما صارا كدولة واحدة. ودام بوغيدة الأول ملكا على موريطانيا الغربية إلى ان توفي في سنة 44 ق.م. وكانت مدته في الملك أربعا وأربعين سنة.

بوكوس الثالث

وبعد بوغيد الأول تولى الملك على موريطانيا الغربية ابنه بوكوس الثالث في سنة 44 ق.م. زحف على موريطانيا الشرقية ونوميديا اسطيفية فملكهما من ابن عمه بوغيد الثاني. فاتسعت مملكته فصارت من طنجة إلى وادي مساغة في غرب قرطة. فدام ملكا على هذه البقاع آلة ان مات في سنة 33 ق.م فاستولى الرومان على مملكته. ثم جعلوا عليها في سنة 17 ق.م. يوبا الثاني ثم ابنه بطليموس فتوليا عليها للرومان إلى ان قتل بطليموس في سنة 40 م. فحكم الرومان حكما مباشرا تلك البقاع وقسمت إلى ولايتين رومانيتين موريطانيا القيصرية، نسبة إلى القيصرية عاصمتها وهي شرشال، وهي موريطانيا الشرقية، وموريطانيا الطنجية. وكانت مدة هذه الدولة نحو قرن ونصف. وأول ملوكها كما أرى هو بوكار وآخرهم بوكوس الثالث.

أما بوكوس الثاني فانه توفي في سنة 40 ق.م. وكان قد حضر حروب الرومان مع عرابيون

الذي اخذ منه نوميديا الغربية. وبعد اغتيال الرومان لعرابيون استرد نوميديا الغربية، واقتطع جزءا من غرب نوميديا الوسطى فصارت حدوده تنتهي في وادي مساغة.

بوغيدة الثاني

ولما مات بوكوس الثاني ابنه بوغيد الثاني مملكته وفي سنة 38 ق.م ذهب إلى الأندلس بجيوشه لنصرة انطونيوس الذي كامن في حرب مع اوكتافيوس فأغرى هذا الأخير بوكوس الثالث بالهجوم على مملكة بوغيد ففعل. فاستولى عليها. ولم يستطع بوغيد استردادها فذهب إلى مصر فمات فيها.

ان استقرار دول هؤلاء الملوك وطول أمد اغلبهم في الملك يدل على رضى الرعية عن سيرتهم فيها. أما سيرتهم مع جيرانهم فقد كانت خبيثة. إنهم سبب زوال الدولة البربرية الكبرى، وتمكن الرومان من ناصية المغرب. لولاهم ما استطاع الرومان ان يتسلطوا على المغرب !

وكان هؤلاء الملوك ما عدا بوكار جبناء ذوي أطماع وحسد لجيرانهم. ولم تكن صفحتهم نقية في المغرب.

ثم جثم الرومان على المغرب الكبير بعد ان صرعه، فأورثه سكرته الثقيلة، فرتع فيه قرونا عديدة. فما هو سبب سقوط الدولة البربرية الكبرى التي كانت تدافع الرومان وتحفظ المغرب الكبير؟

أسباب انقراض الدولة البربرية الكبرى

أننا إذا نظرنا إلى عمر الدولة البربرية الكبرى التي أنشأها نارفاس وكانت عاصمتها قرطة لا تعجب لموتها. فهي قد استوفت عمرها، وعاشت ما يعيش أمثالها من الزمن لقد عاشت نحو ثلاثة قرون. ولكننا إذا نظرنا إلى شبابها وقوتها أيام زوالها، نعجب لذلك ونحكم بموتها سريعا. ان فيها من الطاقة والشباب ما يمسكها في الحياة قرونا أخرى من الزمان. ان الهدوء والهناء الطويل، والانغماس في الملاذ والشهوات، والركون إلى الراحة والكسل، هذه العلل الفتاكة التي تورث الهرم للأمم، وتصيبها بكل الأمراض فتلقى حتفها؛ ان هذه العلل لم تصب بها الدولة البربرية. ان كل ما ظفرت به من الهدوء والهناء إنما هو في أول عهد مصينيسا ووسطه. وكان مملوءا بأعمال الإنشاء والتعمير، فلم تركن الدولة إلى الراحة، ولم تنغمس في الملاذ والشهوات. فدامت في شبابها، بل ازدادت شبابا وقوة بما أسبغ عليها مصينيسا من علم وإصلاح. وفي آخر عهد مصينيسا دخلت في حروب طاحنة مع البونيقيين وهذه الحروب أرهفت قواها واذكت شبابها، ومنعتها من الضعف الذي يصيب الأمم الهانئة الهناء الدائم. ثم دخلت الدولة في عهد الهناء والهدوء في عهد مصيبسا. وكان خيال العدو الجديد وهو الرومان المستقرون في افريقية يرهف قواهم،[109] ويمنعهم من الغفلة والنوم والإخلاد إلى الراحة. فشمروا عن سادهم فازدادوا قوة، واستعدوا للعدو الجديد.

وجاء عهد يوغورطة. فكان كله عهد نضال وحروب. وهو ما حفظ شباب الدولة، وزادها قوة وحيوية. ثم اتصلت حروب الدولة مع الرومان إلى وفاة يوبا الأول. ان هذه الحروب التي خاضتها الأمة، والعدو القوي الذي يجاورها جعلها تتمسك بأسباب القوة والشباب فلم تهرم، ولم تتصدع تصدع البنيان الذي يتداعى للسقوط. فلو تركت هذه الدولة لعاشت مدة طويلة من الزمان حتى تستوفي كهولتها وشيخوختها، ولكنها احتضرت، وقصفت، وفروعها ممتلئة بالزهور، ريانة يغص جذعها وغصونها بالحيوية والطاقة الكبيرة. ولكن ما هي الأسباب التي جعلت هذه الدولة تلقى حتفها في قوتها وشبابها؟

109 - ضمير الجماعة هنا يرجع إلى البربر الذين يكونون الدولة.

ان سبب انقراض هذه الدولة ليس هو ضعفها وتفوق الرومان عليها في الشجاعة والقوة الحربة. لقد كانت أشجع من الرومان، كثيرة العَدد والعُدد. وقد صارعها الرومان طويلا فلم يصرعوها. ان في شجاعة أبنائها، وثباتهم، وفي مناعة جبالها وصحرائها التي يستطيعون بها حرب العصابات، ما يجعلها تتغلب على الرومان وتدحرهم، وتطهر المغرب منهم لو اتصلت تلك الحروب. ولكن الدولة البربرية الباسلة لا تشتبك في حرب عنيفة مع الرومان إلا ويضربها جيرانها من خلفها، ويقيدونها للرومان فيتغلبون عليها. فهذا يوغورطة يؤسره للرومان بوكوس الأول،وكذلك يرباص قتله جيشه، ويوبا الأول ضربه أبناؤه من خلفه فقصموا ظهره. وقد كاد يهزم بوليوس قيرص، ويملك افريقية، ويظهرها من الرومان، وبسد باب المغرب في وجوههم. فلو ترك يوبا لقضي على الرومان. وكذلك يوغورطة لو بقي فواصل حرب العصابات على الرومان لهزمهم، ولكن حسد الجيران وجبنهم وأطماعهم جعلهم يطعنون الدولة البربرية من خلفها ويصرعونها للرومان.

ان الذين طرحوا الدولة البربرية أرضا بغدرهم، ثم جثم عليها الرومان فأزهقوا روحها إنما هم البربر: بوكوس الأول وأبناؤه. فلو اتحدوا معها وحفظوا ظهرها لانتصرت على الرومان، فينجوا المغرب من سباع البحر وجراد روما الذي امتص حياته وجرده من نضارته؛ وتعيش الدولة البربرية الكبرى، وتعيش معها دولة بوكوس الأول وأبنائه، أو تتحد مع جارتها فتصير دولة واحدة من غرب الإسكندرية إلى المحيط الأطلسي، كما تمنى مصينيسا وكل الأحرار المخلصين في المغرب.

لو اتحد المغرب في الزمن القديم فكان دولة واحدة ما استطاع الرومان التغلب عليه. ولو كان متحدا في القرن الثالث عشر الهجري ما استطاع أحفاد الرومان اللاتينيون استعماره والتغلب عليه. وهكذا لا يزال المغرب ضعيفا يتعرض لتسلط الأعداء ما لم يكن دولة واحدة متماسكة على النظام الفدرالي الذي يصلح به. إذا تحقق هذا للمغرب، فانه يرفع رأسه، يكون قوة كبرى يلوذ بها الإسلام والمسلمون، ويجدي الأمة الإسلامية اكبر الجدوى.

وكانت نشأة الدولة البربرية في سنة 240 ق.م. أو قبل ذلك، وزوالها وحكم الرومان للمغرب كله حكما مباشرا في سنة 40م. فعمرها قرنان وثمانون سنة أو أكثر.

لقد استطاع الرومان ان يمسكوا بخناق الدولة ويزهقوا روحها، ويقطعوا أوصالها في سنة 46 ق.م. لما هزموا يوبا الأول بالخديعة والدس، وتسلطوا على بعض أجزائها

فحكموها حكما مباشرا. وبقيت الأجزاء الأخرى فظلت على الاستقلال الداخلي إلى سنة 40م.

ان عمر الدولة البربرية كدولة مستقلة استقلالا تاما لا سلطان للرومان عليها هو 194 سنة فقط من سنة 240 إلى سنة 46 ق.م.

وجاء الرومان فجثموا بكلكلهم الثقيل على المغرب، فصار مستعمرة لهم ! فمن هؤلاء الرومان؟ أين وطنهم؟ وما أسباب عظمتهم؟ وما حال المغرب في عهدهم؟.